الواضح في التفسير

السيد عباس علي الموسوي

الجزء الأول

سورة الفاتحة - سورة البقرة

مركز الغدير
للدراسات والنشر والتوزيع

الواضح في التفسير

مركز الغدير للدراسات والنشر والتوزيع

لبنان - بيروت - حارة حريك - شارع السيد عباس الموسوي - بناية مركز الغدير
تلفاكس: ٥٥٨٢١٥ / ٠١ — ٥٥٢٢٦٢ / ٠١ خليوي: ٦٤٤٦٦٢ / ٠٣
ص.ب: ٥٠/٢٤ - الرمز البريدي: ١٠١٧ - ٢٠١٠ - برج البراجنة

www.alqadir.org
www.alqadir.net

الطبعة الأولى

١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م

الواضح في التفسير

السيد عباس علي الموسوي

الجزء الأول

سورة الفاتحة - سورة البقرة

مركز الغدير

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة سريعة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على محمد وآله الطيبين الطاهرين وبعد:

عشتُ مع كتاب الله منذ انفتحتْ عيناي على الدنيا حيث كان جدي وأبي والأسرة كلها والجيران رحمهم الله يقرؤونه مع خيوط الفجر الأولى قبل أن ينصرفوا إلى ممارسة أعمالهم في حقول البلدة وسهولها وكذلك يتلون ما تيسّر لهم منه مساءً إذا توفرت لهم بعض الأوقات وسمحت لهم الظروف..

عشت في أجواء القرآن، عشقت أذناي لحنه... رقّ له قلبي مع كل مقرىء أحسن القراءة..

كنتُ أفهم بعض معانيه الظاهرة فهماً بدائياً ولكن كنتُ أتطلّع إلى فهمه بشكل أدقّ وأعمق... كنتُ واحداً من أبناء هذه الأمّة ـ كما أبناؤها ـ نتطلّع إلى قراءة كتاب الله وفهمه لكي نعمل به وندرك من خلاله سعادة الدنيا والآخرة...

وكبرتُ وكبر الأمل في إدراك ما كنتُ أتطلع إليه...

هاجرت في طلب العلم إلى مدينة العلم ـ النجف الأشرف ـ وأمضيت فيها زهرة العمر وربيع الشباب فكانت أعوام الدراسة الأربعة عشر من أكثر الأعوام نفعاً وفائدة حيث تتلمذنا على أيدي مرجعيات بلغت أرقى عوالم الفكر والمعرفة وقدّموا للأمة أدق النظريات الأصولية والفقهية والفلسفية وغيرها مما يحتاجه المجتمع أمثال أستاذنا الفذّ وأستاذ أساتذتنا السيد أبو القاسم الخوئي وأستاذنا

النابغة الشهيد السيد محمد باقر الصدر وشيخنا ميرزا علي التبريزي الغروي وعشرات من المجتهدين وأصحاب الآراء الصائبة والنظريات البكر المستحدثة...

وعدتُ من النجف الأشرف وابتدأت أكتب في الحقول العلمية المختلفة، في الأخلاق والآداب... في دفع الشبهات، أخذت أشرح ثوابت الفكر ودعائم الروح فكان شرح نهج البلاغة، وشرح الصحيفة السجادية، وشرح رسالة الحقوق وهكذا إلى أن ربتْ المؤلفات على العشرين بحمد الله ولكن بقيتْ في النفس حاجة تلحّ وتشتد في الإلحاح...

كانت أمنيتي التي فتحتُ عينيّ عليها تطرق أبواب العقل والفكر والروح وتحثني باستمرار للدخول إلى كتاب الله وتفسيره وإدراك معانيه...

أن تفهم خطاب الله ﴿قُرْءَانًا﴾ الذي جاء من أجلك فهذه غنيمة عظيمة وغاية السعادة والخير. فلماذا التأخير والتأجيل فلعل فسحة العمر قصيرة! وكيف بك وقد دخلت في عقدك السادس ولم يبق من العمر إلا الثمالة...

التفاسير

عدتُ إلى التفاسير أقرأها وأستطلع ما فيها.. قرأت العشرات منها جزى الله مؤلفيها الأجر والثواب ـ فكان لكل تفسير نكهته الخاصة واتجاهه الخاص، فهناك مَن اقتصر على المعنى اللغوي ومفردات الألفاظ وهناك من ألغى هذا المعنى ـ إلاّ نادراً ـ وأخذ في بيان فصاحة القرآن وبلاغته. وهناك ثالث أدخل في التفسير ما ليس منه حيث أدخل الفلسفة وعلم الكلام والعرفان، وهناك رابع اعتمد الروايات والأحاديث فحسب في تفسير الآيات حتى وصل به الأمر إلى رفض ظهور الآيات والمتعارف في فنّ التخاطب بين الناس وراح يعتمد على رواية ضعيفة لا تصلح مؤيداً فضلاً عن أن تصلح تفسيراً لكتاب الله فاعتمد عليها واستند إليها في تفسير الآية...

ومنهم ـ من المفسرين ـ من كتب إلى فئة خاصة من الناس بحيث لا يفهم عامة الناس من كلامه إلا القليل وهكذا دواليك . .

تفسيرنا الواضح في التفسير

توخّيتُ من هذا التفسير أن أصل بالمعاني القرآنية إلى عامة الناس ـ وقد عشتُ معهم عقوداً من الزمن ووقفت على احتياجاتهم وسُئِلتُ من قبلهم عن الآيات الكثيرة وسمعت منهم الشكاوى التي لا تحصى في أنهم يقرؤون هذا التفسير ولا يفهمونه ويقرؤون الآخر فيتوهون في الأقوال المتعددة والآراء المختلفة وهكذا دواليك.

أقول: أردت في تفسيري هذا أن أسعف العامة من الناس ـ على تفهّم كتاب الله بأيسر الطرق وأوضح البيان فعمدتُ لتحقيق هذا الهدف إلى أمور:

الأول: جئت بالمعاني اللغوية لكل مفردة بشكل كامل بحيث حاولت أن لا يغيب شيء منها . . وهذا ينفع العامة من الناس وينفع الخوّاص من أهل التحقيق والتدقيق.

الثاني: حاولت أن أكشف معاني الآيات ـ آية آية ـ بعبارة سهلة ميسّرة يستطيع من يقف عليها أن يفهمها ويفهم معنى الآية وإن لم يكن على درجة عالية من العلم والمعرفة . . .

الثالث: لم أذكر الأقوال المتعدّدة في الآية الواحدة لئلا يضيع ـ العامة من الناس ـ في خضمّ الاختلافات والآراء والأقوال وعمدتُ إلى تفسير الآية بما ينسجم مع المدلول اللغوي ويتوافق والثابت من أسباب النزول التي تنسجم مع هذا المدلول، وقد خرجت عن هذه القاعدة في حالات كثيرة لتساوي الأقوال في القوة واحتمال الآية لكل منها . . .

الرابع: جاء هذا التفسير كاشفاً لفهم المعنى ومعيناً لإدراك ما تحمله الآيات

مع ذكر الأمور البلاغية فيه تارة وما يجب أن يستفيده الإنسان في دنياه وآخرته تارة أخرى.

وكذلك جئت بغير ما تقدّم مما تحمله الآيات ويكون مورداً للنفع والفائدة. وفي ختام كلمتي السريعة أتوجّه إلى الأمة الإسلامية وأدعوها أن تعود إلى فهم كتاب الله والعمل به لكي تقود المجتمع البشري إلى سعادة الدنيا والآخرة، وأسأله سبحانه أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم إنه نعم المولى ونعم النصير والحمد لله رب العالمين.

السيد عباس علي الموسوي

«أبو علي»

لبنان - البقاع - النبي شيث

١٤٢٧هـ

سورة الفاتحة

مكية

وعدد آياتها سبع آيات

سورة الفاتحة

بين يدي السورة

سورة الفاتحة من السور المكية.. وقيل: إنها مدنية.

وهناك قول ثالث بأنها نزلت مرتين مرة في مكة وأخرى في المدينة ولا طائل من هذا الخلاف ولا ثمرة عملية من ورائه...

وهذه السورة المباركة تبتدىء بحمد الله الذي يحمل ضمناً معرفة الله ومعرفة صفاته التي استحق بها هذا الحمد، وهذه المعرفة وجدانية فطرية مودعة في نفس هذا الإنسان.. بحيث إذا أعطى قليلاً من التأمل عاد بها وبأيسر ما يكون، وحتى إذا تراكم على الفطرة بعض الغبار ـ نتيجة ظروف يعيشها هذا الإنسان ـ فحجب نور هذه الحقيقة، فإنه وبإثارة بسيطة وتحريك قليل تنهض هذه الفطرة بدورها في معرفة الله ومعرفة صفاته...

إن كل الحمد لله رب العالمين الذي خلق هذا العالم وكل العوالم، الحمد له حيث خلق العالمين ـ وهو كل ما سواه ـ وقام على تربيته وإنشائه وتدبير أموره.. فهو الرب وحده لهذا العالم كله...

ثم إن الآية تتناول صفة الرحمة التي يتصف بها الله فينص سبحانه عليها ﴿الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ بما تحمل هذه الرحمة من فيض الوجود على كل موجود،

ثم بما تحمل الرحمة من عناية بهذا الوجود من حيث التنظيم والترتيب والإبداع بحيث يأخذ كل شيء موقعه ودوره دون خلل أو اضطراب...

﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ بما يحمل التكرار من تأكيد على هذه الصفة خصوصاً إذا أضيف إلى التكرار الموجود في البسملة - التي هي جزء من السورة فإن ذلك يعطي لهذا الإنسان مقدار رحمة الله في هذا العالم وما فيه كي يعيش هذا الإنسان بعضاً منها فيرحم نفسه ويرحم الآخرين...

ثم إن السورة تستعرض ملكية الله ليوم القيامة - ويوم القيامة - والإيمان به عقيدة إلهية لم تخلُ منه دعوة تتصل بالسماء وتستمد وجودها من إله السماء...

الإيمان بيوم القيامة - الحساب بعد الموت حيث يعيد الله هذا الإنسان ويحييه ثم يفتح له كل ملفاته ويقرأ عليه كل أعماله وأفعاله فيحاسبه عليها ويعطيه الجزاء الذي يناسبها - الإيمان بذلك اليوم والإيمان بأن الله وحده يملك الحكم فيه والحساب.. هذا الإيمان يحمل الإنسان على أن يكون صالحاً متبعاً لمنهج الله وما يريد...

الإيمان بأن الله يملك وحده محاسبة الإنسان يوم القيامة وإعطائه الجزاء، هذا الإيمان يجعل من هذا الإنسان عضواً صالحاً في الحياة - صالحاً في عقيدته وصالحاً في سلوكه وعمله...

ثم إن السورة تستعرض واقع ما يجب أن يكون عليه هذا الإنسان ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ۝﴾ نعبدك وحدك يا رب ولا نعبد سواك لأنك المستحق للعبادة وحدك - فالخضوع والتذلل وكل أوجه التواضع هي مستحقة لك وحدك يا رب فاجعل عبادتنا لك خالصة...

وأما الاستعانة.. فهي أيضاً بك وحدك - إنك نعم العون - لأنك تملك هذا الجود وكل موجد وكل من يملك شيئاً من القوة والعون فهو من فضل فيضك وجودك - إذ ليس لأحد استقلالية عنك ولا وجود له بدونك - فإن حدث العون من غيرك فهو منك وبإذنك...

﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝﴾ نستعين بك دون غيرك ـ وإن حدثت استعانة بغيرك ظاهراً ـ فالمرجع إليك وأنت أصله ومنك يكون وإليك يعود. . .

﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝﴾ الاستعانة حصرية بالله وما يرى من استعانات خارجية مرجعها ومردُها إليك ـ ولولاك ولولا وجودك ـ لم تكن هي ولم يكن ما يتفرع منها وعنها. . . وهذا يستدعي أن نوجه النظر إلى الله وننقطع إليه ونجعل كل الوسائط والوسائل ترجع إليه وتعمل بإذنه وكما يريد ويحب. . .

ثم إن هذا الإنسان مهما كان محصناً بقوة العقيدة والإيمان وسلامة الموقف وصحيح الرؤى. . ولكنه مع ذلك في معرض هبوب العواصف القواصم التي لا يقوى عليها ضعف هذا الإنسان. . . إن الأعاصير تجتاح ما تمر به فتدمّر وتخرّب وتأتي على الأحياء وعلى الحياة. ولذا يحتاج هذا الإنسان إلى مدد مستمر من الله. . . يحتاج إلى تواصل دائم معه يناديه، يستغيث به ـ يطلب منه المدد والقوة.

﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝﴾ ثبتنا يا رب على درب الهدى الذي نحن فيه وهو طريق الإسلام والسبيل الموصل إليك. . .

وإذا كان الطريق المستقيم ـ وهو الذي لا اعوجاج فيه ـ أقرب الطرق ـ اللهم فاجعل طريقنا إليك قريباً وواضحاً لا غبار عليه ولا التواء فيه. . .

ثم بين سبحانه ملامح ذلك الطريق المستقيم. . إنه طريق شقته ثلة من خيار عباد الله وروّاده وطلاّب رضاه ـ سماهم سبحانه ـ ﴿ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ إنها فئة حازت رضاه لطيب عنصرها وخصائص تحملها فأنعم عليها سبحانه فاختارها ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ﴾[1] وهذه فئة منتقاة مصفاة تحمل الإيمان بأعلى مراتبه والعمل في أسمى منازله. . .

ثم لتأكيد هذا الطريق وتوضيحه يكشف سبحانه أن مَنْ ادّعى غيره فهو مغضوب عليه أو ضال.

ولذا قال تعالى: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾.

---

(١) النساء/ ٦٩.

وهذا وإن فسّر باليهود - المغضوب عليهم - حيث عرفوا الحق فجحدوه وأنكروه ونصبوا له العداوة عن عمد.

وكذلك ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ وإن فسر بالنصارى - الذين ضلوا الطريق الصحيح وتاهوا عنه - ولكن للآية مفهوم أوسع من هذين المصداقين ليشمل كل مَنْ اتخذ غير الطريق المستقيم - والطريق المستقيم واحد لا يتعدد ولا يتكرر - وغيره متعدد ومتنوع لقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴿١٥٣﴾﴾[١].

هذه هي الملامح العامة لسورة الفاتحة وسيأتي بيان آياتها بالتفصيل إن شاء الله . . .

فضل سورة الفاتحة

ورد لهذه السورة المباركة فضل كبير ولعل فضلها لما احتوته من حمد الله وما وُصِفَ به من رحمة وما له من سلطة خاصة منحصره فيه يوم القيامة ثم إقرار العباد بالحاجة إليه وطلب العون منه وطلب الهداية والاستمرار عليها، وعلى كل حال سأكتفي بنقل عيّنات مما ورد في فضلها:

١ - قال رسول الله ﷺ: من قرأ[٢] فاتحة الكتاب أعطاه الله عز وجل بعدد كل آية نزلت من السماء ثواب تلاوتها.

٢ - وفي تفسير العياشي - وذكر ذلك الطبرسي في تفسيره عن إسماعيل بن أبان يرفعه إلى النبي ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ لجابر بن عبد الله: يا جابر ألا أعلمك أفضل سورة أنزلها الله في كتابه؟

قال: فقال جابر[٣]: بلى، بأبي أنت وأمي يا رسول الله علمنيها.

---

(١) الأنعام/١٥٣.

(٢) الخصال، ص٣٥٥، حديث ١.

(٣) العياشي، أوائل تفسير سورة الحمد.

قال: فعلّمه الحمد لله ـ أم الكتاب ـ قال ثم قال له: يا جابر ألا أخبرك عنها؟

قال: بلى. بأبي أنت وأمي فأخبرني.

قال: هي شفاء من كل داء إلاّ السام ـ يعني الموت.

وفي كتاب الخصال: عن أبي عبد الله عليه السلام قال: رنّ إبليس أربع رنات، أولهن يوم لُعن، وحين أهبط إلى الأرض، وحين بُعث محمد على حين فترة من الرسل، وحين أنزلت أم الكتاب الحمد لله رب العالمين..

ـ وفي كتاب ثواب الأعمال بإسناده قال أبو عبد الله عليه السلام اسم الله الأعظم مقطّع في أم الكتاب.

ـ وفي كتاب عيون أخبار الرضا في الحديث: إذا قال العبد ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝﴾ إلى آخرها ـ قال الله: هذا لعبدي ولعبدي ما سأل قد استجبت لعبدي وأعطيته ما أمّل وآمنته ما منه وجل...

أسماؤها

ذكر المفسرون أسماء كثيرة لهذه السورة المباركة حتى أوصلها بعضهم كما يقول الألوسي في روح المعاني إلى نيف وعشرين اسماً وأنا سأذكر ما ورد الاتفاق عليه بين الطرفين فيكون من المجمع عليه وهو ما ورد عن أئمة الهدى وهي:

١ ـ الفاتحة ـ لافتتاح القرآن[1] الكريم كتابة بها، وليس ترتيباً في النزول...

٢ ـ فاتحة الكتاب ـ لعين ما تقدم من حيث ترتيب كتابتها في أول القرآن.

٣ ـ الحمد ـ وهذا ظاهر لأنها مفتتحة بالحمد ـ الحمد لله رب العالمين.

٤ ـ أم الكتاب ـ لأنها متقدمة على غيرها من سور القرآن كتقدم الأم على أولادها أو لأن ما في القرآن يرجع إليها.

٥ ـ أم القرآن ـ أيضاً لنفس ما تقدم في أم الكتاب. . .

٦ ـ السبع المثاني ـ ففي الحديث عن محمد بن مسلم قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن السبع المثاني والقرآن العظيم أهي الفاتحة؟ قال: نعم.

قلت: بسم الله الرحمن الرحيم من السبع المثاني.

قال: نعم هي أفضلهن. .

ووجه هذه التسمية أنها سبع آيات وتثنى ـ فتقرأ مرتان في كل صلاة ـ سواء كانت الصلاة ثنائية أو ثلاثية أو رباعية، تقرأ في الركعتين الأوليتان فقد ورد عن المعصوم ـ لا صلاة بدون فاتحة الكتاب. . .

قال تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ (١) الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢) الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ (٣) مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (٤) إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (٥) اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ (٧)﴾.

* * *

اللغة

﴿بِسْمِ﴾: الاسم: هو اللفظ الذي يدل على ذات كحسن وحسين أو معنى كعلم وفقه.

﴿اللَّهِ﴾: اسم علم لواجب الوجود المستجمع لجميع صفات الكمال وهو اسم خاص به لا يشاركه فيه غيره.

﴿الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾: صفتان لله من الرحمة ـ والرحمة في الإنسان: رقة القلب التي تقتضي الإحسان ـ وفي الله: الإحسان والإفضال ـ دون الانفعال ـ.

﴿الْحَمْدُ﴾: هو الثناء بالجميل على جهة التعظيم مع المحبة وهو نقيض الذّم وأعم من الشكر.. لأن الشكر مقابل النعمة بخلاف الحمد، والتحميد أبلغ من الحمد ـ ومحمد الذي كثرت خصاله المحمودة ولذا سمي نبينا بهذا الاسم.

﴿رَبِّ﴾: الرب: من التربية.. وهي التعهد بإصلاح شؤون الغير والقيام عليه

ويطلق الرب على المالك والمصلح والمعبود، والسيد المطاع. وفي الصحاح: الرب اسم من أسماء الله تعالى ولا يقال في غيره إلاّ بالإضافة...

﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: جمع عالم بفتح اللام ويراد به كل ما عدا الله من الكائنات...

﴿يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾: يوم الجزاء وهو يوم القيامة، والدين: لغة الجزاء ومنه كما تدين تدان.

﴿نَعْبُدُ﴾: قال الراغب: العبودية، إظهار التذلل والعبادة أبلغ منها لأنها غاية التذلل ولا يستحقها إلاّ من له غاية الإفضال وهو الله تعالى...

﴿نَسْتَعِينُ﴾: الاستعانة: طلب العون وهي المساعدة على أمر لا يمكن المستعين أن يقوم به وحده.

﴿ٱهْدِنَا﴾: الهداية: الدلالة بلطف إلى المطلوب.

﴿ٱلصِّرَٰطَ﴾: الطريق.

﴿ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾: الذي لا اعوجاج فيه.

﴿أَنْعَمْتَ﴾: الإنعام: هو إيصال الإحسان إلى الغير من العقلاء ـ كما يقول الراغب ـ.

﴿ٱلْمَغْضُوبِ﴾: الغضب: لغة الشدة، ورجل غضوب: شديد الخُلُق، وغضب الله: عقوبته...

﴿ٱلضَّآلِّينَ﴾: من الضلال، قيل: أصله الهلاك ـ وهنا يراد به الذهاب عن سنن القصد وطريق الحق.

التفسير

قال تعالى: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝١﴾ هذه الآية المباركة تأتي في مطلع مائة وثلاثة عشر سورة من سور القرآن البالغ عددها مائة وأربعة عشر سورة

ـ حيث تخلو سورة براءة من هذه الآية ـ فهي آية من كل سورة كما هو الحق وكما هو موجود في خط القرآن. . .

إن الله أنزل على نبيّه هذه الآية لكي تكون في مطلع كل فعل أو قول أو عمل لكي يأخذ ذلك العمل شرعية إلهية فلا يتخطى الحدود التي أرادها الله وسمح بها وأيضاً لكي يأخذ منه القوة والمدد باعتبار أن الله هو الخالق والرازق والقدير والعليم والذي بيده الأمور كلها. . .

إن كل فعل أو قول أو حركة لا يمكن أن يعطي ثماره الطيبة النافعة إلاّ ببركة الله وإذنه، ولذا ينطلق المسلم في قوله: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝١﴾ عندما يريد أن يتكلم أو يقوم أو يفعل أو يعمل بل حتى إذا تحرك ونقل أقدامه من مكان إلى آخر تراه يردد البسملة ويتكلم بها وهكذا. . .

﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ يعني ابتداء ـ فعلي أو قولي أو قراءتي أو غير ذلك ـ مستعيناً باسم الله الذي متى استحضر الإنسان معنى الله استشعر بالقوة والتوفيق والمدد لأنه الخالق الرازق الذي بيده الأمور يقول للشيء كن فيكون. . .

إن الإنسان الذي يعيش الله في قلبه باستمرار، هذا الإنسان لا بد وأن يظهر ذلك على لسانه أيضاً حتى يتطابق الظاهر مع الباطن. . لا بدّ أن يظهر اسم الله على اللسان أمام كل فعل أو قول ليأخذ البركة والتسديد ويكون تحت نظر الله وبأمره ويكون موافقاً لإرادته فإن الكفار كانوا إذا أرادوا أمراً ذكروا آلهتهم فقالوا: باسم اللات والعزّى فكان على المؤمنين مواجهتهم بعقيدة الإيمان فيذكرون الله ويبتدءون باسمه في أول كل أمر من أمورهم. . .

وقد ورد عن علي عليه السلام في حديث قال: إن الله يقول: أنا أحق من سئل[1] وأولى من تضرع إليه فقولوا عند افتتاح كل أمر صغير وعظيم ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝١﴾ أي استعينوا على هذا الأمر بالله الذي لا تحق العبادة لغيره المغيث إذا استغيث. . . الخ. . .

---

(١) وسائل الشيعة، باب ١٧ من أبواب الذكر.

﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ صفتان لله.. فهو سبحانه الرحمن الرحيم وهما مشتقتان من الرحمة التي هي الرقة المقتضية الإحسان إلى المرحوم فإذا وصف بها الباري فليس يراد بها إلاّ الإحسان المجرّد دون الرّقة - إذ الانفعال طبيعة البشر والأحياء من خلق الله.

قال الراغب في مفرداته: و﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ نحو ندمان ونديم ولا يطلق الرحمن إلاّ على الله تعالى من حيث أن معناه لا يصح إلاّ له.. إذ هو الذي وسع كل شيء رحمة، و﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ يستعمل في غيره وهو الذي كثرت رحمته: انتهى..

فالرحمن أبلغ من الرحيم لأن زيادة البناء يقتضي زيادة المعنى والرحمن باعتبار كثرة الأفراد ولذا عُمّم الرحمن لكل الأحياء في الدنيا بينما خص الرحيم في الآخرة فقيل: يا رحمن الدنيا ورحيم الآخرة باعتبار أنه الرحمن للمؤمن والكافر ورحمته عامة لجميع خلقه في الدنيا بينما هو رحيم بالمؤمنين في الآخرة...

وقيل: إن الرحيم صفة مؤكدة للرحمن وفي التوكيد فوائد كثيرة وهو كثير في لغة العرب.

وبأيهما أخذنا فمن الواضح أن الله سبحانه هو أرحم الراحمين فمن رحمته أخرج هذا الموجود إلى عالم الوجود وأفاض عليه العطاء حتى يستمر في الحياة... إن الله تعالى من مظاهر رحمته التنظيم الدقيق لهذا العالم بحيث وضع كل شيء في موضعه وأعطاه دوره اللائق به والمعدّ له وخلق هذا الإنسان وزوّده بالعقل وأرسل إليه الأنبياء والرسل وأرسل معهم الكتب من أجل تقويم هذا الإنسان وضبطه ولكي يبقى باستمرار في خط الاستقامة والاعتدال فلا يطغى ولا يجور ولا يتجاوز الحدود...

إن الله سبحانه رحمن رحيم يعطف على هذا الإنسان - عطف مصلحة حيث يشرع له ما ينقذه به من السقوط والفساد ويحفظ له توازنه واعتداله وخط

الاستقامة فيه.. وعلى الإنسان بشكل عام وعلى المؤمنين بشكل خاص.. أن يعيشوا حالة الرحمة فيرقّوا على عباد الله وخلقه وتكون هذه الصفة في كل أقوالهم وأفعالهم وتطلعات حياتهم...

إن الرحمة التي تصدرت أول آية من أول سورة قرآنية وكانت في أول كل سور القرآن سوى ـ سورة براءة ـ تكشف عن مدى رحمة الله وسعتها وشمولها وعمومها وأن الله الذي نؤمن به من أهم صفاته هذه الرحمة كي يبقى هذا الإنسان يتطلع إليها مهما أساء أو أخطأ ولا يفقد الأمل من رحمة الله التي وسعت الكون كله بما فيه...

فوائد مهمة

١ ـ اتفق الشيعة تبعاً لأئمتهم أن البسملة آية من كل سورة قرآنية ـ ما خلا سورة براءة ـ وهي بالتالي جزء يجب قراءته في بداية كل سورة يجب قراءتها وقد اختلفت آراء العامة.

والحق هو ما عليه الشيعة، فإن المسلمين أجمعوا عامة وخاصة أن ما بين الدفتين من كتاب الله هو قرآن دون زيادة حرف أو نقيصة حرف وعليه فإن ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ①﴾ مكتوبة في أول كل سورة فهي إذن من القرآن. وآية من كل سورة عدا «براءة».

قال الزمخشري في كشافه بعد أن يذكر خلاف العامة فيه: وقرّاء مكة والكوفة وفقهاؤها قالوا على أنها آية من الفاتحة ومن كل سورة وعليه الشافعي وأصحابه رحمهم الله ولذلك يجهرون بها وقالوا: قد أثبتها السلف في المصاحف مع توصيتهم بتجريد القرآن ـ ولذلك لم يثبتوا آمين ـ فلولا أنها من القرآن لما أثبتوها[١].

(١) الكشاف، ص٢٥، ج١، طبعة دار المعرفة.

وعن ابن عباس من تركها فقد ترك مائة وأربع عشرة آية من كتاب الله تعالى. . انتهى.

وأيضاً من الثابت أن سورة الفاتحة سبع آيات ولا تكمل السبعة إلاّ بقراءة البسملة. . . وقال القرطبي في تفسيره: أجمعت الأمة على أن فاتحة الكتاب سبع آيات إلاّ ما روي عن حسين الجعفي أنها ست - وهذا شاذ -.

وفي رواية محمد بن مسلم قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن السبع المثاني والقرآن العظيم أهي الفاتحة؟

قال: نعم.

قلت: بسم الله الرحمن الرحيم من السبع؟

قال: نعم هي أفضلهن. . .

٢ - اختلف من أوجب قراءة - بسم الله الرحمن الرحيم - في الفاتحة وفي كل سورة اختلفوا في الجهر بها وإخفاتها.

فذهب الشيعة تبعاً لأئمة أهل البيت عليهم السلام أنه يجب الجهر بها إن كانت القراءة جهرية ويستحب الجهر بها إن كانت الصلاة إخفاتية. . .

- في الحديث عن صفوان قال: صليت خلف أبي عبد الله عليه السلام[١] أياماً فكان يقرأ في فاتحة الكتاب: ببسم الله الرحمن الرحيم، فإذا كانت صلاة لا يجهر فيها بالقراءة جهر ببسم الله الرحمن الرحيم وأخفى ما سوى ذلك.

روى الرازي في تفسيره وهو يذكر الحجج على الجهر بالبسملة. .

فقال: روى البيهقي في السنن الكبرى عن أبي هريرة.

قال: كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يجهر في الصلاة ببسم الله الرحمن الرحيم، ثم إن الشيخ البيهقي روى الجهر عن عمر بن الخطاب وابن عباس وابن عمر وابن

(١) وسائل الشيعة، أبواب القراءة في الصلاة.

الزبير وأما علي بن أبي طالب رضي الله عنه كان يجهر بالتسمية، فقد ثبت بالتواتر. ومن اقتدى في دينه بعلي بن أبي طالب فقد اهتدى، والدليل عليه قوله ﷺ: اللهم أدر الحق مع علي حيث دار... انتهى كلام الرازي..

٣ ـ إن التسمية واجبة عند الذبح والنحر وعلى هذا أمر الكتاب والسنة، قال تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾[1].

وفي الحديث عن أبي جعفر عليه السلام[2] في حديث قال: ولا تأكل من ذبيحة ما لم يذكر اسم الله عليه.

قال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴿٢﴾﴾ أثنى سبحانه على نفسه وعلّم عباده كيف يكون حمده... فالحمد لله هو أن يعرف الإنسان ـ الله ـ ويعرف صفاته التي بها استحق الحمد.

إن حمد الله لا يتم بدون معرفته.. فهو الخالق البارىء المصور المنعم المدبّر المحيي المميت الذي بيده الأمور وإليه المصير...

إن الله سبحانه استحق الحمد ـ وهو الثناء الجميل ـ لصفاته الذاتية التي لا يشاركه فيها أحد فهو عين الكمال في الذات وفي الصفات...

والوصف برب العالمين كي يدرك هذا الإنسان، إن الله هو رب كل شيء ـ وكل العوالم ـ سواء كانت إنساً أم جناً ـ وإذا صح إطلاق العالم وتعميمه ـ فإنه يشمل عالم الجماد وعالم الأحياء بكل أنواعها واختلاف أشكالها وخصائصها.. بل كما ذهب بعضهم أن ﴿الْعَالَمِينَ﴾ هم كل ما دون الله فيشمل ويعمّ وهذا معنى صحيح وسليم فهو رب كل شيء الخالق لهذه الأشياء والقائم عليها والمدبر لشؤونها، لم يخلقها فحسب ثم يهملها بل خلقها فأعطاها الحياة وما تستمر به في هذه الحياة على نظام صالح يحقق لها مصالحها وما فيه خيرها وسعادتها في الدنيا والآخرة.

---

(١) الأنعام/ ١٢١.

(٢) وسائل الشيعة، كتاب الصيد والذبائح، باب ١٥.

والخلاصة: إن الله سبحانه يستحق الحمد لربوبيته، لكل شيء في عالم الوجود... يبقى أن نشير إلى أن الحمد والمدح والشكر معانٍ متقاربة.

وقد قال الراغب في مفرداته ما نصه: الحمد لله تعالى: الثناء عليه بالفضيلة وهو أخص من المدح وأعم من الشكر...

ولا نرى كثير فائدة في بيان الفروق بين هذه العناوين الثلاثة، فإن العرف العام يدرك بفطرته هذه الفروق ويستعمل كل عنوان في مكانه اللائق به...

وقد وردت الأحاديث الكثيرة في حمد الله والثواب عليه.

- ففي الحديث عن محمد بن مروان قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام.

أي الأعمال أحب إلى الله عز وجل؟

فقال عليه السلام: أن تحمده.

- وفي الحديث عن أبي عبد الله عليه السلام قال: كان رسول الله صلى الله عليه وآله يحمد الله في كل يوم وليلة ثلاثماية مرة وستين مرة عدد عروق الجسد يقول: الحمد لله رب العالمين كثيراً على كل حال..

- وفي عهد رسول الله صلى الله عليه وآله قال: من تظاهرت عليه النعم فليقل الحمد لله رب العالمين ومن ألحّ عليه الفقر فليكثر من قول: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم فإنه كنز من كنوز الجنة وفيه شفاء من اثنين وسبعين داء أدناها الهمّ...

﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ صفتان لله من الرحمة التي هي في المخلوق الشفقة والرقة المستتبعة للإحسان والإفضال أما إذا وصف بها الباري فليس يراد بها إلاّ الإحسان المجرّد.

وهل هما مختلفتان في مدلوليهما كما قيل حيث حملوا الرحمن على المبالغة والشمول وما يعم المؤمن والكافر وكل كائن حي وحملوا ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ على خصوص الآخرة أو على المؤمنين فقط؟ أم أنها بمعنى واحد جيء بهاتين الصيغتين للتأكيد على رحمته وسعتها وعمومها وشموليتها المطلقة للأشياء؟ هناك

خلاف واسع وتحقيقات مطوّلة من أراد الإطلاع عليها فليرجع إليها في مظانها من كتب التفسير . . .

قوله تعالى: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾ هذا حق حصري لله سبحانه في يوم القيامة . . . فهو المتصرف المطلق في شؤون الناس يتولى حسابهم ويجزيهم بما يستحقون فليس لأحد في ذلك اليوم سلطة معه أو شريك . . .

ففي الدنيا يوجد الملوك الذين اقتسموا العباد والبلاد ومارسوا شتى أنواع الظلم والعدل وكانوا يتصورون أن تصريف الأمور بأيديهم فيرفعون بعض الناس ويسقطون آخرين ينعشون بعض الناس ويقضون على آخرين، إذا كان من شيء في الدنيا ولبعض ملوكها فإن الملك في الآخرة لله وحده فهو المالك والملك لا يشركه في ملكه أحد يقضي بين عباده بالحق والعدل . . .

إن الإيمان بيوم القيامة ـ يوم الدين ـ والجزاء هو أحد الأصول العامة للأديان كلها فليس هناك دين سماوي يدّعي الصلة بالسماء إلاّ وهو يتبنى الإيمان بيوم القيامة حيث يُرجع الله الخلق للحساب ونيل الجزاء .

وهذا الإيمان وما يترتب عليه من حساب وبالتالي الجزاء العادل بحيث يأخذ الظالم جزاء ظلمه والعادل جزاء عدله . . يأخذ المطيع ثواب إطاعته والمتمرد العاصي جزاء تمرُّده ومعصيته . . . إن هذا الإيمان يحمل الإنسان ـ وهو في الدنيا ـ لكي يضع نفسه في خط الطاعة لله والالتزام بأوامره فلا يكفر ولا يعتدي ولا يظلم ولا يؤذي ولا يتجاوز الحدود المشروعة له . .

إن الإيمان باليوم الآخر ـ يوم الدين ـ وما يترتب عليه يحمل هذا الإنسان على أن يبقى في حالة طوارىء دائمة على كلامه وأفعاله وسلوكه وكل حركة من حركاته ويبقى ينظر وينتظر أن وراء قوله أو فعله حساب دقيق سيجزيه الله عليه إن كان خيراً فالثواب جنة نعيم وإن كان شراً فنار الجحيم . . .

إن على الإنسان المؤمن بيوم الدين أن يحسب حساب ذلك اليوم ويعدُّ له العدة وأفضل عدّته . . الإيمان بالله والعمل الصالح . .

فائدة

هناك قراءتان لكلمة ـ مالك ـ فقد قرىء بهذه الصيغة مالك، وقرىء بصيغة مَلِك وكلتا الصيغتين جائزتان ماضيتان في الصلاة فقد أباح الفقهاء بعد ثبوت القراءتين أن المصلي بالخيار بينهما.

وأما أيهما أولى وأبلغ فقد اختُلف في ذلك فذهب بعضهم إلى أن ملك أعم وأبلغ وذهب آخرون إلى العكس.

ونحن لا نرى كثير فائدة في هذا الاختلاف بعد أن صحّت القراءتان معاً وبعد وضوح معنى ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ الذي يعني أن الأمر لله وحده في يوم الجزاء فله وحده السلطة الكاملة الذي لا يشركه أحد فيها وهو وحده يفصل بين العباد.. فهو الملك القاهر والمالك لأمور العباد..

قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ هاتان حقيقتان يجب أن يؤمن بهما كل مسلم كما يجب أن يعمل بمقتضاهما.. العبادة لله وحده ولا تجوز لغيره مهما كان ذلك عظيماً وجليلاً وصاحب قوة وسطوة...

إن العبادة لله وحده دون غيره لأنه المستحق لها.. فهو الكمال المطلق الذي بيده الأمور كلها؛ الحياة والموت والرزق وغير ذلك..

العبادة: تعني التذلل والخضوع والطاعة المطلقة وهذا لا يستحقه إلا الله لغناه الذاتي وملكيته لهذا الخلق، أما ما عداه فهي ممكنات مفتقرة في أصل وجودها وفي استمرارية ذلك الوجود إليه تعالى وعليه بمنطق العقل والنقل لا يتفاوت فقير عن فقير فالكل في حكم الممكنات المفتقرة والفقير لا يمتاز عن غيره من الفقراء حتى يستحق العبادة بعضهم دون بعض...

ثم إن الله وضع لنا برنامجاً عبادياً تتجسد أظهر مصاديقه في الصوم والصلاة والحج والزكاة وينبسط هذا البرنامج العبادي ويعمّم لكل عمل نافع ومفيد إذا اقترن بنية القربة إلى الله والتوجه إليه، وبهذا يتحول عمل الفلاح في حقله إلى

عبادة والكاد على عياله ليستر نفسه عن العوز ويكف يده عن الحاجة إلى غيره إلى عبادة.

ويتحوّل عمل العامل في المصنع أو الدكان أو غير ذلك من المصالح إلى أعمال عبادية وهكذا دواليك. . .

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ قضية حصرية بالله مفادها نعبدك يا الله ولا نعبد سواك. . .

والعبادة ـ أي عبادة ـ ما شُرّعت إلا لمصلحة فيها تعود لهذا الإنسان وبعض المصالح واضحة، وقد يكون مصرّح بها، وبعضها قد لا يكون مصرّح بها ولا يدرك الإنسان عمقها، ومن هنا يجب أن يؤمن كل إنسان بحكمة الله التي اقتضت تشريع أي عبادة أمر سبحانه بها. . .

ففي الصلاة. . قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾(١) من هنا يجب على كل مَنْ يصلي أن يحقق هذه الغاية من وراء الصلاة فيترك الزنا والتعري ويترك كل حرام من كذب وسرقة ونميمة وغيبة وهكذا، وإلا فيكون مصداق قوله ﷺ ـ من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر فلا صلاة له. . يعني صلاته وإن أداها فهي في حكم العدم واللاوجود. . .

وهكذا الصوم فرض من أجل أن يشعر الغني مس الجوع فيرق على الفقير وأيضاً فيه تهذيب للنفس وطاعة لله وفيه من الفوائد والمنافع ما ذكر في محله. .

وأيضاً الحج مؤتمر إسلامي عام في كل سنة حيث يجتمع المسلمون عند بيت الله الحرام فيتداولون أمورهم ويتدارسون ما ينفعهم ويقوّي شوكتهم ويجعلهم أعزّة في أوطانهم وخارج أوطانهم وهكذا دواليك. . .

وأما قوله: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ يعني نستعين بك وحدك ولا نستعين بغيرك ـ والاستعانة طلب العون للإنسان الذي لا يقدر أن يقوم بالعمل وحده فيطلب من غيره أن يساعده ويعينه. . .

---

(١) العنكبوت/ ٤٥.

والاستعانة يجب أن تكون بالله ومن الله، فإنه وحده الذي تنتهي إليه الأمور.. إن بيد الله الأسباب كلها فهو يطلقها وهو يمنعها..

نعم إن الله سبحانه وضع لكل شيء سبباً فمن أراد الرزق فعليه أن يطلبه من مظانه التي وضعها الله فيها...

ومن أراد أن يشعل النار فعليه أن يطلبها من موادها ومما هي فيه...

ومن أراد الانتصار على عدوٍّ غاشم فعليه أن يهيىء أسباب النصر من إعداد العدة والعدد واللوازم الأخرى.

إن الإنسان المؤمن لا ينقطع عن الأسباب التي وضعها الله، فهو سبحانه الذي وضعها وأمر بطلبها ومن سلك غير ذلك فقد عطّل الأسباب وألغى الحكمة في وضعها وهذا غباء وعدم فهم...

والاستعانة بالأسباب إذا نظر الإنسان إليها على أن الله هو الذي وضعها وهو الذي أمر بها وهو القادر على تعطيلها متى شاء وأنها موصولة به وهي منه، فإذا استعان بها الإنسان وطلبها والحال كذلك فليس ذلك مخالفاً للآية الكريمة أو عاملاً بخلاف ما أمرت به بل يكون مستعيناً بالله عاملاً بإرادته ومتبعاً للسنن التي شرّعها ووضعها وأمر عباده بها...

نعم إذا نظر الإنسان لهذه الأسباب على أنها هي العلة التامة لمسبباتها وقطعها أيضاً عن الله فهذا شرك.. بل كفر لا يذهب إليه مسلم يعرف التوحيد ويؤمن بالله واجب الوجود الذي منه صدر كل موجود...

فوائـــد

١ - إن فصل الضمير وتقديمه في قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ۝٥﴾ بدل نعبدك ونستعينك - إنما كان للحصر - فإن هذا النمط من التعبير البلاغي والأسلوب البياني لبيان أنه سبحانه وحده يستحق العبادة دون سواه

وبه يستعان لا بغيره من الوسائط والآلات.. مضافاً إلى أن تقديم ﴿إِيَّاكَ﴾ للاهتمام به، فإن شأن العرب أن يقدموا الأهم.

٢ ـ قيل: إن تكرار ﴿إِيَّاكَ﴾ مرتين في ﴿نَعْبُدُ﴾ و﴿نَسْتَعِينُ﴾ للتأكيد والتنصيص على كل منهما، وقيل: تكرارها لاختلاف متعلقهما...

٣ ـ أطلق الاستعانة ولم يعينها بشيء ـ حيث لم يذكر متعلقها ـ لأن هذا الإنسان بحاجة دائمة إلى عون الله في كل شيء.

٤ ـ إن العدول من إياك أعبد وإياك أستعين إلى صيغة ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ قطعاً ليس لتعظيم المتكلم الفقير نفسه.. بل كما قيل: إنه خاطب الله بخطاب الجمع ليدسّ نفسه في جملة العابدين بصدق والمستعينين بصدق، فلعل الله يتقبله معهم إذا تقبّلهم إذ لا يستحق أن يرفع صوته منفرداً بالعبادة لله والاستعانة به...

قال تعالى: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾.

بعد أن وقف المؤمن أمام الله وأثنى عليه بجميل الصفات وطلب منه الإعانة وجعلها منه حصراً.. بعد هذا توجه إليه في المطلب الأهم والمقصد الأسنى.. وهو أن يرشده ويدله ويهديه إلى الطريق المستقيم الذي لا التواء فيه ولا اعوجاج يعتريه...

والهداية كما يقول الراغب: دلالة بلطف وهداية الله تعالى للإنسان على أربعة أوجه.

الأول: الهداية التي عمّ بجنسها كل مكلف من العقل والفطنة والمعارف الضرورية التي أعطى منها كل شيء بقدر احتماله كما قال: ﴿رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾[1].

---

(١) طه/ ٥٠.

الثاني: الهداية التي جعل للناس بدعائه إياهم على ألسنة الأنبياء وإنزال القرآن ونحو ذلك وهو المقصود بقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾(١).

الثالث: التوفيق الذي يختص به من اهتدى وهو المعني بقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى﴾(٢).

وقوله: ﴿وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾(٣).

وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَانِهِمْ﴾(٤).

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾(٥).

وقوله: ﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى﴾(٦).

وقوله: ﴿فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾(٧) ﴿وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾(٨).

الرابع: الهداية في الآخرة إلى الجنة المعني بقوله: سيهديهم ويصلح بالهم ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾ إلى قوله ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا﴾(٩). وهذه الهدايات الأربع مترتبة إن لم تحصل المتقدمة لا تحصل التي بعدها... انتهى كلام الراغب...

والمقصود بالهداية هنا أحد أمرين:

الأول: الثبات على الهداية.. حيث إن الإنسان تحفُّ به المخاطر من كل جانب، فهناك الشيطان الذي يتولى إغواؤه وإضلاله والانحراف به يأتيه من بين يديه ومن خلفه وعن أيمانه وعن شمائله فهو يضرب حوله طوقاً لصرفه عن الإيمان أو إزالة هذا الإيمان والفتك به وهناك شياطين الإنس الذين يغرونه بالانحراف وهناك الأهواء والشهوات... إن الحرب مفتوحة على هذا الإنسان من

---

(١) السجدة/ ٢٤.
(٢) محمد/ ١٧.
(٣) التغابن/ ١١.
(٤) يونس/ ٩.
(٥) العنكبوت/ ٦٩.
(٦) مريم/ ٧٦.
(٧) البقرة/ ٢١٣.
(٨) النور/ ٤٦.
(٩) الأعراف/ ٤٣.

جميع الجبهات، فعليه أمام هذا الواقع أن يواجهها بكل أسلحته وعدته وإن أهم وأمضى سلاح هو أن يطلب المدد والإعانة من الله. . . أن يتوجه إلى الله تعالى يسترشده ويطلب منه أن يعينه ليبقى في خط الإيمان والطاعة فلا يضل أو ينحرف أو تزلّ أقدامه في تلك المواقع الصعبة. . .

إن هذا الإنسان ممكن في تكوينه. . والإمكان يحمل في طبيعته الافتقار والعجز. . ولذا مهما قوي جناحه معرّض في كل لحظة للسقوط والهويّ ومهما تحصّن وتترّس يبقى في معرض الخطأ والانحراف، ومن هذا الضعف ينطلق الدعاء إلى الله يستصرخه أن لا يتخلى عنه ولو لحظة واحدة وإلا تعرض لأخطر الفجائع والمصائب. . .

إن هذا الإنسان كالسراج المشتعل إذا لم تمده بالزيت باستمرار وتحوطه بما يمنع انطفاؤه فقد تهبُّ نسمة قوية تطفئه وتقضي عليه وهكذا الإيمان في القلوب يحتاج إلى مدد إلهي وعون منه ورعاية مستمرة حتى يكمل هذا الإنسان شوطه في خط الإيمان والطاعة والالتزام. . .

وهذا المعنى قد ورد عن الأئمة عليهم السلام ففي تفسير الإمام العسكري في ذيل قوله تعالى: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ أدم لنا توفيقك الذي به أطعناك فيما مضى من أيامنا حتى نطيعك كذلك في مستقبل أعمارنا. . . إلخ. . .

وأيضاً في تفسير الإمام العسكري عن جعفر بن محمد الصادق عليه السلام في قوله عز وجل: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾.

قال: أرشدنا الطريق المستقيم، ارشدنا للزوم الطريق المؤدي إلى محبتك والمبلغ دينك والمانع من أن نتبع هوانا فنعطب أو نأخذ بآرائنا فنهلك. .

الثاني: قد يراد بقوله ﴿ٱهْدِنَا﴾ طلب زيادة الإيمان فإن الإيمان درجات وهذا مشاهد بالعيان ومدرك بالوجدان فإن المؤمنين طبقات والإيمان درجات إلى أن ينتهي إلى الأنبياء حيث يبلغ مداه ومنتهاه فإن إيمان عمار يختلف عن إيمان سلمان أو أبي ذر وإيمان هذه الثلة يختلف عن إيمان غيرهم من الصحابة

والتابعين وهكذا، وهذا ما ترشد إليه الآيات كقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى﴾ وقوله تعالى: ﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى﴾ وهكذا...

وعليه فلا مانع أن يكون دعاء المؤمن ﴿اهْدِنَا﴾ طلب للثبات على الهداية والزيادة منها حتى يبلغ مراتبها العالية...

ينبغي أن نعرف ما هو الطريق المستقيم الذي يطلب المؤمن الهداية إليه؟...

وللمفسرين في تفسيره آراء وأقوال منها: أنه الإسلام، ومنها أنه القرآن، ومنها: أنه الإمام، ومنها أنه طريق الأنبياء والمرسلين.

وأقرب الآراء وأكثرها صواباً انه هو طريق الأنبياء ويدل عليه ما نطقت به الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾﴾[1].

وهذا يكشف أن طريق النبي واتباعه - هو الطريق المستقيم الموصول إلى جنات النعيم - وهذا المعنى يفهمه الخاصة والعامة، فلو قرأت الآية على أي إنسان وقلت له ما هو الطريق المستقيم؟ لأجابك: هو طريق الإيمان الذي لا تلاعب فيه، وهو متابعة النبي - كل نبي في زمانه - وهجر ما عداه من الطرق والآراء والاجتهادات التي لم ترد عنه أو منه...

بقي أن نذكر أن الطريق المستقيم - أو الخط المستقيم - بين نقطتين هو أقرب الطرق وأسلمها، فالمؤمن يريد أن يصل إلى الله - في طاعته - من أقرب الطرق لحبه له ورغبته فيه ولأن الطريق المستقيم عادة يكون أسلم الطرق حيث لا يضل سالكه كما يضل في الطرق الأخرى الملتوية التي تختفي في الالتواءات اللصوص وقطّاع الطرق...

﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴿٧﴾﴾.

---

(١) النساء/ ٦٩.

هذا توضيح وتبين للصراط المستقيم وأنه طريق فئة من الناس حيث أنعم الله عليهم بأنواع النعم العظام أهمها.. الإيمان والهدى والطاعة لله وقد كشفت آية النساء هؤلاء المنعم عليهم حيث قال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾﴾[1].

ولا شك أن محمداً صلوات الله عليه والأئمة من بعده يشكلون طليعة من أنعم الله عليهم ويكون خطهم وطريقهم هو الصراط المستقيم الموصل إلى رضوان الله...

ثم من أجل أن يدفع المتطفلين الذين يدّعون أنهم على الطريق المستقيم نص سبحانه نصاً صريحاً وأفصح معلناً أنهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين...

والمغضوب عليهم قوم عرفوا الحق ووصلوا إليه وأدركوه بدون شبهة ولكنهم عناداً وحقداً وحسداً وبغياً رفضوه ولم يؤمنوا به وراحوا يكيدون لمن جاء به، وهذا هو ما وقع لليهود مع النبي ورسالته ودعوته، فقد كانوا يترقبون بعثته وينتظرون قدومه، فلما جاءهم كفروا به وأنكروا عليه بعثته كما قال تعالى في تصوير حالهم حيث قال: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾[2].

إن اليهود أظهر مصاديق الآية وأجلى أفرادها وقد كشف سبحانه أنهم قوم غضب الله عليهم ولعنهم وخاطبهم بقوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٥٩﴾ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَۚ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٦٠﴾﴾[3].

---

(١) النساء/٦٩.

(٢) البقرة/٨٩.

(٣) المائدة/ ٥٩ ـ ٦٠.

وفي المراد بالمغضوب عليهم أقوال أخرى غير ضرورية ولا مفيدة فلا داعي للإطالة بذكرها...

وأما ﴿ٱلضَّآلِّينَ﴾ فهم فئة أخرى لم تدرك الحقيقة ولم تصل إليها بل وقعت في شبهات انطلت عليها فضلّت طريق الحق عن غير علم أو قصد.. إنهم لم يعرفوا الحق أو لم يعرفوه كما هو..

ومن أجلى مصاديق الذين ضلوا الطريق المستقيم وانحرفوا عنه هم النصارى.

وبهذا جاء قوله تعالى مخاطباً لهم: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ - وهم النصارى - ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُواْ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرًا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٧٧﴾﴾.

وممن لم يعرفوا الحق على وجهه الصحيح قوم من المخالفين البسطاء الذين لا يملكون القدرة على البحث والتنقيب والوصول إلى إدراك الحق والصواب...

سورة البقرة

مدنية

وعدد آياتها مئتان وست وثمانون آية

سورة البقرة

بين يدي السورة

١ ـ تبتدىء السورة المباركة بالأحرف المقطعة ـ ألم ـ لتخرج منها إلى الثناء على القرآن وأنه هدىً للمتقين، ثم تدخل إلى تصنيف الناس بحسب عقائدهم فتصنفهم إلى ثلاثة أصناف.. أهل الإيمان وأهل الكفر وأهل النفاق مع ذكر أوصاف كل فريق بحيث تعرف من خلال هذه الصفات شخصية كل فريق وسلوكه وطريقة عمله...

٢ ـ في السورة دعوة إلى عبادة الله والإخلاص له مع تذكير الناس ببعض نعمه ابتداءً بنعمة أصل الوجود وانتهاءً بكل موجود...

٣ ـ في السورة يتحدى سبحانه الناس أن يأتوا بسورة من مثل هذا القرآن، فإذا عجزوا ولم يقدروا على معارضته ولو بسورة فليعلموا أنه من عند الله...

٤ ـ تستعرض السورة الحوار الذي جرى بين الله والملائكة عندما أخبرهم أنه سيخلق خليفة في الأرض ـ آدم ـ وكيف استقبل سبحانه استفهامهم المشوب بالحذر ـ مما يحدثه هذا المخلوق من إفساد في الأرض وسفك للدماء ـ كيف استقبل حذرهم بامتحان أجراه لهذا الخليفة ولهم وكيف تم نجاح هذا المخلوق عليهم وتفوّقه مع استعراض قصة آدم وحواء في الجنة وخروجهما منها بمكر الشيطان مع ذكر توبتهما وقبول الله لها منهما...

٥ ـ تستعرض السورة موقف بني إسرائيل من الدين الجديد ـ الإسلام ـ ومن نبيه ﷺ كما تستعرض الآيات.. نعم الله عليهم وتذكّرهم بها، كما تستفيض السورة في قصة موسى معهم مع تعداد مخالفاتهم الكثيرة له وتمرُّدهم عليه حتى كأنهم طبعوا على العناد وعدم الطاعة حتى عبدوا العجل وموسى بين أظهرهم فاستدعى ذلك تهديدهم بأشد ما يكون بحيث ينزل عليهم رجزاً من السماء بل عاقب فئة منهم بالمسخ فجعلها قردة وخنازير...

٦ ـ تستعرض السورة قصة جرت لبني إسرائيل عندما وقعت فيهم حادثة قتل، ولم يعرف القاتل وكادت أن تقع الفتنة والاقتتال بينهم فأمرهم موسى أن الله يأمرهم أن يذبحوا بقرة ويضربوا الميت ببعضها فتنكشف الحقيقة حيث ينطقه الله ويخبرهم بمن قتله ولكنهم تعنتاً منهم أخذوا في تفاصيل وخصوصيات وأوصاف تلك البقرة حتى شدد الله عليهم لتشددهم في السؤال...

٧ ـ تكشف السورة أن قسماً من بني إسرائيل لا علم لهم بالكتاب ـ التوراة ـ إنما كانوا يعتمدون على الأحبار الذي كانوا يحرفون هذا الكتاب ويضلونهم عن الطريق المستقيم...

٨ ـ تستعرض السورة موقف اليهود من النصارى وموقف النصارى من اليهود.. حيث يقول كل منهما أن الآخر ليس على شيء، وكيف أنهم مع عدائهم لبعضهم البعض تتوحّد كلمتهم في مواجهة النبي ﷺ ودعوته.

٩ ـ تستعرض السورة قصة إبراهيم الخليل ـ بطل التوحيد وما امتحنه الله به مع ذكر الكعبة الشريفة التي أعاد بناءها، ودعاؤه لأهلها بالأمن والرزق، وأن يبعث فيهم الله رسولاً منهم ـ هو النبي محمد ﷺ ـ يعلّمهم الكتاب والحكمة ويزكّيهم..

١٠ ـ تستعرض السورة قصة تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة الشريفة وكيف استغل اليهود هذه الحادثة التشريعية في التشويش على الإسلام والتشويه له مع الرّد على هذه الأقوال الرخيصة...

١١ ـ تستعرض السورة كثيراً من التشريعات التي تحفظ ذلك المجتمع الجديد وتدخل إلى بعض المفردات المهمة حيث ننص على. . . .

أ ـ تشريع قانون العقوبات: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى﴾.

ب ـ تشريع الوصية: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ﴾.

ج ـ تشريع الصيام: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾. . .

د ـ تشريع الجهاد في سبيل الله: ﴿وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ﴾. . . ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾. . .

هـ ـ تشريع الإنفاق: ﴿وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

و ـ تشريع الحج: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ﴾ مع ذكر بعض خصوصيات هذه الفريضة وتفاصيل أجزائها. . .

ز ـ تشريع الطلاق وبيان عدة المطلّقة وتفاصيل كثيرة في هذا الباب من النفقة وما يتعقّب ذلك من حكم الرضاع وأحكام الأولاد.

ح ـ تشريعات مختلفة. . . حرمة أكل الميتة، وحرمة الدم ولحم الخنزير وما أهلّ به لغير الله وهكذا. . .

١٢ ـ تستعرض السورة ما وقع لبني إسرائيل. . حيث أمرهم نبيّهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا﴾ وكانوا قد طلبوا منه أن يدعو الله كي يرسل لهم ملكاً يقاتلون معه ـ وكيف تمردوا على أمره، والقصة ذات مغزىً عظيم نستعرضها أثناء التفسير إن شاء الله. .

١٣ ـ تستعرض السورة حوار إبراهيم مع ملك زمانه. . وكيف أفحمه وأسكته ـ في حوار مثير وجميل. . .

١٤ ـ تستعرض السورة حواراً عن البعث، وكيف أن الله أحيا إنساناً بعد أن مات مائة عام مع دليل ذلك مشاهدة وعياناً.

١٥ ـ في السورة حضّ على الإنفاق والصدقات مع بيان كيفية الإنفاق من حيث كونه ـ من طيبات الكسب ـ وأن يكون خالصاً لوجه الله ـ وأن لا يتبعه منٌّ ولا أذى ـ وأيضاً مع بيان المستحق من الفقراء وخصوصاً أولئك الذين يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفّف مع بيان أجر وثواب الإنفاق. . .

١٦ ـ تستعرض السورة القضية الاقتصادية فتبيح البيع وتحرّم الربا وتردّ بحملة شعواء على مَنْ ساوى بين البيع والربا بحيث يصل الأمر إلى أن يعلن الله ورسوله الحرب على من يبيح الربا ويتعامل به في مشهد تهتز له القلوب وترتعد الفرائص فزعاً وخوفاً.

١٧ ـ في نهاية السورة هناك آية الدين وهي تتناول الأمر بكتابة الدين ـ القرض ـ على يدي كاتب بالعدل مع شهادة الشهود في تفاصيل مما تقتضيه هذه المعاملة. .

١٨ ـ لا يخفى أن سورة البقرة هي إحدى السبع الطوال بل هي أيضاً أطول سور القرآن.

سورة البقرة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قال تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١﴾.

❁ ❁ ❁

تبتدىء هذه السورة المباركة بهذه الأحرف المقطّعة ﴿أَلَمْ﴾ وتقرأ ألف، لام، ميم.

وأما معناها.. فقد قال بعضهم: إن هذه الأحرف المقطعة من العلم المحجوب الذي استأثرها الله بعلمه لم يطلع على معناها أحداً من خلقه إلاّ رسوله الذي خاطبه بها وألقاها إليه فهي رمز خاص بينهما أشبه بالشيفرة...

ومن ذهب إلى هذا القول فقد أراح نفسه من عناء البحث عن معناها وما يراد بها..

وهناك من ذهب إلى أن هذه الأحرف لها معان وتهدف إلى غاية، ومن قال بذلك فقد تعددت أقوالهم واختلفوا فيما بينهم حتى بلغت أقوالهم واحداً وعشرين قولاً بعضها اجتهاد محض بدون مستند وبعضها الآخر استحسان يتمشّى مع اجتهاد مستحسنه وأجود الأقوال وأقربها للفهم قولان نذهب إليهما ونقول بهما وهما:

الأول: إنها إشارة إلى حروف الهجاء التي تبنى عليها لغة العرب، فقد

تحداهم أن يأتوا بمثل هذه الآيات والسور مع أنها مؤلفة من حروفهم التي يتعاطونها ويتكلمون بها، فإذا عجزوا عن ذلك - مع وجود المواد الأولية بين أيديهم - كان ذلك إعجازاً قرآنياً فوق طاقة البشر.

ويؤيد هذا الرأي ويدعمه.. أن أغلب السورالقرآنية التي افتتحت بها هذه الحروف كان فيها بيان ذكر القرآن والانتصار له والحديث عنه وبيان إعجازه كما في مطلع سورة البقرة حيث يقول تعالى: ﴿الٓمٓ ①﴾ ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدًى لِّلۡمُتَّقِينَ ②﴾.

وفي سورة الأعراف: ﴿الٓمٓصٓ ①﴾ ﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ﴾.

وفي سورة غافر: ﴿حمٓ ①﴾ ﴿تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ②﴾. وهكذا غيرها من السور التي افتتحت بها هذه الحروف المقطّعة.

الثاني: كانت هذه الأحرف المقطعة من أجل أن تلفت نظر العرب لكي يستمعوا إلى القرآن فيستفيدوا منه من حيث أنهم كانوا قد تعاقدوا على عدم الاستماع إليه فكانت هذه الأحرف منبهة لهم وملفتة لنظرهم فشدتهم إليها لاستغرابهم لها فاستمعوا للقرآن قهراً عنهم، ولربما قام المرء بما يلفت النظر من أجل أن يستمع الآخرون لكلامه لكي يستفيدوا منه...

فائدتان

١ - هناك تسع وعشرون سورة من سور القرآن تبتدىء بهذه الأحرف المقطعة وهي:

١ - البقرة: ﴿الٓمٓ ①﴾

٢ - آل عمران: ﴿الٓمٓ ①﴾

٣ - الأعراف: ﴿الٓمٓصٓ ①﴾

٤ ـ يونس: ﴿الٓر﴾

٥ ـ هود: ﴿الٓر﴾

٦ ـ يوسف: ﴿الٓر﴾

٧ ـ الرعد: ﴿الٓمٓر﴾

٨ ـ إبراهيم: ﴿الٓر﴾

٩ ـ الحجر: ﴿الٓر﴾

١٠ ـ مريم: ﴿كٓهيعٓصٓ ۝١﴾

١١ ـ طه: ﴿طه ۝١﴾

١٢ ـ الشعراء: ﴿طسٓمٓ ۝١﴾

١٣ ـ النمل: ﴿طسٓ﴾

١٤ ـ القصص: ﴿طسٓمٓ ۝١﴾

١٥ ـ العنكبوت: ﴿الٓمٓ ۝١﴾

١٦ ـ الروم: ﴿الٓمٓ ۝١﴾

١٧ ـ لقمان: ﴿الٓمٓ ۝١﴾

١٨ ـ السجدة: ﴿الٓمٓ ۝١﴾

١٩ ـ يس: ﴿يسٓ ۝١﴾

٢٠ ـ ص: ﴿صٓ﴾

٢١ ـ غافر: ﴿حمٓ ۝١﴾

٢٢ ـ فصلت: ﴿حمٓ ۝١﴾

٢٣ ـ الشورى: ﴿حمٓ ۝١﴾ عسق

٢٤ ـ الزخرف: ﴿حمٓ ۝١﴾

٢٥ ـ الدخان: ﴿حمٓ ۝١﴾

٢٦ ـ الجاثية: ﴿حمٓ ۝١﴾

٢٧ ـ الأحقاف: ﴿حمٓ ۝١﴾

٢٨ ـ ق: ﴿قٓ﴾

٢٩ ـ ن: ﴿نٓ﴾

٢ ـ من الملاحظ أن هذه الأحرف المقطعة:

أ ـ منها ما هو على حرف واحد، ص، ق، ن.

ب ـ ومنها ما هو على حرفين مثل، حم.

ج ـ ومنها ما هو على ثلاثة أحرف مثل، ألم.

د ـ ومنها ما هو على أربعة أحرف مثل: المر، المص.

هـ ـ ومنها ما هو على خمسة أحرف مثل: كهيعص ومن الملاحظ أن كلام العرب لا يتجاوز الخمسة أحرف.

﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ
وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ
أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ
ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٥﴾.

❁ ❁ ❁

اللغة

﴿ٱلْكِتَٰبُ﴾: مصدر كتب وأصله الجمع ومنه قيل: كتيبة لاجتماع أفرادها فضم الحروف بعضها إلى بعض بالخط يطلق عليه كتابة وقد يقال ذلك للمضموم بعضها لبعضها باللفظ.. ويستعار كل واحد للآخر ولهذا سمي كلام الله وإن لم يكتب كتاباً كقوله ﴿الم ذلك الكتاب﴾.

﴿رَيْبَ﴾: مصدر رابه: وهو الشك وحالة القلق النفسي وعدم الاطمئنان لأمر ما.

﴿ٱلْهُدَىٰ﴾: الدلالة بلطف وخصّ ما كان دلالة بهديت وما كان إعطاءً بأهديت ويتعدى بحرف فتقول: هديته إلى الطريق وبدون حرف هديته الطريق.

﴿لِّلْمُتَّقِينَ﴾: التقوى من الاتقاء: وهو ما تتحرز به عن المكروه.

﴿يُؤْمِنُونَ﴾: الإيمان في اللغة: التصديق.

﴿ٱلْغَيْبِ﴾: قال الراغب في مفرداته: إنه ما لا يقع تحت الحواس.

﴿يُقِيمُونَ﴾: من قام الشيء: إذا دام وثبت.

﴿ٱلصَّلَوٰةَ﴾: في الأصل الدعاء ولكنها في لسان الشرع الأفعال المخصوصة والمعروفة عند المسلمين والمراد بأداء الصلاة الإتيان بها. بجميع أجزائها وشروطها وما هو مطلوب فيها.

﴿ٱلرِّزْقِ﴾: يقال للعطاء الجاري دنيوياً كان أم أخروياً وللنصيب ولما يصل إلى الجوف ويتغذى به.

﴿يُنفِقُونَ﴾: يخرجون، والإنفاق: إخراج المال من اليد، ونفقت الدابة: إذا خرجت روحها، ومنه النفاق: وهو الدخول في الشرع من باب والخروج عنه من باب.

﴿أُنزِلَ﴾: من نزل: وهو في الأصل انحطاط من علو، يقال: نزل عن دابته ونزل في مكان كذا: حطّ رحله فيه وأنزله غيره، وإنزال الله نعمه ونقمه على الخلق: إعطاؤهم إياهم.. وذلك إما بإنزال الشيء نفسه كإنزال القرآن أو بإنزال أسبابه كالحديد واللباس...

﴿ٱلْآخِرَةُ﴾: هي النشأة الثانية ـ بعد الموت ـ وسميت الدار الآخرة لتأخرها عن الدار الدنيا وسميت الدنيا لدنوها وقربها منّا.

﴿يُوقِنُونَ﴾: من اليقين: وهو العلم ويَقْنت وأيقنت واستيقنت وتيقّنت كلها بمعنى واحد.

﴿يُفْلِحُونَ﴾: الفلح في الأصل: الشق، وقد قيل: الحديد بالحديد يُفلَحُ أي يشق، والفلاّح سمي بذلك لأنه يشق الأرض... والفلاح: الظفر وإدراك البغية.

التفسير

تتناول السورة المباركة في مطلعها أوصاف المؤمنين بإيجاز وكذلك تتناول أوصاف الكافرين بإيجاز أما أوصاف المنافقين فإنها تفيض فيها حيث تكشف تلك الأوصاف وتحكي أقوالهم وأفعالهم وتفضح خفاياهم وما تخفي الصدور...

﴿ذَٰلِكَ﴾ بالإشارة إلى[1] البعيد ابتدأ كلامه سبحانه ولماذا كانت الإشارة إلى البعيد وهذا القرآن قريب وقريب جداً بل بين أيدينا وأمامنا؟!.. إنها علو المنزلة وارتفاع الشأن والمقام... إنه السمو بما فيه وما يحويه أوجبت أن يشار إليه «بذلك» الموضوعة للبعيد.

﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ إنه تقرير لحقيقة فيه، إنه من عند الله يحمل عناصر صدقه... إنه من الوضوح والجلاء بحيث لو خلي العاقل ونفسه لا يشك أو يتردد في القطع، إنه من عند الله، وقد ثبت ذلك عندما توجه العرب مع ما يحملون من فصاحة وبلاغة إلى معارضته فعجزوا عن ذلك حتى لأقصر سورة فيه وذلك دليل أحقيته وعدم وقوع الريب فيه..

﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ إن هذا القرآن يرشد هؤلاء الأتقياء ويدلّهم على دروب الخير في دنياهم وآخرتهم... إنه يفتح أمامهم الأبواب الموصدة ويأخذ بأيديهم لما فيه صلاحهم... إن هذه الفئة من الناس استطاعت أن تستفيد من كتاب الله وتنفتح عليه فحق لله أن يخصّها بالذكر من بين العالمين... إنها الفئة التي امتازت عن غيرها بالأخذ بأحكام هذا القرآن والتعبد بما جاء به وامتثال أوامره واجتناب نواهيه... إنه القرآن الذي فتح بصائر هؤلاء القوم فساروا بوعي ورشاد نحو هدف محدد لهم في الحياة... هذا القرآن هو الذي دلّ هذه الفئة وأرشدها

---

(١) اختلفوا في اسم الإشارة = ذلك = ما المقصود به حتى بلغت أقوالهم عشرة والأقرب إلى الفهم هو ما قلناه وذكرناه.

إلى ما فيه صلاحها وفلاحها ونجاحها فسجّلت أسماءها في سجلّ الخالدين وامتازت عن جميع العالمين. . .

وقد وصف الإمام علي عليه السلام المتقين في خطبة مشهورة في نهجه وهي الخطبة رقم ١٩٣ نأخذ منها هذا النص القصير يقول عليه السلام:

فالمتقون فيها - في الدنيا - هم أهل الفضائل منطقهم الصواب وملبسهم الاقتصاد ومشيهم التواضع غضّوا أبصارهم عمّا حرم الله ووقفوا أسماعهم على العلم النافع لهم نُزّلت أنفسهم منهم في البلاء كالتي نزلت في الرخاء. . إلى أن يقول عليه السلام: فهم والجنة كمن قد رآها فهم فيها منعّمون وهم والنارُ كمن قد رآها فهم فيها معذبون. . والخطبة روعة في الأدب ومن قرأها وأمعن في فهمها أدرك ذلك ووقف عليه. . .

﴿ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ هذه أولى صفات المتقين. . إنهم يملكون الأدلة اليقينية التي تدفعهم للإيمان بما هو خارج عن الحس. . . إنهم يشعرون بما يلزمهم بالأيمان بحقائق صدقوا بمقدماتها وكانت هذه كنتائج لها ومن آثارها ومستلزماتها. . . الإيمان بالغيب ليس إيماناً بالمجهول. . . كما أنه ليس تضييعاً للعقول أو تسفيهاً لها وتحقيراً لحامليها. . .

الإيمان بالغيب يعني الارتقاء والارتفاع بهذا الإنسان عن مستوى الحس إلى ما وراء الحس. . إلى الإيمان بما وراء الحدود المادية الضيقة، ومن هنا يكون أفق المؤمنين أوسع وأرحب ويمتد لمساحة أوسع مما هم فيه وما يعيشونه. . .

الإيمان بالغيب يشمل الإيمان باليوم الآخر والحشر والنشر والحساب والعذاب والجنة والنار والجن والملائكة وما في ذلك العالم وما يحويه، ويدخل فيه كل ما أخبر به النبي صلى الله عليه وآله ولم يتحقق بعد مضمونه كما هو الحال فيما أخبر به عن الإمام المهدي (عج) الذي تواتر خبره وخبر دعوته وما يحمله من إصلاح يغيّر به وجه الحياة وقد أجمعت الأمة على خروجه في آخر الزمان استناداً إلى ما أخبر به النبي صلى الله عليه وآله.

إن دائرة الغيب واسعة ولها مصاديقها فإذا عرفنا العنوان دخلت المصاديق قهراً تحته . . .

وهذا الغيب كما قلنا له مقدمات من الإيمان بها يتولد الإيمان به وهذا أمر منطقي منسجم مع القواعد الطبيعية، فمن آمن بنبوة محمد ﷺ وآمن بصدقه وأنه ينقل كلام الله لا بدّ وأن يصدّق بكل ما جاء به وإن كان غيباً لم تقع حواسه عليه ولم يتمكن من رؤيته أو إدراكه بحاسة من حواسه . . .

الإيمان بالله غيب . . فلم تره العيون مشاهدة ولكن رأته القلوب[1] كما يقول أمير المؤمنين عليه السلام لذعلب اليماني وقد سأله هل رأيت ربك يا أمير المؤمنين؟

فقال عليه السلام : أفأعبد ما لا أرى؟

فقال : وكيف تراه.

فقال عليه السلام : لا تدركه العيون بمشاهدة العيان ولكن تدركه القلوب بحقائق الإيمان قريب من الأشياء غير ملابس بعيد منها غير مباين . . . إلخ . . .

﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ وماذا تعني إقامة الصلاة حتى اختصها الله بالذكر وجعلها صفة للمتقين؟ وهل هي الصلاة التي يقوم بها عامة الناس كما نرى في واقعنا؟

أم أنها تعني شيئاً مهماً؟ بل أشياء مهمة تنعكس على العلاقة بالله وعلى نفس هذا الإنسان وعلى علاقته بجميع خلق الله . . .

إنها تعني فيا تعني أن يؤديها الأتقياء بجميع أجزائها وشروطها وأن يرفعوا موانعها ومبطلاتها ثم تأخذ حقيقتها من نفوسهم بحيث تمنعهم عن الفحشاء والمنكر وتؤكد صِلاتِهم بالله وتقوّيها حتى يشعروا من خلال قيامهم لها أنهم يقومون بين يدي مالك الملوك. فمع خطابهم معه يجب أن يكونوا في حالة رهبة ممزوجة بالتعظيم والتبجيل . . .

---

(١) نهج البلاغة، خطبة/ ١٧٩ .

إن إقامة الصلاة تعني المحافظة عليها في وقتها وإقامة سننها ومستحباتها والإتيان بها على الوجه التي تحوّلها إلى معراج للمؤمن يرتقي بها إلى الدرجات العلى في سلم الكمال، كما أن المؤدي لها يتحول إلى أقرب الناس لله يعمل بأمره ويقف عند نهيه ويسلك السبيل التي أحب وأراد... إن إقامة الصلاة يعني أن تتحول إلى قرة عين له كما كانت لرسول الله ﷺ قرة عين.

﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ وهذه واحدة من صفات المتقين تنضم إلى أخواتها من بقية الصفات... إنها صفة الإنفاق التي تعني إخراج جزءٍ من المال ـ الذي تفضّل به الله على هذا المتقي ـ بإخراجه عن ملكه وإدخاله في ملك غيره.. إنها عملية تقتل البخل والشح وتقضي على الإثرة والأنانية... إنها اليد الطيبة التي تمتد إلى أموالها لتخرج منها جزءاً تقدّمه للآخرين تُعينهم وتساعدهم وترفع عوزهم وحاجتهم... ما أشرفها من يد تلك التي تمتد لتساعد الفقراء والمحتاجين وتبلسم جروح النفوس التي أصيبت باليتم والترمل والعوز والحاجة...

الإنفاق يحكي عن روح شفّافة حسّاسة رقيقة تعيش مع الله في أمره وتعيش مع أصحاب الحاجات فيما هم فيه من فقر ومسكنة... إن المال إذا خرج من اليد زرع المحبة والتعاون وانعكس إيجاباً في المجتمع فلا يعيش المحتاج عقدة نحو الغني فلا يحقد عليه ولا ينصب له العداوة ولا يحمل له البغض.. بل عندما يجد هذه اليد الغنية تحنو عليه وترعاه وتتولى شؤونه وتسد عوزه وترفع حاجته سيشعر بدون شك بالمحبة لها والدعاء وهذا ينعكس سلاماً ووئاماً وتوافقاً وانسجاماً...

وهذا التعبير القرآني ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾ فيه تذكير لهؤلاء الناس الذين يملكون المال.. تذكير لهم أن الله هو الذي أعطاهم هذا المال... هو سبحانه الذي وفّر لهم هذا المال بما أعطاهم من قوة عقلية وبدنية وتوفيق وتسديد... إنه سبحانه هو الذي وفّر لهم السبل حتى جمعوا هذا المال وأصبحوا من أصحاب الثروة، فإذا كان المال منه وبتوفيقه فينبغي عليهم أن لا يبخلوا به على عباده.. بل

يبادروا إلى إخراج جزء منه عن ملكيتهم وإعطائه لأصحابه من أهل العوز والفاقة. . . فالرازق هو الله وهو سبحانه الذي يأمر بالإنفاق وما على هذا العبد إلا أن يتّبع أمر الله. . .

ثم إن قوله: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾ قد يُتوسع في هذا الرزق فلا نحصره في المال أو نضيّق مساحته لنقصّره عليه فحسب وإن كان ظاهراً فيه ـ وهكذا يفهمه العرف العام وأهل المحاورة واللسان ـ ولكن بشيء من التأمل يمكن أن نوسّع دائرته ليشمل كل عطايا الله ومنحه التي تفضّل بها على هذا الإنسان. . .

فمن رزقه الله علماً واسعاً يجب عليه أن يبذله لأهل الجهل وطلاّب العلم. . بل يجب عليه أن يؤدي زكاة هذا العلم. . وزكاته بذله للناس وتعليمه لهم. . . ومن رزقه الله جاهاً عريضاً يجب عليه أن يقضي حاجات الناس ويتوسط لهم في إنجاح قضاياهم وحل مشاكلهم وتيسير أمورهم. . . وهكذا في كل نعم الله وعطاياه سواء كانت مادية أم معنوية فيجب على أصحابها أن ينفقوا منها ويساعدوا أصحاب الحاجة والعوز لكي يعيش هذا المجتمع بجميع أفراده بخير وسعادة وتعاون وتكافل. . .

فائدة

وردت الرواية عن الإمام الصادق عليه السلام كما في تفسير العياشي في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ قال: ومما علمناهم يبثون.

وفي رواية المعاني عن الصادق عليه السلام: ومما علمناهم من القرآن يتلون. . .

وهذا التفسير من الإمام للإنفاق ليس مقصوداً به الحصر، وإنما أراد أن يعمّم الإنفاق ويقول: إن الإنفاق ليس للمال فحسب؛ بل يعمّ ويشمل ويتخطى الإنفاق المالي إلى كل ما أنعم الله به على هذا الإنسان ومنه العلم وقد يكون الجاه وهكذا. . .

﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ المتقون يؤمنون بما جاءك من عند الله... يؤمنون بالقرآن كتاباً سماوياً وكلاماً إلهياً..، كما يؤمنون بكل ما فيه من أوامر أو نواهي..، من حشر ونشر وبعث، وجنة ونار وحساب وعقاب... إنهم يصدقونك يا محمد بكل ما أنزل الله عليك... يؤمنون به لأنهم يؤمنون بأنك رسول من عنده هو الذي كلّفك مهمة السفارة بينه وبين خلقه وجعلك الواسطة التي تنقل مراده إلى الناس وتخبرهم بكل ما يصدر عنه، وأيضاً يؤمنون بسنتك الشريفة مما تقول أو تفعل أو تقرّر لأن الله قد عصمك من كل خطأ فضلاً عن الخطيئة ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾.

﴿وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ فالأتقياء يؤمنون بما أنزل على النبي محمد ﷺ سواء كان قرآناً أم غيره من سنته الشريفة لأنه معصوم لا ينطق عن الهوى وكذلك الأتقياء يؤمنون بما أنزل على الأنبياء من قبله.. يؤمنون بالتوراة والإنجيل والزبور وكل كتاب أو صحيفة أنزلها الله... يؤمنون بوحدة المرسل ـ وهو الله ـ كما يؤمنون بصحة كل رسالة وأحقيتها إذا صدرت عنه... إنها العقيدة التي تحكم المتقي التي من خلالها يؤمن بترابط الرسالات، وإن الإيمان ببعضها يستدعي الإيمان بالجميع وإن إنكار بعضها يشكل خللاً في هذه العقيدة ويترك ثغرة لا يستطيع أن يسدها مهما أوتي من قوة أو كان له من منعة...

﴿وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ وهذه أعظم صفات المتقين.. بل إنها الفارق الجوهري التي يحويها قلب المؤمن دون قلوب الآخرين... أن تعيش الحياة بعد الموت... أن تتيقن أن هناك داراً آخرة ستحاسب فيها وتقدم خلالها كل أعمالك السيئة والحسنة ويدقق في هذا الحساب...

إن من يصل به الأمر إلى اليقين بالدار الآخرة يتحتم عليه أن تكون أعماله كلها طبق الأوامر الإلهية فلا يخالف أمراً ولا يرتكب نهياً بل يعيش في حالة طوارىء مع نفسه يراقبها ويحاسبها ويجيد كل عمل مطلوب منه...

إن المتقين على يقين بالآخرة، اليقين الذي لا شك فيه، وكما يقول علي عليه السلام في صفتهم «فهم والجنة كمن قد رآها فهم فيها منعّمون وهم والنار كمن قد رآها فهم فيها معذبون. . . يعيشون الرقابة في دنياهم يتحسسون مواقفهم ومواقعهم. . لا يميلون عن الحق ولا يتأخرون عنه في كلمة أو موقف أو عمل. . . .

﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ۝٥﴾.

هذا بيان للنتيجة المترتبة على إيمان المتقين وما اعتقدوا به وذهبوا إليه. . . إنها حصيلة جهادهم لأنفسهم وحملهم لها على الإيمان، وحصيلة عملهم في معترك الأوامر الصادرة لهم من الله المتمثلة بالصلاة والإنفاق. . . حصيلة العقيدة والعمل أن يكونوا في دروب الهدى التي كشفها لهم ربهم وعلى نور وبصيرة من الله. . .

أولئك هم الفائزون بكرامة الله حيث الجنة ونعيمها وما أعدّه الله لهم مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر. . . إنهم وحدهم الذين فازوا وانتصروا حينما فشل غيرهم وانهزم. . إنهم طبقة معينة من الناس يقابلها طبقتان تتحدان في العاقبة في الدار الآخرة وإن كانت كل منهما تختلف أسلوباً في دار الدنيا ويجري التعامل مع كل منهما بطريقة أيضاً مختلفة: إنهما مجتمع النفاق ومجتمع الكفر الذي سيأتي الكلام عنهما ويتناولهما القرآن بإسهاب في ضمن كلامه عندما يستعرض أعمالهم وسلوكهم ومسيرتهم وطريقة حياتهم بل وتفكيرهم وعقيدتهم وما يذهبون إليه ويخططون له. . .

وحصيلة هذه الآيات التي تتناول المتقين أنهم فريق مميز اجتمعت فيهم صفات عالية رفيعة وقعت موقع رضا الله أهّلتهم ليفوزوا بسعادة الدنيا ونعيم الآخرة وعلى العاقل من الناس أن يعمل من أجل اكتساب هذه الصفات كي يؤهّل لكرامة الله. . .

فوائد

١ - يتضح جيداً أن مصادر المعرفة عند أهل الإيمان لا تنحصر في المحسوسات - المعلومات المكتسبة بالحواس - بل ينضم إلى ذلك ما كان عن طريق الوحي - وبذلك تتوسع آفاق المعرفة لتشمل الدنيا والآخرة . . .

٢ - قرن سبحانه بين علاقة هذا الإنسان بربه - الله - في إقامة الصلاة - وبين صلة الإنسان بأخيه الإنسان من خلال قوله: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ فالعلاقة تبتدىء بين الإنسان وربه لتنتهي بين الإنسان وأخيه الإنسان نفعاً وفائدة وخدمة وتعاوناً.

٣ - قوله تعالى: ﴿وَبِٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ صفة الدار المحذوفة وقد أصبحت الآخرة كأنها علم على تلك الدار الآخرة . .

والآخرة: تأنيث الآخر. وسميت الدار الآخرة بذلك لتأخرها عن الدنيا بينما سميت دار الدنيا بذلك لقربها أي دنوها منّا.

٤ - كرر الإشارة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٥﴾ ليشير إلى اختصاص الفلاح بهم كما اختصوا بالهدى فكأنهم امتازوا بهذين الأمرين . . .

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾﴾.

* * *

اللغـــة

﴿كَفَرُوا﴾: الكافر جمعه كفار وكفرة وكافرون، والأنثى كافرة وكافرات وكوافر.

والكفر في اللغة: الستر والتغطية، ومنه سمي الليل كافراً لأنه يستر بظلامه كل شيء، وسمي الزّراع كفاراً لأنهم يغطون الحب تحت التراب، ومنه قوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ﴾[(١)].

ومنه الكفارة وهي فعالة من الكفر: وهي التغطية.. لأنها تكفّر الذنب عن الإنسان أي تمحوه وتستره وتغطيه، والكفر: جحود الوحدانية أو الشريعة أو النبوة أو الثلاثة معاً.

﴿سَوَاءٌ﴾: مصدر ومعناه مستوٍ، والاستواء: الاعتدال، والسواء: العدل.

﴿ءَأَنذَرْتَهُمْ﴾: الإنذار: إخبار فيه تخويف، كما أن التبشير إخبار فيه سرور، والنذير: المنذر ويقع على كل شيء فيه إنذار إنساناً كان أو غيره وجمعه النُذُر.

(١) الحديد: ٢٠.

﴿خَتَمَ﴾: الطبع، وهو الشد والطبع حتى لا يوصل إلى الشيء المختوم عليه ومنه ختم الباب والكتاب.

﴿ٱلْقُلُوبُ﴾: جمع قلب، وقلب الإنسان.. قيل سمي به لكثرة تقلبه، ويعبّر بالقلب عن المعاني التي تختص به من الروح والعلم والشجاعة وغير ذلك وقوله: ﴿وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾(١) أي الأرواح وقال: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾﴾(٢): أي علم.. وفي علم الأحياء يطلق القلب على الكتلة الصنوبرية الموجودة في الصدر...

﴿ٱلسَّمْعَ﴾: قوة في الإذن به يدرك الأصوات ويعبّر تارة بالسمع عن الإذن نحو ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ﴾(٣)، وتارة عن فعله كالسماع نحو ﴿إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾﴾(٤) وتارة عن الفهم وتارة عن الطاعة تقول: اسمع ما أقول أي افهم.

﴿ٱلْأَبْصَٰرُ﴾: مفرده البصر، يقال للجارحة الناظرة نحو قوله تعالى: ﴿كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ﴾ وللقوة التي منها، ويقال لقوة القلب المدركة بصيرة وبصر نحو قوله تعالى: ﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾(٥) وجمع البصيرة: بصائر.

﴿غِشَٰوَةٌ﴾: الغطاء، والغشيان والغاشية: ما يغطي الشيء كغاشية السرج، وكني عن القيامة بالغاشية لأنها تغشى الناس بأهوالها وغشي على فلان: إذا نابه ما غشي فهمه.

﴿ٱلْعَذَابِ﴾: الإيجاع الشديد، وقد عذّبه تعذيباً أكثر: حبسه في العذاب، واختلف في أصله، فقال بعضهم هو من قولهم: «عذب الرجل: إذا ترك المأكل والنوم، فالتعذيب في الأصل: هو حمل الإنسان أن يعذب: أي يجوع ويسهر، وقيل: أصله من العَذْب، فعذّبته: أي أزلت عذب حياته على بناء مرّضته وقذيته.

---

(١) الأحزاب/ ١٠.
(٢) ق/ ٣٧.
(٣) البقرة/ ٧.
(٤) الشعراء/ ٢١٢.
(٥) ق/ ٢٢.

وقيل أصل التعذيب: إكثار الضرب بعذبة السوط: أي طرفها، وقد قال بعض أهل اللغة التعذيب: هو الضرب، وقيل هو من قولهم ماء عذب: إذا كان فيه قذى وكدر فيكون عذّبته كقولك كدّرت عيشه...

﴿ٱلْعَظِيمٌ﴾: الكبير، وعظُم الشيء: أي كبر عظمه، ثم استعير لكل كبير فأجري مجراه محسوساً كان أو معقولاً عيناً كان أو معنى. قال تعالى: ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾[1] ﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌا عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾﴾[2] ﴿عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾[3].

التفسير

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾﴾.

بعد ذكر المتقين وصفاتهم وخصائصهم ذكر سبحانه الصنف الثاني من الناس ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ إنهم قوم انطمست فيهم كل إشعاعات الخير وأوصدت عندهم كل أبواب المعروف... إنهم صنف خاص من الكفار قد بلغوا في الكفر منتهاه.. قرّروا عن علم ومعرفة وسابق إصرار وعناد أنهم لن يؤمنوا... فكما أن الأتقياء بلغوا الرقم القياسي من الإيمان والعقيدة فهؤلاء الكفار بلغوا الرقم القياسي في الكفر... إنهما في جبهتين متقابلتين، فإذا كانت جبهة الأتقياء أصحاب إيمان خاص فهؤلاء أصحاب كفر خاص...

ربما كان هؤلاء الكفار أشخاص معينين يعيشون عصر الرسالة أمثال أبي لهب، وربما كانوا من أهل الكتاب الذين وصلتهم أوصاف النبي وخصائصه وعرفوا خصوصياته وتيقنوا صدقه ولكنهم قرروا عدم الإيمان به عناداً للحق ورفضاً له..

---

(١) الشعراء/ ١٣٥.
(٢) ص/ ٦٧.
(٣) الزخرف/ ٣١.

وعلى كل حال إنها تحكي حقيقة تتحرك في الواقع المعاش وتنطبق اليوم على جملة من الناس كما انطبقت فيما مضى على ثلة منهم يعيشون أوصافهم وحالاتهم. . .

إن من خصائص هذه الفئة من الذين كفروا أن يتساوى عندهم إنذار النبي وبيانه وتخويفه وعدم إنذاره. . .

إنهم لا يتأثرون بكل الإنذارات التي يحملها النبي ﷺ. . . إن قلوبهم قد فقدت قابلية التلقي والتأثر بأي حدث مهما كانت قوته وطاقته حتى لو كان من النبي الذي يملك أعظم حجة وأقوى برهان. . .

إنهم ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ حقيقة مؤلمة يشعر النبي بعظيم وقعها على نفسه فيأتي النداء الإلهي ليعزيه ويسليه ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ﴾.

﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ﴾. . . إنهم هم الذين أوصدوا النور أن يصل إليهم ومنعوا الحق أن يدخل في قلوبهم فلذا لا يؤمنون. . . أخذوا على أنفسهم ذلك فليتحملوا تبعات عدم الإيمان وما وراءه من خلفيات. .

﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾﴾.

هذا الختم هو السبب لعدم إيمانهم ولكن ما المراد منه؟. . لقد اختلفوا فيه. . .

والحقيقة التي يجب أن نؤمن بها. . مهما كان الخلاف في هذا الختم والمراد منه أن نؤمن أنه لا يصل إلى حد الإلجاء والإكراه وسلب القدرة والاختيار. . .

وهناك أقوال في الختم:

١ ـ إن المراد بالختم العلامة. . فإذا علم الله أن هذا الكافر وصل أمره إلى أنه لا يؤمن يعلّم بعلامة يعرّف بها.

٢ ـ المراد بالختم. . أن الله يشهد عليها وأنها لا تقبل الحق وهذا على حدّ قولك «أراك تختم على كل ما يقول فلان أي تشهد به وتصدقه».

٣ ـ إنه سبحانه ذمُّهم بأن قلوبهم كالمختوم عليها من حيث أنها لا تقبل الحق فقد تمكّن الكفر من قلوبهم فصارت كالمختوم عليها وصاروا بمنزلة من لا يفهم ولا يبصر ولا يسمع.

٤ ـ وقالوا يمكن أن تكون تهكماً حكاية لقوله: ﴿قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾.

والأقرب إلى الفهم والمنسجم مع القواعد العقلية أن هؤلاء الكفار لتماديهم في الكفر والعصيان واستغراقهم في الضلال والفساد أصبحت هذه من الملكات عندهم التي لا تنفك عنهم فصحّ أن يقال: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ﴾ من حيث إنهم عطلوا تلك القوى وأفقدوها تأثيرها فيما خلقها لها الله وهذا على مثال ما يقال: أهلكته فلانة إذا أعجب بها ـ وهي لا تفعل به شيئاً لأنه هلك في إتيانها... هذا إذا أردنا بالآيات عموم من يستحق ذلك.

وأما إذا أردنا أشخاصاً بأعيانهم فهذا أوضح من حيث أن الله علم منهم إصرارهم على الكفر فيختم على قلوبهم وعلى سمعهم فلا تعود القلوب تفكر ولا تعود الأسماع تعتبر وكذلك يجعل على العيون غشاوة تمنع من رؤية الحق وهذا أمر ليس فيه أي قبح بعد أن اختار هؤلاء الأشخاص الكفر وأصرُّوا عليه وبنوا على عدم التزحزح عنه..

ثم إن في الآخرة ينتظرهم عذاب كبير شديد مستمر.

فوائد

١ ـ إنهم وقفوا في قراءتهم ﴿وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ﴾ فيكون معطوفاً على القلوب فيأخذ حكمها في الختم فتصبح القلوب والسمع مختومان.

٢ ـ إن قيل لماذا جاء بالجار في قوله: ﴿وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ﴾ مكرراً مع إمكان أن يقول: «ختم الله على قلوبهم وسمعهم».

قالوا: لأن تكريرها أدل على شدة الختم في الموضعين. . .

٣ ـ إن قيل لماذا جمع القلوب والأبصار ووحد السمع.

قالوا: لأن لكل واحد منهم سمعاً.

وقالوا: إن السمع مصدر في أصله والمصادر لا تجمع وقالوا: إنه يقدر مضافاً محذوفاً أي وعلى حواس سمعهم.

قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾﴾.

❁ ❁ ❁

اللغــــة

﴿يُخَادِعُونَ﴾: من الخداع: وهو إنزال الغير عمّا هو بصدده بأمر يبديه على خلاف ما يخفيه، وقيل: خدع الضب: أي استتر في حجره، وطريق خادع وخيدع: مضل.. كأنه يخدع صاحبه، والمخدع: بيت في بيت كأن بانيه جعله خادعاً لمن رام تناول ما فيه...

﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾: أي يفطنون يقال: شعرت بالشيء: أي فطنت له ومنه الشاعر لفطنته لأنه يفطن لما لا يفطن له غيره من غريب المعاني، ومنه قولهم: «ليت شعري» أي ليتني علمت.

﴿مَّرَضٌ﴾: كل ما خرج به الإنسان عن الصحة من علة أو نفاق أو تقصير في أمر.

﴿فَزَادَهُمُ﴾: الزيادة: أن ينضمّ إلى ما عليه الشيء في نفسه شيء آخر، يقال: زدته فازداد وقد يكون زيادة مذمومة كالزيادة على الكفاية مثل زيادة الأصابع وقد تكون محمودة نحو قوله: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾[1].

﴿أَلِيمٌ﴾: في كلام العرب مؤلم: أي موجع، وآلم: إذا أوجع والإيلام: الإيجاع، والألم: الوجع..

﴿الْكَذِبَ﴾: ضد الصدق وأصلهما في القول ماضياً كان أو مستقبلاً وعداً كان أو غيره ولا يكونان بالقصد الأول إلاّ في القول ولا يكونان في القول إلاّ في الخبر دون غيره من أصناف الكلام، فالكذب: هو الإخبار عن الشيء لا على ما هو به...

﴿لَا تُفْسِدُوا﴾: من فسد الشيء فساداً وفسوداً: وهو فاسد وفسيد ضد الصلاح وحقيقته العدول عن الاستقامة إلى ضدها قال الراغب في مفرداته: الفساد: خروج الشيء عن الاعتدال قليلاً كان الخروج عنه أو كثيراً ويضاده الصلاح ويستعمل ذلك في النفس والبدن والأشياء الخارجة عن الاستقامة.

﴿الْأَرْضِ﴾: الجرم المقابل للسماء وجمعه أرضون يعبّر بها عن أسفل الشيء كما يعبّر بالسماء عن أعلاه.

﴿السُّفَهَاءُ﴾: جمع سفيه، واصل السفه في كلام العرب: الخفة والرقة يقال: ثوب سفيه: إذا كان رديء النسج خفيفه أو كان بالياً رقيقاً ويستعمل في الجاهل الضعيف الرأي القليل المعرفة بمواضع المصالح والمضار.

﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾: من علمت الشيء إذا عرفته، والعلم: هو انطباع صورة الشيء في الذهن...

﴿لَقُوا﴾: من لقي، واللقاء: مقابلة الشيء ومصادفته معاً يقال: لقيه يلقاه لقاء ولقياً ولقية، ويقال ذلك في الإدراك بالحس وبالبصر والبصيرة، ويوم التلاق: أي

---

(١) يونس/٢٦.

يوم القيامة وتخصيصه بذلك لالتقاء من تقدّم ومن تأخّر والتقاء أهل السماء والأرض وملاقاة كل أحدٍ بعمله الذي قدمه، ولقيته بكذا: إذا استقبلته به. . .

﴿خَلَوْا﴾: الخلاء: نقيض الملأ، والخلاء: المكان الذي لا ساتر فيه من بناء ومساكن وغيرهما، وخلا فلان بفلان: صار معه في خلاء وخلا إليه انتهى إليه في خلوة.

﴿ٱلشَّيَٰطِينُ﴾: كل متمرد من الجن والإنس والدواب.

﴿مُسْتَهْزِءُونَ﴾: الهزء: مزح في خفية، السخرية واللعب.

﴿وَيَمُدُّهُمْ﴾: واصل المدّ: الزيادة في الشيء، ومدّ الشيء: بسطه وأيضاً جذبه، ومدّ الله عمره: أطاله، ومدّ نظره إليه: إذا طمح بنظره إليه.

﴿طُغْيَٰنِهِمْ﴾: الطغيان في اللغة: مجاوزة الحد في كل شيء ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ﴾[1]، أي ارتفع وعلا وجاوز حدّه، والطاغية: الجبار العنيد، والطاغوت: عبارة عن كل متعدٍ وكل معبود من دون الله ويستعمل في الواحد والجمع. . .

﴿يَعْمَهُونَ﴾: عمه الرجل يعمه عموهاً وعمهاً: فهو عَمْه وعامه إذا حار، وقال بعضهم: العمه مثل العمى إلاّ أن العمى عام في البصر والرأي، والعمه في الرأي خاصة، ويعمهون: يترددون متحيرين في الفكر.

﴿ٱشْتَرَوُا۟﴾: حقيقة الاشتراء: الاستبدال، والعرب تستعمل ذلك في كل من استبدل شيئاً بشيء.

﴿ٱلضَّلَٰلَةَ﴾: من ضل ضلالاً وضلالة: العدول عن الطريق المستقيم ويقال: الضلال لكل عدول عن المنهج عمداً كان أو سهواً يسيراً كان أو كثيراً واستعير للذهاب عن الصواب في الدين.

---

(١) الحاقة/ ١١.

﴿ٱلْهُدَىٰ﴾: ضد الضلالة، والهداية: الدلالة بلطف، وهداه: أرشده، وهداه الطريق وإلى الطريق: عرّفه به وبيّنه له.

﴿رَبِحَت﴾: الربح هو: الفضل على رأس المال.

﴿ٱلْمَثَلُ﴾: الشبه والمتماثلان: المتشابهان، والمِثل والمَثل والمثيل كالشِّبه والشَّبه والشبيه وزناً ومعنى.

﴿ٱسْتَوْقَدَ نَارًا﴾: إذا ترشح لإيقادها وأوقدها، والوقود: يقال للحطب المجعول للوقود ولما حصل من اللهب، واستوقد النار: طلب وقودها.. أي سطوعها وارتفاع لهبها.

﴿ٱلنَّارَ﴾: مؤنثة وهي جوهر لطيف مضيء حار محرق.

﴿أَضَآءَتْ﴾: من الضوء: وهو ما انتشر من الأجسام النيّرة، والإضاءة: فرط الإنارة.

﴿مَا حَوْلَهُۥ﴾: حول الشيء: جانبه الذي يمكنه أن يحوّل إليه.

﴿ذَهَبَ﴾: الذهاب: المضي، يقال: ذهب بالشيء وأذهبه ويستعمل ذلك في الأعيان والمعاني، والذهاب: زوال الشيء.

﴿وَتَرَكَهُمْ﴾: تركه: أهمله، خلاّه.

﴿ظُلُمَٰتٍ﴾: مفردها الظلمة: وهي عدم النور ويعبّر بها عن الجهل والشرك والفسق، وأظلم فلان: حصل في ظلمة.

﴿صُمٌّۢ﴾: جمع أصم، والصمم في كلام العرب: الانسداد، يقال: صممت القارورة: إذا سددتها، وأذن صماء: إذا فقدت حاسة السمع ويوصف بالصمم من لا يصغي إلى الحق ولا يقبله..

﴿ٱلْبُكْمُ﴾: جمع أبكم: وهو الأخرس الذي لا ينطق، وقيل: إن الأبكم الذي لا ينطق ولا يفهم فإذا فهم فهو الأخرس.

﴿عُمْيٌ﴾: جمع أعمى: وهو ذهاب البصر، ويقال لمن فقد البصيرة أي الفهم ومن الأول قوله: ﴿أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ﴾[1] ومن الثاني قوله: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ﴾[2].

﴿رَجَعَ﴾: عن الشيء انصرف عنه بعد الذهاب إليه، ورجع إليه، انصرف إليه بعد الذهاب عنه.

﴿كَصَيِّبٍ﴾: جمعه صايب: وهو المطر الغزير.

﴿ٱلسَّمَآءِ﴾: في اللغة: كل ما علاك فأظلّك فهو سماء، ومنه قيل: لسقف البيت سماء.

﴿ٱلرَّعْدُ﴾: صوت السحاب.

﴿ٱلْبَرْقُ﴾: نور يلمع في السماء على أثر انفجار كهربائي في السحاب، والبارقة: سحابة ذات برق وكذلك يطلق على السيوف «البارقة».

﴿أَصَٰبِعَهُمْ﴾: جمع أصبع اسم يقع على السُّلامي والظفر والأنملة والأُطرة والبُرجمة معاً.

﴿ءَاذَانِهِم﴾: مفردها الأذن: وهي مؤنثة عضو السماع.

﴿ٱلصَّوَٰعِقِ﴾: مفردها صاعقة نار تسقط من السماء في رعد شديد.

﴿حَذَرَ﴾: احتراز عن مخيف.

﴿ٱلْمَوْتِ﴾: ضد الحياة الدنيا.

﴿مُحِيطٌۢ﴾: أحاط به: أحدق به من جوانبه، وأحاط بالأمر علماً: أي أحدق به علمه من جميع جوانبه، والله محيط بالعباد: أي هي في قبضته وتحت سلطانه...

﴿يَكَادُ﴾: يقارب، يقال: كاد يفعل ذلك: إذا قارب ولم يفعل...

---

(١) عبس/ ٢.
(٢) البقرة/ ١٨.

﴿يَخْطَفُ﴾: الأخذ بسرعة.

﴿أَبْصَٰرَهُمْ﴾: جمع البصر: وهي حاسة الرؤية.

﴿قَامُواْ﴾: وقفوا وثبتوا في أماكنهم.

﴿شَآءَ﴾: الإرادة.

التفسير

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾﴾.

بعد ذكر المتقين وأوصافهم ذكر تعالى الصنف المقابل لهم وهم الكفار الذين لم يؤمنوا والحديث عن هذين الصنفين قد تقدّم فيما سبق، وفي هذا المقام ذكر سبحانه الصنف الثالث أنهم أهل النفاق، وقد تحدث عنهم في ثلاثة عشر آية في هذا المقام متوالية متتالية...

المنافقون صنف يختلف في سلوكه عن كلا الصنفين الآخرين ففي حين يكشف المؤمنون عن هويتهم ويعلنون عنها صراحة إنهم أصحاب عقيدة واضحة في الله وفي الأنبياء وكل رسالات الله وما جاء به رسل الله ويعملون بمقتضى هذه الشريعة ومتطلباتها والتزاماتها...

وكذلك يكشف أهل الكفر عن أنفسهم ويعلنون عن هويتهم أنهم بصراحة يكشفون عن مضمون هذا الكفر عملاً وسلوكاً في عبادة الأوثان ومحاربة الأنبياء...

أقول: في حين ـ كل من المؤمنين والكافرين ـ يكشفون عقيدتهم ويعلنون بصراحة عن هويتهم ـ فإن المنافقين ليس لهم هوية ـ إلا النفاق ـ إنهم يعيشون في عقيدتهم مع الكافرين لم يؤمنوا بالله ولا برسوله ولا بما جاء به... إنهم يعيشون الكفر في عمقهم وفي قرارة أنفسهم... لم يخرجوا عن صفوف الكافرين في عقيدتهم وتصورهم وما يذهبون إليه من عقائد وأفكار.

وكذلك يعيشون مع المؤمنين في سلوكهم ظاهراً وكما يتراءى أمام الأنظار . . .

إنهم ظاهراً مع المؤمنين يرفعون راية الإسلام ويصلّون ويصومون ويحجّون ويقومون بكل عمل مطلوب منهم. . إنهم يقومون بذلك أمام أنظار المسلمين ولكنهم يبطنون الكفر في أعماق نفوسهم. . .

إنهم مذبذبون لا من هؤلاء ومن هؤلاء لم يكشفوا عن هويتهم ولم يصرحوا بها. . يلبسون قناعين. . بل أقنعة، لكل مناسبة ولكل حالة قناعها. . . إنهم يعيشون في المجتمع الإسلامي مع أفراد هذه الأمة يمارسون كما تمارس ويقومون بما تقوم ولكنهم لم يذهبوا إلى ما تذهب إليه من جهة العقيدة والتصور والفكر. . . بل تخالفها وتناقضها وتتربص بها الدوائر. .

وإن خطورة هذه الحالة ـ النفاق ـ تكمن في أن أفرادها يعيشون بين أفراد هذه الأمة وفي مجتمعها لم يتميزوا في مكان ولم يتخذوا لهم شعاراً يخالفها أو يحدّد شخصيتهم مقابلها، ومن هنا كانوا على علم بكل ما في داخل المجتمع الإسلامي. . . بكل ما في هذا الجسد من قوة ومن ضعف. . . من عدة ومن عدد. . . من تصورات وتوجهات. . . من أقوال وأفعال. . . من خطط ودفاعات. . . إن أمامهم واقع المسلمين ظاهراً بيناً جلياً وهم يعيشون الرؤية الكاملة له ومن هنا كانوا أشد خطراً على المسلمين من الكافرين لأن الكافرين لم يعرفوا من المجتمع الإسلامي إلا ما يظهر لهم وهو قليل جداً لا يفي لإلحاق الهزيمة به أو الإضرار بأفراده، ولكن هؤلاء القوم يشكلون العملاء في الداخل أو الطابور الخامس ـ كما يقولون ـ ينقلون إلى العدو كل ما عند المسلمين. . . إنهم يكشفون المسلمين أمام أعدائهم وهنا يكمن الخطر العظيم. . . إن مقتل أي أمة أن يعرف العدو أسرارها وأمنها وخططها وما تذهب إليه وتتبناه. . .

فمن هنا يذكرهم الله في هذا المقام في ثلاثة عشر آية كما يذكرهم في ثلاثة عشر سورة بل يفرد لهم سورة يسميها باسمهم «سورة المنافقين» يكشف عقيدتهم

وسلوكهم ويعرّيهم أمام أنفسهم وأمام المجتمع ليحذر منهم الناس ويأخذوا الاحتياط في كل أمر خطير فلا يظهرونه لهم أو يضعونه أمامهم أو يعرّفونهم به.

وفي هذه الآية المباركة ينفي الله عنهم صفة الإيمان مع أنهم يرفعون أصواتهم بأنهم مؤمنون ويقولون أمام الناس أنهم مؤمنون... ومعهم.. وفي صفوفهم... ومن الناس ـ وهم المنافقون ـ من يقول ويرفع صوته... إنه يتحدث ويعلن آمنا بالله وباليوم الآخر...

إنه يعلن عن الإيمان من أوله وآخره... الإيمان بالله الذي يتضمن الإيمان بسفرائه من الرسل والأنبياء وبما جاءوا به من تعاليم وتشريعات، وكذلك الإيمان باليوم الآخر الذي بشر به هؤلاء الأنبياء وما وراء ذلك اليوم من برزخ وحساب وعقاب وجنة ونار... إنهم أرادوا بقولهم: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ﴾ أن يخدعوا المؤمنين ويلبسوا عليهم المواقف ويغروهم في هذا القول...

ولكن الله ردَّ عليهم ـ بصراحة ـ ففضحهم وكشف حقيقتهم وبيّن لهم ﴿وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾ نفى عنهم صفة الإيمان وألحقهم بهذا النفي بصفوف الكافرين... إنهم منهم لم يخرجوا بعملهم الظاهر عن واقع الكفر وحقيقته... فليس الإيمان بالمظاهر... الإيمان عقيدة في القلب تنعكس على الجوارح فتتحول إلى أعمال وحركات تنسجم مع العقيدة وتتحرك في إطارها وحدودها..

قوله تعالى: ﴿ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ ﴾.

❁ ❁ ❁

إنها صفة من صفات أهل النفاق.. خداع ومراوغة ورياء... إنهم في حالة يظنون أنفسهم بإظهارهم الإسلام وإبطانهم للكفر أنهم يخدعون الله والمؤمنين ولا يعرفون أن الله لا يخدع لأنه يعلم سرهم وخفايا قلوبهم ويعلم بحركاتهم وسكناتهم... ومن يعلم ما يبطنون وما يخفون لا يجري عليه خداع ولا تنطلي عليه حيلة...

إنهم يريدون السلامة لأنفسهم بإظهار الإيمان ولكنهم يبطنون الكفر، فهم يعملون عمل المخادع ولكن الله يعلم ذلك وسينالهم منه عذاب أليم..

وكذلك يظهرون للمؤمنين... إنهم بوجوه المؤمنين يلاقونهم... بإظهار كلمة التوحيد وشعار الإسلام ليحقنوا دماءهم ويحفظوا أموالهم ويتحصنوا بإظهار هذه الكلمات من كل أذى، ولكن المؤمنين يعرفونهم في لحن القول وفي المواقف وفي فلتات ألسنتهم وما يظهر منهم وبهذا يحترزون منهم ولا يأمنون لهم...

إنهم قوم أصحاب أطوار غريبة... يلبسون قناعاً مزيفاً يظهرون فيه أمام المؤمنين، إنهم منهم ولكنهم في واقعهم غرباء عنهم وأعداء لهم...

إنهم لا يخدعون إلا أنفسهم لأنهم سيأخذون جزاء هذا الخداع عذاباً أليماً أو لأن الله سيكشف للمؤمنين طرقهم الملتوية ومكرهم الخبيث في الدنيا! وبذلك يعود الضرر عليهم والخسارة إليهم ـ وأما في الآخرة ـ فلا ينتفعون بهذا النفاق ولا يكون له أثر يفيدهم في رفع العذاب عنهم...

﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ لأن إحساسهم تبلّد إلى درجة فقدوا معه سوء تصرفاتهم وقبيح أعمالهم. . . إنهم في غفلة مطبقة من جرّاء سيطرة هذا النفاق فأفقدهم الشعور بواقعهم وما هم عليه من تردّي وسوء تصرّف. . .

فائدتان

١ ـ قالوا: إن في قوله تعالى: ﴿يُخَادِعُونَ ٱللَّهَ﴾ أي رسول الله على تقدير حذف مضاف وهذا على عادته سبحانه في تفخيم وتعظيم شأن رسول الله ﷺ كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾[١].

٢ ـ قيل: إن التعبير بصيغة المخادعة ـ إنما للدلالة على المبالغة في حصول الفعل أو للدلالة على حصوله مرة بعد أخرى. . .

(١) الفتح/ ١٠.

قال تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾﴾.

❁ ❁ ❁

التفسير

هذا بيان لحالة المنافقين وشرح لواقعهم وما هم فيه.. إن نفاقهم هذا مرض... الشك والريب والتردّد في الإيمان بالنبي وبما جاء به من عند الله هو مرض... وليس هذا المرض في بعض الجوارح التي لا تؤثر في الجسد أو لا تهدّد مصيره ومستقبله وحياته بل هو في أهم مكان... في المركز الأساس الذي به قوام هذا الإنسان... إنه مرض في القلب يهدّد هذا الإنسان في كل لحظة...

في قلوبهم مرض... فهم ليسوا أحياء أصحّاء أقوياء أشداء كما هي حالة المؤمنين... وليسوا هم أموات كالكفار وإنما هم مرضى القلوب... منافقون...

في قلوبهم مرض ـ شك ونفاق وتردُّد من حيث إنهم لم يؤمنوا، ولما أصرّوا على مواقفهم واستأنسوا بأمراضهم تخلى الله عنهم فتأصل هذا المرض وأصبح مزمناً يعسر اقتلاعه... فصحّ أن يقال: ﴿فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾.

أو لأنهم كلما أنزل الله آية أو معجزة كفروا بها ولم يؤمنوا بها فكأنها زادتهم

كفراً ونفاقاً على حدّ قوله تعالى حكاية عن نوح عليه السلام ﴿رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۝٥ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا ۝٦﴾(١).

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ﴾ والنتيجة المترتبة على هذا النفاق والكذب عذاب مؤلم في الدنيا والآخرة...

فائدتان

١ - قيل: إن قوله تعالى ﴿فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾ هو دعاء عليهم، واستفادوا من ذلك جواز الدعاء على المنافقين.

٢ - ﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ فقد ذكر المرض منكراً والجملة وردت ظرفية وذلك إشارة إلى استقرار المرض ورسوخه..

---

(١) نوح/ ٥ و ٦.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾﴾.

❁ ❁ ❁

التفسير

هذه أيضاً واحدة من صفات المنافقين... إنهم لا يقبلون النصيحة بل يردّونها بضدها ويذهبون إلى خلافها... إنها الطبيعة العوجاء تستتبع المنطق الأعوج والموقف الأعوج والسلوك الأعوج...

إنها صورة يرسمها القرآن ويحكيها للأجيال... صورة المنافقين الذين يلبسون أقنعة متعددة، فهم في الظاهر مع المؤمنين وفي الواقع مع الكافرين... هم يعطون للمسلمين بألسنتهم ما ليس في قلوبهم... صورة مهزوزة عن شخصية ممسوخة لم تستطع أن تتخذ موقفاً واضحاً صريحاً مما يجري في الحياة...

فالحركة المنافقة تحكمها ظواهر معينة... إن أفعال المنافقين وأقوالهم تترائى للنبي وللمؤمنين... لم تغب تصرفاتهم ومواقفهم فضلاً عن أقوالهم عن عين النبي وعيون المؤمنين... إنهم يسعون للفساد في الأرض... يشككون الناس في دينهم... يخذّلونهم عن مساندة النبي ﷺ ومناصرته وشدّ أزره... إنهم يحيكون المؤامرات سراً وفي الخفاء.. إن كل حركة يقومون بها أو فعل أو منطق

يراه النبي والمؤمنون ومن غيرتهم عليهم وحبهم لهم ودفاعاً عن العقيدة والشريعة والدين والحق ورفعاً لهذا الفساد وقضاءً عليه يتوجهون إليهم بالنصيحة... من القلوب الطيبة الطاهرة التي يحملها المؤمنون يتوجهون إلى هذه الفئة المنافقة ويقولون لهم ﴿لَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ فالأرض يجب أن تعمّر وتبنى بالصلاح والخير وما ينفع الناس... هذه الأرض يجب أن يعمّها السلام والوئام ويرتفع عنها الحرب والخصام..

إنها دعوة إلى كفّ الأذى عن إنسان هذه الأرض ولكنها دعوة موجّهة إلى من يبثّ الإشاعات وينشر الفتن ويزرع الشك في القلوب ويبلبل العقول... دعوة إلى المنافقين الذين ينقضون وحدة المسلمين بمواقفهم المشككة المترددة التي لم تؤمن بالله ورسوله ولم تعمل بكتاب الله وسنة رسوله وفي هذا إساءة إلى الإيمان وإلى قواعد الشرع وهو بنفسه يجرّ إلى الإخلال بالنظام ويسبب الفوضى وبالتالي الفساد...

إنه واجب المؤمنين يقومون به ويوجهون إليهم النصيحة بقلب عطوف شفوق رحيم... ولكن كيف قابلهم المنافقون؟ وكيف كان موقفهم منهم؟ وبماذا واجهوا دعاة الإصلاح وكيف ردّوا عليهم؟!...

إنهم واجهوا هذا النهي الموجه إليهم بعدم الفساد في الأرض بعبارة مختصرة.

﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحۡنُ مُصۡلِحُونَ﴾.

لقد عكسوا القضية... قلبوها رأساً على عقب... بلسان واحد انطلقت الكلمات ﴿إِنَّمَا نَحۡنُ مُصۡلِحُونَ﴾ إنهم يذهبون إلى الخير والصلاح ويجمعون بين عقائد الكافرين وسلوك المؤمنين... إنهم في الظاهر مع المؤمنين وفي الواقع مع الكافرين وبذلك يوحّدون ويجمعون ويكوّنون حلقة الوصل بين الكافرين والمؤمنين... بزعمهم أن مواقفهم وسلوكهم إصلاح لا إفساد فيه... إن هذه القلوب المريضة لشدة شقاوتها وفساد طبيعتها انعكست عندها معالم الصلاح فأخذت تعدّ الفساد التي هي فيه والمقيمة عليه صلاحاً... إنها نسخة أخرى عمّا

يحكيه الله عن أمثالهم بقوله: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا﴾[1]...

لقد انقلبت عندهم الموازين تبعاً لفساد داخلهم وقبح عقيدتهم وانحرافهم عن الدين والإيمان فعدّوا الفساد صلاحاً والباطل حقاً...

وأمام هذا الردّ المشوّه والباطل والقبيح منهم ردَّ الله عليهم وبأبلغ ردّ ووسمهم بسمة يبقى عارها إلى الأبد.

﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾ لقد حُصر الفساد فيهم... إنهم أهله ومصدره وروّاده.. إنهم هم المفسدون.. لخطرهم على المجتمع الإسلامي.. لأنهم يعرفون مواقع الخلل... يعرفون كيف يبثون الفتن وينشرون الإشاعات ويعرفون نقاط الضعف فيدخلون منها... إنهم هم المفسدون ولكن لفساد نفوسهم وشدة انحرافهم ومحو آثار الخير فيهم لا يشعرون بإفسادهم ولا يتصورون أنفسهم أنهم مفسدون.

إنها صورة غريبة أن يمارس هذا الإنسان الفساد والإفساد وهو لا يشعر بذلك نتيجة انطماس كل إشعاعات الإيمان والخير في هذه النفس... إنه الشقاء والتعاسة يلف مثل هذا الفرد وهذه الجماعة التي تجرم في حق نفسها وفي حق الإنسانية كلها... صورة يحكيها الله عن هؤلاء القوم نرى حقيقتها في واقعنا عند بعض المنافقين الذين يتحركون في مجتمعنا ويعيشون بين أظهرنا...

فائدتان

١ ـ إن قوله تعالى ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ مَن القائل لهم؟.. قالوا: يجب أن يكون القائل له علاقة بالدين والنصيحة وعليه قالوا: إنه الله، وقالوا: بل رسول الله ﷺ وقال بعضهم: المؤمنون ولا يبعد شيء من هذه الاحتمالات فكلها واردة...

---

(١) فاطر/٨.

٢ - إنه سبحانه في مقام الردّ عليهم بقوله: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ﴾ أكّد ذلك بـ﴿أَلَآ﴾ وبـ﴿أن﴾ وعرّف الخبر وفصل بالضمير ﴿هم﴾ وأخيراً استدركه بعدم الشعور منهم وهذه كلها مؤكدات تنفي قولهم وتثبت أنهم مفسدون في الأرض. . .

قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾﴾.

التفسير

وهذه واحدة من صفات المنافقين وعاداتهم... إنهم يرفضون الحق ويردون على مَنْ جاء به... فإذا كانت مهمة المؤمنين أن يهدموا الباطل في نفوس المنافقين ويزرعوا الحق بديلاً عنه فقد تجسّد ذلك في هذا المقام من حيث إنهم في الآية المتقدمة.. نهوا المنافقين عن الفساد وأرادوا بذلك أن يطهّروا نفوسهم ويقتلعوا جذور الفساد منها فنهوهم عن الفساد وقالوا لهم: ﴿لَا تُفْسِدُوا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ وهنا حملوا إليهم أمراً ينقذهم ويحميهم ويحولهم إلى عناصر طيبة صالحة تستحق صفة الإنسانية...

إنهم المؤمنون يتحسسون حالة المنافقين ويقولون لهم ﴿ءَامِنُوا كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ﴾ آمنوا إيماناً صحيحاً سالماً واعتقدوا بالله ورسوله وبكل ما جاء به من عند الله كما آمن أصحابه به وصدّقوه... إنهم يريدونهم في ركب المؤمنين وفي صفوفهم في عقائدهم وحقائقهم... إنها دعوة كريمة تستبطن في طياتها كل الخير لهم ولمن هم أمثالهم... دعوة إلى الإيمان كما آمن الناس يعنون بهم أهل الإيمان والتصديق الذين عرفوا الحق الذي جاء به النبي فاتبعوه...

ولكن طبيعتهم المنحرفة ونفوسهم المريضة وما هم فيه من علو منزلة اجتماعية حيث كانوا من أهل الخطر والرياسة فقد ذهبوا إلى أنهم هم أصحاب العقل وأهل الفكر. . . هم العقلاء الراشدون الذين لم يؤمنوا كما آمن الناس. . . إن الناس - غيرهم - سفهاء لأنهم آمنوا وأذعنوا لما جاء به النبي ﷺ ومن هنا ردُّوا على المؤمنين الذين دعوهم إلى الإيمان كما آمن الناس. . ردُّوا عليهم بالإنكار وأنهم حاشا أن يؤمنوا كما آمن أصحاب النبي بنبوته. . . فهؤلاء الأصحاب لضعف عقولهم وخفة حلومهم صدقوا وآمنوا ونحن لسنا منهم ولن نؤمن كما آمنوا. . .

ويردُّ الله عليهم مؤكداً أنهم ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾.

إن هؤلاء المنافقين هم السفهاء حقيقة وهم السفهاء فحسب لأن الأدلة على نبوة محمد واضحة ظاهرة والبراهين جلية فمن ينكرها فهو السفيه غير الرشيد. . . إن المعجزات والبيّنات تأخذ بأعناق الناس إلى الإيمان وتشدهم ليكونوا في صفوف المؤمنين، فمن لا يتبع ذلك أو لا يعتقد به فهو السفيه.

إنها سمة أهل النفاق - سفهاء في رفضهم للإيمان وإصرارهم على النفاق.

﴿وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾ بحالهم وبجهلهم. . .

فائدتان

١ - إن الهمزة في قوله تعالى: ﴿أَنُؤْمِنُ﴾ للإنكار أي أننا لن نؤمن كما تقولون.

٢ - في هذه الآية ذكر الله في ذيلها ﴿وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾ بينما في الذي تقدمها ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ وذلك لأن الإيمان يحتاج إلى أدلة وبراهين وهو يحتاج إلى عقل ودراية، بينما الفساد يظهر للعيان ولكل إنسان ولا يحتاج إلى برهان فلهذا كان الاختلاف بين التعبيرين.

وأيضاً لأن السفه هو خفة العقل فناسبه ذكر العلم فيكون أشد انطباقاً عليه من الآخر. . .

قال تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ﴿١٤﴾﴾.

التفسير

هذه صورة قاتمة في عمل المنافقين.. إنها حركة ذات اتجاهين تتغيّر بحسب المجالس والوجوه ومن يلتقون بهم.. صورة تحكي عن ممارسة سيّئة يستحقون من خلالها الاستخفاف والاستهزاء بل الاحتقار والازدراء..

﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا﴾ إنها صورتهم التي تحكي لقاءهم مع المؤمنين... مجرّد اللقاء مع المؤمنين يستدعي من هؤلاء المنافقين أن يقدّموا اعترافاً صريحاً ويعلنوا عن إيمانهم وعقيدتهم لكي يثبتوا أنهم منهم ومعهم.

ولكن الصورة تتغيّر والموقف يتبدّل، بل تعود الأمور إلى حقيقتها إلى الكفر والشرك، ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾ إذا انفردوا إلى رؤساء الشرك والنفاق أعلنوا عن هويتهم وأنهم معهم في عقيدتهم وفي فكرهم وأنهم لم ينفصلوا عنهم إلا بأجسادهم وبعض مواقفهم... إنهم معهم في الهدف وإن اختلف الأسلوب والطريق... إنهم معهم في الكيد للإسلام والمسلمين وإن تغيّرت طريقتهم في هذا الكيد...

إنّ المنافقين يقولون للكافرين إذا اختلوْا بهم: إننا معكم روحاً وقلباً وعاطفة، وما إظهار الإيمان أمام المؤمنين إلا سخرية واستهزاء بهم...

قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ۝١٥﴾

❁ ❁ ❁

التفسير

من دون عطف، وباستقلالية كاملة يبتدىء الرد على المنافقين...

هو سبحانه الذي يتولى الدفاع عن المؤمنين اهتماماً بهم واعتناءً بشأنهم، وأيضاً لإظهار أهمية المواجهة مع هؤلاء المنافقين حتى يُمحوا من الوجود عندما يتولى الله أمر مواجهتهم.

وكيف واجههم وكيف ردّ عليهم؟!... إنها المقابلة العادلة التي تتناسب مع الفعل...

﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ ليس الاستهزاء المعهود من المنافقين الذي مارسوه مع المؤمنين وحكوْه لشياطينهم من الرؤساء. وليس هو من طبيعة الاستهزاء المعروف بالممارسة عند الناس لأنه سبحانه منزّه عن ذلك؛ وإنما هو استهزاء من نوع آخر وإن أخرج بصيغة الاستهزاء للمشاكلة والمجانسة بين الفعل وجوابه على طريقة ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ..﴾، والمقابلة، في الحقيقة لا تكون اعتداءً ولكن للمشاكلة استحسن إخراجها بصورة المقابلة؛ وذلك أروع صور الفصاحة والبلاغة في الكلام..

وعلى كل حال فالله سبحانه هو الذي يتولى الاستهزاء بالمنافقين على معنى أنه سبحانه يجزيهم على استهزائهم عقاباً قاسياً تسميته للشيء باسم جزائه.

أو لأن هؤلاء المنافقين باعتبار عدم تأثيرهم الإضرار بالمؤمنين وجماعة المسلمين لانكشاف أمرهم للنبي ﷺ ومن معه، فكان استهزاؤهم راجع إليهم وضرره عليهم.

﴿وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ أي يتخلى عنهم ويتركهم وشأنهم نتيجة إصرارهم على النفاق فتمتنع الآيات عن التأثير فيهم لعدم قابلية النفوس عن التأثير، فإن وجود المقتضي من شروط التأثير كما أن رفع الموانع أيضاً من ذلك، والمنافقون لإصرارهم على نفاقهم وسيرهم في طرق الفساد والانحراف انغلقت نفوسهم، فهم فقدوا البصيرة والرشد وراحوا في تيه وعمى لا يفيئون لحق ولا يرجعون إلى هدى.. إنهم مقيمون على الضلال يتحركون فيه ولا يعرفون فسادهم أو انحرافهم..

إنه سبحانه يعطيهم الأموال والأولاد وفي نفس الوقت يقرع بآياته أسماعهم، ولكنهم لشقاوتهم يظنون أنه سبحانه يكرمهم فتبقى طبائعهم معاندة للحق، مصرّة على مواقفها الباطلة، صادّة عن الهدى مسترسلة في الضلال..

قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ ١٦﴾.

۞ ۞ ۞

التفسير

أشار (عز وجل) بـ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إلى المنافقين الذين تقدّم ذكرهم وبعض خصوصياتهم ومواصفاتهم...

إنهم قوم استبدلوا الهدى المتمثّل بالإيمان والإسلام وأحكام الدين والشريعة، بالضلالة المتمثلة بالكفر والانحراف وعدم الالتزام بشيء من أحكام الله وتشريعه.. إنهم قادرون على الهدى والإيمان وتحت متناول أيديهم الخير والرشاد.. لقد وصلت إليهم الحجج وظهرت البيّنات وكلّها تدعوهم للأخذ بها واعتناقها والاستسلام لها، ولكنهم لشقاوتهم تركوها وأصرّوا على مواقفهم من الكفر والبعد عن الله...

إنهم في خسارة فادحة في تلك التجارة وذلك الاختيار، وأي ربح يجنيه منافق مهدّد في كل لحظة أن ينكشف أمره وتظهر حقيقته؟.. أي ربح يحصل عليه منافق وهو يعيش الخوف والفزع ويحسب كل إشارة تشير إليه وكل صيحة يحسبها عليه؟!.. إنها حياة قلقة مضطربة في الدنيا وأما في الآخرة فهو العذاب الأليم...

إنهم على غير هدى في اختيارهم... إنهم في ضلال... وأي هدى ذلك الذي يخسر فيه الإنسان سعادة الدارين وخير النشأتين...؟!

فائدتان

١ ـ إن قيل: كيف اشتروا الضلالة بالهدى وما كانوا على هدى؟

قالوا في الجواب: باعتبار تمكنهم من الهدى فكأنه في أيديهم، فإذا تركوه إلى الضلالة فقد استبدلوها به. وقيل: بل لأنهم ولدوا على الفطرة كما في الخبر، فتركوا ذلك إلى الكفر فكأنهم استبدلوه به...

٢ ـ أسند الربح إلى التجارة مجازاً وهذا معهود في مجازات العرب وكلامهم وهو من البلاغة بمكان، فقالوا: ربح بيعك وخسرت صفقتك.

قال تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾﴾.

❁ ❁ ❁

التفسير

هذا أحد مثلين ضربهما الله للمنافقين، والمثل الآخر يأتي بعد هذا.

شبّه الله المنافقين بالذي يطلب إيقاد نار في ليلة مظلمة مدلهمّة فيبحث ويتعب حتى يحصل على ذلك، فلما شعّت النار وأضاءت ما حوله بحيث انكشفت لعينيه الأمور واطمأن في تلك الظلمة، وإذ بالنار تخمد والنور يُطفأ وتعود الظلمة شديدة، فيعيش هذا الإنسان خلالها أجواء الخوف والفزع الناتج عن عدم الرؤية لشدّة الظلام...

إنها حالة صعبة جدّاً على المستوى النفسي على من يجدّ ويجتهد في أن يخرج من ظلمات الليالي فيروح يبحث عن نار يستضيء بها ويطمئن إلى نورها، حيث تنكشف إليه الأمور وتأنس نفسه عند رؤية واقعه في خير وأمان. مثل هذا، لو جاءت يدٌ فأخمدت النار وأطفأت الأنوار لعاش حيرة صعبة قاسية يتحيّر فيها ويضل ويبقى في حسرة نفسية متعبة وصدمة قاسية من جرّاء ما وقع فيه... إنه يبقى في حيرة لا يبصر منها طريقاً ولا موضع قدم يطمئن إليه... والمنافق هكذا حاله ومآله: إن الكلمة التي قالها ونطق بها من توحيد الله والإيمان برسوله ما هي

إلا نار أضاءت ما حوله من حيث حفظت عليه نفسه وماله وعرضه، ولكن بمجرد أن يموت فتنطفىء هذه الجذوة ويأتي الله على نفسه فيأخذها إليه فإنه سيعود إلى ظلمة النفاق ومستلزمات ذلك من الدخول في النار والعذاب الشديد من الله العزيز الجبار . . .

فوائـــد

١ ـ قالوا في وجه التشبيه في هذا المثل عدّة وجوه أنهاها بعضهم إلى ثمانية.

منها؛ عن السدي: أن أناساً دخلوا في الإسلام عند وصول النبي ﷺ إلى المدينة، ثم إنهم نافقوا، فبإيمانهم أولاً اكتسبوا نوراً ثم بنفاقهم ثانياً أبطلوا ذلك النور، ووقعوا في حيرة فليسوا هم من أهل الإيمان واقعاً كما أنهم ليسوا من أهل الكفر علناً . .

ومنها؛ قول من قال: إنها نزلت في اليهود الذين كانوا ينتظرون ظهور النبي ﷺ فلما ظهر كفروا به، فكان انتظارهم كإيقاد النار وكفرهم به بعد ظهوره كإطفاء لها . . .

٢ ـ وصف سبحانه المنافقين بعشرة صفات قبيحة تعيش فيهم؛ وهي: الكذب، الخداع، المكر، السفه، الاستهزاء، الإفساد في الأرض، الجهل، الضلال، التذبذب والسخرية بالمؤمنين.

٣ ـ إنه سبحانه وحّد النور وجمع الظلمات لأن الحق واحد وطرق الضلال كثيرة.

قال تعالى: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾﴾.

التفسير

لقد وصفهم الله سبحانه بالصمّ والبكم والعمي - وإن كانوا يملكون آلات السمع والنطق والبصر - لأنهم لم يستفيدوا من هذه الحواس ولم ينتفعوا بها... إنهم عطّلوا دورها وشلّوا حركتها ومنعوا تأثيرها؛ فمن سمع ولم يميّز لم ينتفع بما سمعه بشيء، وكذلك من له لسان ينطق به، ولكنه لم يستعمله في نصرة حق أو دفع باطل فإنه يتحوّل إلى العدم وكأنه لم يكن إذ لم ينتفع به، وكذلك من أبصر ولم يعتبر فبصره بحكم العدم؛ إنها حواس سالمة تحوّلت بفعل النفاق إلى حواس معطّلة بحيث لم تستجب للمقتضيات المطلوبة منها.

ثم عقّب سبحانه ذلك بقوله تعالى ﴿فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ وهنا ذهب بعضهم أن المراد: ﴿فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ عن نفاقهم، وبعضهم قال: أنهم لا يرجعون إلى الهدى بعد أن باعوه ولا عن الضلالة بعد أن اشتروها، وقال ثالث: لا يرجعون إلى الحق، وهذا الأخير أشمل وأعم.

قال تعالى: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ
ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ
أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ
عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾﴾.

التفسير

هذا هو المثل الثاني الذي يضربه الله ويشبّه المنافقين به.

إنه المطر الشديد النازل من السماء والذي يغشاه ظلمات، ففي الليل هطوله كما في ظلام الغيوم سقوطه وفيه رعد قاصف وبرق لامع. إنها صورة مخيفة يدركها من يمرّ بجزء منها، ثم لا يكتفي سبحانه بذلك، بل هناك صواعق شديدة يرتبك الإنسان ويختلّ توازنه فيحمله ذلك على وضع أصابعه في آذانه يريد أن يدفع المحذور من الموت عن نفسه. إنه الله الذي بيده الأمور وهو القادر على أخذ هذا الإنسان...

إن هذه الحالة التي يعيشها هذا الفرد تهدّد حياته في كل لحظة، فالبرق كلما أضاء لهم ولمعت أنواره تحركوا ومشوا يريدون الوصول إلى أهدافهم، ولكن لم يلبث أن يخمد وتنطفيء أنواره، وهنا يقفون في أماكنهم ويثبتون في مواقعهم، لا يقدرون على الحركة لفقدان الرؤية وعدم الاطمئنان إلى سلامة التحرك...

إنها حالة صعبة يملك الله فيها القرار ومشيئته هي النافذة، ولو شاء في هذه اللحظات أن يأخذ أسماعهم وأبصارهم لفعل، ولكن يؤخّرهم إلى أجل مسمى، وهو القادر على كل شيء ولا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء...

إنها حالة صعبة وموقف حرج يُفقِد الإنسان توازنه وسكينته فيروح كالأطفال الصغار الذين يمتنعون عن سماع الكلام فيعبّرون عن ذلك بوضع ﴿أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِم﴾ ناسين ومتناسين أنهم بعين الله القادر على أخذهم واستئصال شأفتهم ولضعف تفكيرهم وطفولية عقولهم، كلما أضاء لهم البرق الطريق مشوا فيه وإذا أظلم عليهم توقفوا وتحيروا واضطربوا... إنها صورة فيها الضعف البشري والحيرة والقلق والخوف والفزع والهلع... صورة هذا المنافق الذي لم يستقر الإيمان في قلبه فهو يعيش الاضطراب وعدم الاستقرار باستمرار...

ووجه الشبه بين المنافق وهذا المثل: أن الإسلام كالمطر في المنفعة والخير وإنعاش العباد والبلاد، ولكن لقيام قوى الشر فلا يخلو طريقه من صعوبات يخلقها الأعداء في وجهه وتتمثل بالحروب والقتل وإن كان أيضاً فيه بروق من انتصارات وظفر، فهؤلاء المنافقين إذا سمعوا صواعق الحرب ارتجفوا وخافوا ووضعوا أصابعهم في آذانهم حذر الموت أن يطالهم ويجتث جذورهم غافلين عن قدرة الله عليهم وسلطانه على أخذهم، وأما إذا لاحت الانتصارات للإسلام ارتاحوا إلى الغنائم وأعلنوا للمسلمين مواقفهم ﴿أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾، ولكن إذا أصاب المسلمين شدّة أو نكسة توقفوا وتمسكوا بنفاقهم غافلين أن الله على كل شيء قدير، ولو شاء لمنع عنهم أخبار الانتصارات وكذلك النكسات...

«وبالجملة فحال المنافق مع الإسلام حال[1] من أخذته السماء في الليلة الظلماء مع رعد وبرق وخوف من الصواعق».

(١) هذا الأخير للزمخشري في كشافه.

فوائد

١ـ قالوا إنّ ﴿أو﴾ موضوعة للشك، فعندما تقول جاء زيد أو عمر، فـ﴿أو﴾ للشك، فقوله تعالى ﴿كَصَيِّبٍ﴾ هل هو في شك بين المثل الأول والمثل الثاني؟

والجواب: إنّ ﴿أو﴾ وإن كانت في أصلها للتساوي بين شيئين فصاعداً في الشك، ولكن اتّسع الأمر فيها فاستعيرت للتساوي في غير الشك، وذلك كما في قولك: جالس الحسن أو ابن سيرين، تريد أنهما يتساويان في المجالسة. . .

٢ ـ قالوا: إن ما يوضع في الأذن رأس الإصبع، فلماذا لم يعبّر يضعون أناملهم بدل أيديهم؟

وأجابوا عنه: إن هذا من باب الاتساع في اللغة على حدّ قوله تعالى ﴿فَاقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا﴾ المراد بها أصول الأشاجع دون اليد جميعها، فهو من باب إطلاق الكل وإرادة البعض، إذ الكل هنا ممتنع. . .

٣ ـ ضرب الله الأمثال لتقريب المعنى إلى الأذهان وهذا من أبدع أساليب التعبير، حيث تبرز المعاني الخفية في الصور الجلية وتتجسد الصور في مشاهدات حية تمرّ على الإنسان ويعيشها في واقعه كما تمرّ أمام ناظريه فيدخل المعنى إلى القلب بيسر وسهولة. . .

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾﴾.

❁ ❁ ❁

اللغة

العبادة: أصلها التذلّل والخضوع، وقصد بها الطاعة والتعبّد والتنسّك.

الخلق: أصله التقدير المستقيم ويستعمل في إبداع الشيء، من غير أصل ولا احتذاء، ويستعمل في إيجاد الشيء من الشيء. وكذلك يستعمل في الاستحالة والتقدير والكذب.

التفسير

بعد أن ذَكَر سبحانه المؤمنين والكافرين والمنافقين، عقّب ذلك بنداء يعمّ الجميع وينفعهم... نداء فيه الرحمة والعطف وفيه بيان الطريق الصحيح والسليم الذي من اتبعه استطاع أن يصل إلى شاطيء الأمان ويدخل غرف الجنان.

﴿ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ﴾ أطيعوه واعملوا بأمره وهذا يستدعي منكم معرفته والوقوف على صفاته وأفعاله.. توجّهوا إليه بالعبادة والطاعة فابحثوا عن أوامره فقوموا بها وفتشوا عن نواهيه فاجتنبوها...

﴿رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ﴾ ربكم الذي أوجدكم من العدم وأخرجكم إلى عالم الوجود وأفاض عليكم الخيرات والبركات وأعطاكم المنح والعطايا وأسبغ عليكم نعمه ابتداء من أصل الوجود إلى كل موجود. . .

إنه سبحانه الذي خلقكم فذكّرهم بأول نعمة وأعظمها. إنها عملية إخراج هذا الإنسان من زاوية العدم وإعطائه صورة الوجود.

﴿وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ من الآباء والأمهات، تذكيراً لهذا الإنسان أن نعم الله عليه كانت في أسلافه الذين حملوه إلى يومه هذا، فهو سبحانه الذي خلق أولئك وأوجدهم ومنهم كان هذا الإنسان الحاضر، فكانت عناية الله به قبل ولادته.

إنه الله الذي خلقكم وخلق آباءكم.

﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ هذه هي نتيجة هذه الدعوة. فالعبادة التي تقع تحت اختياركم عساها ولعلها توصلكم إلى مرحلة متقدمة من التقوى فتستشعرون خشية الله وتقومون بالمطلوب منكم أمراً بالفعل ونهياً بالترك.

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

❁ ❁ ❁

اللغة

﴿جَعَلَ﴾ لفظ عام في الأفعال، وهو أعم من صنع وفعل، ويجري مجرى صار وطفق، فلا يتعدّى نحو جعل زيد يقول.. ويجري مجرى أوجد فيتعدى إلى مفعول واحد، نحو قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾.

﴿ٱلْأَرْضَ﴾ معروفة وهو الجرم المقابل للسماء، وجمعه أرضون ولم تجيء مجموعة في القرآن.

الفراش جمعه فُرُش وهو المهاد والوطاء. ويقال للمفروش فَرْشٌ وفِراش وفرش، الثياب إذا بسطها.

﴿ٱلسَّمَآءِ﴾ في اللغة كل ما علاك فأظلك فهو سماء، ومنه قيل لسقف البيت: سماء.

﴿بِنَآءً﴾ البناء ما يبنى من قبة وبيت وغيرهما. وأصله وضع لبنة على أخرى حتى تثبت.

﴿ٱلْمَآءُ﴾ معروف وألفه منقلبة عن واو وهمزته بدل عن هاء كما يدل عليه جمعه وتصغيره، فيقال: مويه ومياه وأمواه.

﴿ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ جمع مفرده ثمرة ما يتطعّم من أعمال الشجر، حمل الشجر ويطلق الثمرة على الولد تشبهاً بثمرة الشجرة.

﴿أَندَادًا﴾ مفرده ندّ من ندّ ندوداً إذا نفر، والأنداد النظائر والأمثال.

التفسير

بعد أن دعا الله الناس إلى عبادته وذكّرهم بأصل وجودهم وأنهم من فيض عطائه وكرمه، عدّد لهم بعض نعمه العظيمة ليتفكروا فيها ويدرسوها، خصوصاً أنها نِعمَ قد يغفل المرء عنها وعن فوائدها لكثرة تقلّبه فيها وحركته عليها، وبالأخص ما كان منها قبل وجوده بحيث وجد فكان عليها ولم يشعر بفقدها ليعرف مدى الضرورة إليها.

﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾ فهذه الأرض التي تقلّنا نعمة عظمى من نعم الله. إنها فراش أي منبسطة ـ وهذا لا ينافي كرويتها فلضخامتها يقدر الإنسان أن يعيش عليها ـ وهي تظهر كذلك منبسطة، وما أعظم هذا الفراش وما أكثر منافعه. إنها الأرض التي تحمل هذا الإنسان فلا تؤذيه. إنها وسيلة جعلها الله من أجل سعادته، إنها تلائمه وتوافق مزاجه فليست صلبة ولا رخوة ولا حارة ولا باردة، وليست كلّها جبال كما أنها ليست كلّها سهول... إنها محكمة الصنع والتقدير كما أراد الله أن تكون، فقد كانت لصالح هذا الإنسان ومنافعه.

﴿ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا﴾ ما أحسن هذا التعبير وأكثر إيحاءاته، تستطيع أن تستوحي منه الراحة والاستقرار والهدوء والسكينة وكل ما يوفر لهذا الإنسان من الطمأنينة والهناء...

﴿وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾ السماء المرفوعة التي نراها ونرى زرقتها وجمالها... إنها كالقبّة المضروبة فوق هذه الأرض، فيها الشمس والقمر والكواكب وكلّها محفوظة ضمن قوانين إلٰهية وضعها الله ورتّب أمرها...

﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾ وهاتان نعمتان تتولد إحداهما من الأخرى وتترتّب عليها ضمن قوانين الأسباب والمسببات؛ فالله سبحانه هو الذي أنزل من السماء ـ من ناحيتها ـ باعتبار هبوطه منها وأنزل سبحانه ماء فخرجت به الثمرات المختلفة الألوان والمذاق والأشكال. . . إنها أرزاق العباد جعلها الله عن هذا الطريق، فالماء يهطل من السماء على الأرض وما فيها من أشجار وزرع فتتحرك هذه بالعطاء وتخرج ثمراتها من فواكه وخضار وحبوب. . . أيّ رزق يا رب قد تكفّلت به لعبادك؟. . . لقد أعطيتهم وجودهم وأسبغت عليهم من نعمك كل موجود. . .

إن العبد العاقل عندما يقف أمام هذه الحقيقة ويفكّر في هذه العملية المباركة التي أحكم الله صنعها وعرف أنها كلها من أجله ومن أجل سعادته، حقّ لهذا العبد أن يؤدّي شكر هذه النعمة طاعة والتزاماً بعد اعترافه بخالقها ومكوّنها وصانعها ومبدعها، ولهذا توجّه النهي بقوله تعالى:

﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي: نزّهوا الله عن النظائر والأشباه ولا تجعلوا له أمثالاً من الأوثان والأصنام وممن خلق وذرأ، فإنكم تعلمون أن كل من دون الله لا يخلق ما خلق سبحانه ولا يُوجد ما أوجد. . . إن ما عدا الله يحكمه الإمكان، والإمكان فقر وضعف وحاجة تحتاج في وجودها إليه، بل في استمرار وجودها تحتاج إليه، فكيف تكون مثله أو نظيره أو تكون شبيهة له؟! أو متى تصح المقارنة بين واجب الوجود وبين ممكن الوجود؟!

إنكم تعلمون أن الله بيده كل شيء وهو الخالق الرازق إنه على كل شيء قدير، فإذا كنتم تعلمون ذلك وتردّون الأمر إليه يجب أن تنزّهوه عن الشبيه والمماثل، إذاً ليس ﴿كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ ﴿وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا﴾.

قال تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَٱتَّقُوا ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾.

❁ ❁ ❁

اللغة

﴿رَيْبٍ﴾ مصدر رابه، وهو الشك وحالة القلق النفسي وعدم الاطمئنان لأمر ما.

﴿عَبْدِنَا﴾ هو النبي محمد ﷺ، والعبد من التعبد وهو التذلل، سُمِّي العبد بذلك لتذلله لمولاه.

﴿فَأْتُوا﴾ من أتى، والإتيان مجيء بسهولة. والإتيان يقال للمجيء بالذات وبالأمر والتدبير، ويقال في الخير وفي الشر وفي الأعيان والإعراض.

﴿سُورَةٍ﴾ إذا كانت غير مهموزة فهي مأخوذة من سور البناء وهو حائطه، وكل منزلة رفيعة فهي سورة، فكل سورة من القرآن بمنزلة درجة رفيعة، وإن كانت مهموزة فهي من السؤر وهو بقية الماء بعد الشرب.

﴿مِّثْلِهِۦ﴾ المثل: الشبه، والمتماثلان هما المتشابهان.

﴿ٱدْعُوا﴾ الدعاء كالنداء وقد يستعمل كل منهما موضع الآخر، ويستعمل كلمة

الدعاء استعمال للتسمية نحو: دعوت ابني زيداً؛ أي: سميته، ودعوته، إذا سألته وإذا استغثته.

﴿ٱلشُّهَدَآءِ﴾ مفرده: شهيد، مثل: خطيب وخطباء، بمعنى الحاضر والمُشاهد، أو القائم بالشهادة وهو الشاهد على الشيء لغيره بما يحقق دعواه.

﴿دُونِ﴾ أدنى مكان من الشيء ومنه الشيء الدون أي الدني الحقير ودونك هذا أصله خذه من دونك أي من أدنى مكان منك واستعير للتفاوت في الرتب والأحوال.

﴿ٱلصِّدْقِ﴾ ضد الكذب وهو مطابقة الخبر للواقع.

﴿تَفْعَلُواْ﴾ الفعل جمعه أفعال وفِعال وجمع الجمع أفاعيل وهو العمل.

﴿ٱتَّقُواْ﴾ من وقى، والوقاية: حفظ الشيء مما يؤذيه ويضره، والتقوى: جعل النفس في وقاية مما يخاف، والتقوى في تعارف الشرع حفظ عما يؤثم.

﴿ٱلْوَقُودِ﴾ بالفتح: الحطب، وبالضم: التوقد. والموقِد موضعها ومكانها.

﴿أُعِدَّتْ﴾ هُيِّئت.

التفسير

بعد أن دعاهم الله إلى عبادته ودلّهم على معرفته، أراد أن يبيّن لهم الطريق الموصل إليه، ولذا عقّبه بما يثبت به نبوة نبيه محمد ﷺ باعتباره الدليل على الله والموصل إلى رحاب رضاه.

باعتبار أن الطريق إلى الله ومعرفة مرامه لا يمكن أن يكون بما يرتئيه البشر ويتصورونه بعقولهم القاصرة، لذا استدعى ذلك من الله أن يرسل سفراء من قبله يختارهم ويوكل إليهم نقل مراده إلى الناس، ولمّا كان كل واحد يمكن أن يدّعي ذلك ويكذب على الله وعلى الناس في هذا المقام، إحتاج كل من يدّعي النبوة

إلى معجزة تثبت ذلك وتدلّل على صدقه فيما يدّعيه ويذهب إليه، ومن هنا يخاطب الله أهل مكة وكل الكفّار بل وجميع الناس؛ يخاطبهم يوم بعث الله محمداً رسولاً، ويخاطبهم الآن وسيبقى خطابه هذا يقرع آذان البشر معلناً عن هذا التحدي لهم.

﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ أي: إن كنتم في شك مما نزّلنا من القرآن الكريم الذي تُبتتْ به نبوة محمد ﷺ.

﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ﴾ التحدي بسورة واحدة سواء كانت السورة كبيرة أم صغيرة إنه التحدي بما هم أربابه ورؤساؤه والخبراء فيه. إنهم العرب الذين كانوا يتباهون بالشعر والنثر ويعقدون الأسواق في كل عام، يتبارون فيما بينهم ثم ينتخبون أجود إنتاجهم فيجعلونه معلّقاً في الكعبة الشريفة.

هؤلاء العرب يتحداهم الله إن كانوا في شك من هذا القرآن، وأنه من عند غير الله، فليأتوا بسورة واحدة تشبه ما يقرأه عليهم النبي ﷺ.

إن هذه الدعوة لا تزال قائمة إلى يومنا هذا وستبقى قائمة أمام كل من يشك في صدق هذا القرآن وأنه من عند غير الله.

ثم نكاية في التحدي وزيادة في الاستفزاز لا يوجه الخطاب للأفراد بل يدعوهم بصيغة جماعية. ﴿وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾، استعينوا بكل أنصاركم وأعوانكم ومن هم معكم وعلى خطكم المعارض، سواء كانوا بشراً أم آلهة تدّعونها، استعينوا بالإنس والجن وأهل الخبرة عندكم. استعينوا بكل ذلك ـ غير الله ـ وأتوا ولو بإتيانكم بسورة واحدة تشبه سورة من سور القرآن إن كنتم صادقين في دعواكم أن هذا القرآن ليس من عند الله وليس وحياً إلهياً أنزله الله على قلب محمد ﷺ.

﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (٢٤)﴾.

إنها النتيجة التي تترتب على العجز، المنطق السليم يستدعي من العقلاء إذا

عجزوا أمام هذا التحدي ولم يقدروا على أن يأتوا بسورة واحدة لها خصائص سورة من القرآن وإعجازها أن يذعنوا ويعترفوا ويقرّوا أنه من عند الله . . .

وزيادة في إغرائهم وقطعاً لأمنياتهم قال تعالى ﴿وَلَن تَفْعَلُوا﴾ بصيغة القطع والجزم، إنهم عاجزون عن مجارات القرآن ولن يقدروا على ذلك في وقتهم وفي مستقبل أيامهم . . . العجز عن مجارات القرآن قضية ملازمة لهم، ومهما حاولوا سيفشلون وستكون كل تجاربهم في هذا المضمار خاسرة . . .

وإذا لم يقدروا على ذلك فيجب أن يعرفوا أنه من عند الله، وهذا يستدعي منهم أن يؤمنوا بالله وبرسوله ويخافوا، عذابه وما أعده للكافرين والعصاة.

﴿فَاتَّقُوا النَّارَ﴾ أي: احترزوا منها أن تنالكم بعذابها وألمها، لأنّ من قامت عنده البيّنات والحجج على صدق نبوة محمد ثم أعرض عنها، أخذته النار ومسّه عذابها.

وأي نار هي؟ إنها النار ﴿الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ فلشدّتها وقوّة حرارتها تتحوّل الأحجار والناس مادة لاشتعالها . . . إن حطب جهنم الذي يوقد فيها هم الكفار والحجارة، وحق لكل عاقل أن يفرّ من هذا المصير ويهرب من هذه النهاية التعيسة . . .

إن هذه النار وبهذه الخصوصيات هُيِّئت للكافرين الجاحدين الذين رفضوا الحق والإيمان به فكانت لهم جزاءاً وفاقاً . . .

فوائد

١ ـ وصف سبحانه رسوله بقوله ﴿عَبْدِنَا﴾ إشارة إلى أن العبودية أرفع المقامات المقربة من الله، وهذا كما في قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا﴾ وقد وصف الله أنبياءه بهذا الوصف: ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ﴾ ﴿فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ﴾ ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا﴾ ﴿وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ وهكذا . . .

٢ ـ قال الرازي في تفسيره الكبير: قوله ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ﴾ يدل على أن القرآن وما هو عليه من كونه سوراً هو على حدّ ما أنزله الله تعالى، بخلاف قول كثير من أهل الحديث أنه نظم على هذا الترتيب في أيام عثمان، فلذلك صحّ التحدي مرّة بسورة ومرّة بكل القرآن.

٣ ـ لا يخفى أن التحدي القرآني كان بالقرآن كله في قوله تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴿٨٨﴾﴾ ثم ورد التحدي بعشر سور من مثله كما في قوله تعالى: ﴿فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ﴾ ثم التحدي ولو بسورة واحدة كما في مقامنا هنا﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ﴾.

٤ ـ ينبغي للعاقل أن يدرك أنه لو كان العرب يملكون القدرة على معارضة القرآن لعارضوه وأسقطوه بأيسر الطرق وأسهلها، وما احتاجوا إلى انتضاء السيوف والقتال وإراقة الدماء ولكن لعجزهم عن مجاراته عمدوا إلى القوة وشن الحروب.

قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُوا۟ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥﴾﴾.

اللغة

﴿وَبَشِّرِ﴾ يقال: أبشرْتُ الرجل وبشرتُه وبشَرْتُه؛ أخبرته بسارٍ بسط بشرة وجهه، وذلك أن النفس إذا سُرّت انتشر الدم فيها انتشار الماء في الشجر، والغالب أن يستعمل في السرور مقيداً بالخير المبشّر به وغير مقيد أيضاً، ولا يستعمل في الغم والشر إلا مقيداً منصوصاً على الشر المبشر به، والبُشرى ما يعطاه المبشّر، وتباشير الوجه وبشره ما يبدو من سروره، وتباشير الصبح ما يبدو من أوائله.

﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ جمع صالحة وهي: مؤنث الصالح، اسم فاعل من صلح صلوحاً وصلاحاً خلاف فسد، وقوبل في القرآن تارة بالفساد وأخرى بالسيئة.

﴿ٱلْجَنَّٰتُ﴾ مفردها جنّة مصدر جنّه إذا ستره، والجنّة كل بستان ذي شجر يستر بأوراقه الأرضَ، نقلت إلى دار الثواب تشبيهاً لها بالجنة في الأرض وإن كان بينهما بون وإمّا لستره نعمها عنا بحيث لا نعلم ولا نتصور مقداره.

﴿تَجْرِى﴾ من جرى يجري جريةً وجَرْياً وجرياناً: المرّ السريع. وأصله كمرّ الماء ولما يجري بجريه.

﴿ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾ جمع نهر بفتح الهاء وسكونها، وهو مجرى الماء الفائض وهو فوق الجدول ودون البحر.

﴿ٱلرِّزْقِ﴾ يقال للعطاء الجاري تارة دنيوياً كان أم أخروياً وللنصيب تارة ولما يصل إلى الجوف ويتغذى به تارة.

﴿ثَمَرَةٍ﴾ جمعها الثمرات ما يتطعَّم من أعمال الشجر، حمل الشجر.

﴿وَأُتُوا۟ بِهِۦ﴾ فُعِلوا أي: جيئوا به.

﴿مُتَشَـٰبِهًا﴾ المتماثل، الذي يشبه بعضه بعضاً.

﴿أَزْوَٰجٌ﴾ جمع زوج ويقال للرجل والمرأة فيقال هذه المرأة زوج الرجل وهذا الرجل زوج المرأة، وحكي أنه لا تقول العرب زوجة كما حُكي الجواز.

﴿مُّطَهَّرَةٌ﴾ من الطهارة وهي النزاهة والنظافة من كل ما يشين سواء كان في الأجسام أو الأفعال أو الأخلاق...

﴿خَـٰلِدُونَ﴾ الدائمون الباقون.

التفسير

ذكر سبحانه فيما تقدم، الكافرين وخوّفهم بذلك العذاب الأليم، وهنا ذكر المؤمنين المطيعين ورغّبهم بما أعطاهم من الثواب الجزيل، وهذه طريقة عقلانية يسلكها أرباب العقل والسياسة فإن بعض الناس يخافون العذاب وبعضهم الآخر يرغبون في الملذات، فوجب أن يقدّم كلا الأمرين من أجل الوصول بهذا الإنسان إلى طريق الله وهداه...

وفي هذا المقام يأمر الله نبيه أن يزُف البشرى إلى الذين آمنوا وعملوا الصالحات... الذين اعتقدوا بالله وبرسوله وبما جاء به الأنبياء من كتب ودعوات ثم عملوا بمقتضى هذه الأوامر وانتهوا عما نهوا عنه.. إنهم أصحاب الإيمان

والعمل الصالح... في نفوسهم العقيدة الصحيحة السليمة وفي أعمالهم حركات الخير والصلاح وما فيه نفع هذا الإنسان ومصالحه...

وإذا كانت البشارة تعني أن يزفّ المبشّر الفرحة والسرور والابتهاج، فإن أحق من يُبشر هم أصحاب الإيمان والعمل الصالح الذين طابت نفوسهم وقلوبهم وصلحت أفعالهم وأعمالهم، وما هي هذه البشرى؟ وما قيمتها ونوعها وصفاتها؟ إنها بشرى ثمينة غالية يقصر عنها كل ما يتصوره هذا الإنسان أو يحلم به ويتمناه...

﴿أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ ما أعظمه من مقام كريم... أي مسكن هذا يقيم فيه على الدوام المؤمن صاحب العمل الصالح..؟ إننا نرى جنائن الدنيا ونسمع بها ولكن جنات الآخرة تفوقها وتمتاز عنها... إنها جنات تلتف فيها الأشجار وتجري من تحتها الأنهار... إنه منظر جذّاب تهفو إليه النفوس وترغب فيه الروح...

﴿كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا۟ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا﴾.

كلما أنعم الله عليهم من ثمرة حيث تُقدّم إليهم ليتنعموا بها ويأكلوها تذهب بهم المذاهب ويقولون إنه مثل الذي تناولناه في دار الدنيا أو في المرة المتقدمة... لقد جيء لهم به متشابهاً في اللون والشكل وإن اختلف معه في الطعم، لأنهم ألِفُوا ذلك وانسجمت طبيعتهم معه ومن ألِفَ شيئاً حنّ إليه ورغب فيه...

وأيضاً من خصوصيات هذه الجنّة أن الله جعل للذين آمنوا وعملوا الصالحات فيها أزواجاً ـ نساءاً ـ مطهّرات.. طهّرهُن الله من كل دنس أو عيب سواء كان خُلقاً أو خَلقاً.. فهن حوريات تقصر عنهن ملكات الجمال بدرجات وهن في المرتبة العليا من الآداب والأخلاق والسلوك...

هذه البشرى بل منها وجزؤها الأخير ﴿وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾، إنهم يبقون في الجنة ونعيمها دائماً، كتب الله لهم فيها الخلود فلا يطرأ عليهم فناء أو زوال، وهذه النعمة هي أغلى ما يطلبه هذا الإنسان إنه الخلود الذي يعني استمرارية البقاء والدوام والذي كان يتمناه الإنسان ويرغب فيه في الدنيا فقد تحقق في الآخرة، ولكنه خلود في الجنة ونعيمها لمن آمن وعمل صالحاً. . .

فائدتان

١ ـ هذه الآية تثبت أن الجنة مخلوقة الآن كما أن النار مخلوقة.

٢ ـ قالوا إن مجامع اللذات هي المسكن والمطعم والمنكح، هذه الثلاثة مذكورة في هذه الآية وموجودة في الجنة.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾.

اللغة

﴿يَسْتَحْيِۦٓ﴾ الحياء: تغيّر وانكسار يعتري الإنسان من خوف ما يعاب به ويذم، وضد الحياء الوقاحة، وقوله تعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ﴾ أي لا يترك ضرب الأمثال.

﴿يَضْرِبَ﴾ يبيّن، يصف، يمثّل، يجعل.

﴿ٱلْمَثَلُ﴾ الشبه.

﴿بَعُوضَةً﴾ جمعه البعوض، وهي الحشرة الطائرة المسماة البق وبُني لفظ البعوض من البعض وذلك لصغر جسمها بالإضافة إلى سائر الحيوانات.

﴿ٱلضَّلَٰلُ﴾ أصله الهلاك، وضلّ الماء في اللبن إذا استهلك وهو هنا ضد الهداية.

التفسير

فيما تقدّم ضرب الله مثلين للذين كفروا وهما في قوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾﴾ وفي قوله تعالى ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ وعندما سمعهما الكفار استنكروا ذلك ورفضوا قبولها بحجة أن الله أجلّ وأعلى من ضرب الأمثال، وابتدأوا في حملة مغرضة استهدفوا من خلالها التشكيك في الوحي والنبوة.

وهنا ردّ الله عليهم وسفّه ما ذهبوا إليه وأشار سبحانه إلى أنه لا يترك ضرب الأمثال لما لها من نفع وفائدة في تقريب المعنى إلى الذهن وتحويل المعقول إلى محسوس لكي يتأثر بها الإنسان ويتعظ...

ثم إن المثل مهما كان بأشياء حقيرة وصغيرة كالبعوضة وما دونها لا يمسّ عظمة الله وعلُو مكانه، لأن العبرة في قدرة الله المطلقة التي هي بالنسبة للصغير كنسبتها إلى الكبير، يتساوى عندها جميع الممكنات وتقع كلها تحت قدرته وهو الخالق والمدبّر لأمرها.

وهذه الأمثال بالبعوضة والعنكبوت والذباب وما دونها أو ما فوقها هي محل الاختبار للناس، حيث ينقسمون إلى قسمين تتفاوت مواقفهما منها وتختلف باختلاف عقيدتهم ورؤيتهم...

أما أصحاب الإيمان الذين يعيشون رؤية إيمانية وعقيدة إلٰهية ويعرفون الله بحقائق قلوبهم ينطلقون من هذه المعرفة. وهذا العلم... إنهم بكل ثقة واطمئنان يعلمون أنه الحق من ربهم.. إنهم يملكون الرؤية الواضحة للحكمة الإلهية عندما تُضرب الأمثال... يعلمون أن الله حكيم عليم خبير لا يضرب الأمثال إلا من أجل هدف عظيم... يعلمون أنه الحق لا يصدر منه إلا الحق... إن كل مثل يؤدي دوره في إحقاق الحق وإثباته وتقريب معناه إلى الذهن بشكل لا يمكن إنكاره أو التشكيك فيه...

وأما أهل الكفر فلضلالهم وانحرافهم وبعدهم عن الله . . ولعدم معرفتهم بالحقائق يطلقون كلماتهم الفارغة واتهاماتهم الباطلة ويقولون ماذا أراد الله بهذا مثلاً؟

إنهم في موقف المتعجب الذي لم يقف على حقيقة المثل وغاياته فيذهبون إلى الاستغراب والتحيّر والتردد، ولكن الله يردّ عليهم رداً سريعاً وحاسماً. . .

إنه سبحانه يبيّن أن المثل به يكون الاختبار. . به يُميِّز المطيع لله المؤمن به وبحكمته وصواب كلامه كما أن به يُميِّز العاصي لله الكافر به وبحكمته والمرتاب في صحة كلامه. . .

إنه مثَل بل أمثال سيهتدي بها كثير من الناس. . . سيؤمنون ويعلمون أن الله هو الحق فيفيئون إلى ظلاله ويرجعون إلى حكمه وأحكامه، كما أن هناك كثير من الناس سيضلون بها وسيكفرون بها وبمن جاء به. إنه لا يضلّ أو ينحرف بالأمثال إلا الفاسقون فهم لخروجهم عن حدود العقل والشّرع والدين ينحرفون ويضلّون ويأخذون بالتهم والافتراءات. . . إن فسقهم صادف مثلاً لم يتفهموا حقيقته ولم يحاولوا أن يقفوا منه على وجه صحيح فضلّوا وانحرفوا. . .

إن الأمثال كالماء متى وقع في الصدف أثمر الدُّر ومتى وقع في فم الأفاعي أثمر السم، والماء هو الماء، ولكن اختلف الوعاء، وكذلك الأمثال متى سمعها المؤمنون أذعنوا لها وآمنوا بها واعتقدوا بصحتها وعلموا أنها الحق من الله، بينما إذا سمعها الكفار شكّكوا فيها وأخذوا يتحدثون بنوع من التعجب والإنكار والاستهجان ويقولون ماذا أراد الله بهذا مثلاً ثم يضلُّون وينحرفون لأن نفوسهم فاسقة منحرفة خارجة عن حدود الإيمان والالتزام. . .

فوائد

١ ـ الاستحياء: من الحياء وهو انقباض النفس عن القبيح مخافة الذم، ولما كان هذا المعنى يستحيل في حق الله تعالى فلا بد وأن يؤوّل بما يتلاءم وذات الله.

والمناسب للحياء باعتبار نتيجته ومآله إنما هو الترك للفعل، فيعود معنى لا يستحي أي لا يترك أو لا يدع وما ورد من الأخبار بهذا المعنى كما في الحديث «إن الله يستحي من الشيخ الكبير» أي يترك عذابه ولا يؤاخذه بما فعل. . .

٢ ـ ما المراد بقوله ﴿فَمَا فَوْقَهَا﴾؟

ذهب بعضهم إلى تفسيرها بما هو أكبر منها جثة كالذباب والحمار والكلب.

وذهب آخرون إلى أن المراد ﴿فَمَا فَوْقَهَا﴾ أي في الصغر أي بما هو أصغر منها وهذا هو الأقرب وهو الذي ذهب إليه المحققون.

٣ ـ إن قوله ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا﴾ كثرة الضالين به وكثرة المهتدين إنما هو على وجه الحقيقة وليس على جهة المقابلة فإن المهتدين قلة بالنسبة إلى الضالين. . .

٤ ـ الفسق في الشرع هو: الخروج عن الالتزام الشرعي بارتكاب الذنوب الكبيرة والإصرار على الصغيرة كما يصدق على من خرج عن طاعة الله بكفر. . .

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٢٧﴾﴾.

اللغة

﴿يَنقُضُونَ﴾ من النقض ضد الإبرام، وهو إفساد ما أبرمته من بناء وحبل وعهد.

﴿ٱلْعَهْدُ﴾ العقد، حفظ الشيء ومراعاته حالاً بعد حال، وسمي الموثق الذي يلزم مراعاته عهداً...

﴿ٱلْمِيثَٰقَ﴾ العهد المؤكد باليمين، وهو أبلغ من العهد وجمعه المواثيق، والموثق هو الميثاق، والمواثقة هي المعاهدة.

﴿وَيَقْطَعُونَ﴾ القطع: الفصل بين الشيئين أحدهما عن الآخر والأصل أن يكون في الأجسام، ويستعمل في الإعراض يقال قطع الحبل والكلام.

﴿ٱلْأَمْرُ﴾ ضد النهي، وهو الطلب من العالي إلى من هو دونه.

﴿يُوصَلَ﴾ الوصل: الجمع بين الشيئين من غير حاجز.

﴿يُفْسِدُونَ﴾ من فسد الشيء فساداً وفسوداً وهو فاسد وفسيد ضد الصلاح، وحقيقته العدول عن الاستقامة إلى ضدها قال الراغب في مفرداته: الفساد خروج

الشيء عن الاعتدال، قليلاً كان الخروج عنه أو كثيراً، ويضاده الصلاح ويستعمل ذلك في النفس والبدن والأشياء الخارجة عن الاستقامة.

﴿ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ من الخسران، وهو النقصان مطلقاً قال الجوهري:

خسَرَت الشيء (بالفتح) وأخسرته أنقصته، والخسارة والخسار والخسرى: الضلال والهالك فقيل للهالك خاسر لأنه خسر نفسه وأهله..

التفسير

بيّن سبحانه صفات الفاسقين الذين انحرفوا عن منهج الله ومبادئه... إنها ثلاث صفات هن أمّ الرذائل وعنها يتفرّع ما عداها من بقية الرذائل.

١ - ﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ﴾ إنهم قوم أسّفوا حتى بلغوا مبلغاً نقضوا من خلاله ما كان بينهم وبين ربهم من عهود ومواثيق... فما أودعه الله في عمق تكوينهم من معرفته والإيمان به وبما جاء على ألسنة رسله من قِبله، كل هذا قد نقضوه وطمسوه ومحوه من صفحات قلوبهم ووجودهم...

إن لله أوامر ونواهي قد خالفها هؤلاء القوم ونقضوها بعدم العمل بها وعدم اتباعها أو السير بمقتضاها...

٢ - ﴿وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ ووصل كل شيء بحسبه وجمعه، أن كل ما أمر الله به أن يوصل، فهؤلاء قد قطعوه ولم يعملوا به، فالله قد أمر بصلة الرحم القريبة وقد قطعوها. والله أمر بالصلة الإنسانية بين الإنسان وأخيه الإنسان وهؤلاء قطعوها... والله قد أمر بالتصديق بجميع الأنبياء وهؤلاء قد قطعوا هذه الصلة فيما بينهم من حيث آمنوا ببعض وكفروا ببعض، وهكذا دواليك بحيث يشمل كل ما يقع تحت هذا اللفظ العام من قطيعة لا يرضاها الله...

٣ - ﴿وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ إنها صفة خسيسة تتحرك في الأرض في عملية مُعْثَرَة للجهود وتفتيت للاجتماع... إنهم يزرعون الفتن ويثيرون الشبهات

ويعملون بالمعاصي ويحيكون المؤامرات ويفكّكون عرى الوحدة والإلفة . . .

﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ هذه نتيجة طبيعية لتلك المقدمات الحركية العملية والصفات الرذيلة القبيحة. . . فمن كان يحمل تلك الصفات والمزايا واستبدل الضلالة بالهدى، والعذاب بالمغفرة، والباطل بالحق، فلا شك أنه الخاسر الذي خسر نفسه ووجوده بدخوله النار. . .

فوائد

اختلفوا في هذا العهد الذي نقضه الفاسقون على أقوال:

١ ـ قيل إنه العهد الذي أخذه الله على بني آدم حينما كانوا في عالم الذر استناداً إلى قوله تعالى ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾(١).

وضعّفوا هذا الوجه، لأن الله تعالى لا يجوز أن يحتج على عباده بعهد لا يذكرونه ولا يتذكرونه.

٢ ـ وقيل إن الآية نزلت في أهل الكتاب وأن الله أخذ عليهم العهد أن يبيّنوا للناس نبوة محمد ﷺ ويتّبعوا التوراة فنقضوا هذا العهد وكتموا ذلك واستدلوا لهذا القول بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾(٢).

وإذا صحّ النزول وصدق فلا يلغي عموم النص.

وهناك احتمالات أخرى في نقض العهد منها: إنها وصية الله في خلقه وما

---

(١) الأعراف/ ١٧٢.
(٢) آل عمران/ ٨١.

أمرهم به أو نهاهم عنه، فمن لم يقم بذلك فقد نقض العهد ومنها: أنه سبحانه نصب الأدلة على توحيده في الآفاق والأنفس فمن لم يفكر فيها ويدرك صانعها يكون قد قطع العهد بينه وبين الله. . . .

٣ ـ وكما اختلفوا في تفسير العهد اختلفوا في قوله ﴿وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ فما هو المأمور بوصله؟.

١ ـ قيل هي الرحم.

٢ ـ قيل أمروا أن يوصلوا العمل بالقول.

٣ ـ قيل أمروا أن يوصلوا التصديق بين جميع الأنبياء.

٤ ـ قالوا: إنها التكاليف الإلهية وقد أمروا بإقامتها وحفظها فإذا لم يقيموها فقد قطعوها، وهذا المعنى الأخير هو المعنى العام الذي يجمع الجميع، وأما غيره من الأقوال فهي جزئيات وصغريات تندرج تحته وتكون أفراداً ومصاديق له. . .

قال تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

التفسير

هذا استفهام يراد به التوبيخ وإلفات النظر إلى أعظم نعم الله على هذا الإنسان الكافر الذي انحرف عن الإيمان بالله مع وجود حقائق يمر فيها ويعيشها في نفسه وفي وجوده...

كيف يكفر هذا الإنسان ويجحد وجود الباري عزَّ اسمه، وهو يرى أنه لم يكن شيئاً؟! كان كمّاً مهملاً مجهولاً.. نطفة لا تملك الحياة ولا حق الوجود فأفاض الله عليها الحياة فخرجت بشراً سوّياً... لقد أضحت النطفة الميتة إنساناً حياً متحركاً يعالج قضايا الحياة وما في هذا الوجود من موجودات...

ثم بعد هذه الحياة التي دبّت في هذا الموات يعود الموت مجدداً ويقطع المسيرة من دار الدنيا.. يأتي الموت لينقض الحياة الدنيا وينقل هذا الإنسان إلى الدار الآخرة حيث يعود هذا الإنسان إلى الحياة ويقف أمام المحكمة العادلة... إنه يرجع إلى من يملك أمره وبيده زمامه.

﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ إن مصير هذا الإنسان إلى الله.. إلى الله يكون الرجوع حيث يجمع الخلق للحساب فيعطي المطيع ثوابه الذي يستحقه، جنات تجري من

تحتها الأنهار وحور عين وولدان وروح وريحان، ويعطي العاصي جزاءه جهنم وسلاسل وقيود وما أعدّه سبحانه من عذابات وشدائد وصعاب. . .

فوائد

هناك تفسيرات أخرى غير ما بيناه لقوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾.

١ ـ قال بعضهم: كنتم أمواتاً في القبور فأحياكم فيها ثم يميتكم ثم يحييكم يوم القيامة.

وهذا المعنى لم يرد في خبر وليس مما يفهمه المخاطب.

٢ ـ وقال قوم: كنتم أمواتاً يعني خاملي الذكر دارسي الأثر، فأحياكم بالظهور والذكر ثم يميتكم عندما تنقضي آجالكم ثم يحييكم للبعث.

وهذا وجه ملفّق بين الأمر المادي والآخر المعنوي وهو ظريف، ولكن لا ينسجم مع الفهم العرفي ولم يدلّ عليه دليل إلا هذا الاستحسان والظرافة. . .

٣ ـ وقال قوم: إن الله تعالى أحياهم حين أخذ الميثاق منهم وهم في صلب آدم وكساهم العقل ثم أماتهم ثم أحياهم وأخرجهم من بطون أمهاتهم، وقد ردّه شيخنا الطوسي شيخ الطائفة وكفانا ذلك بقوله:

«وقد بينا أن هذا الوجه ضعيف في نظائره لأن الخبر الوارد بذلك ضعيف. . .».

قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾.

❁ ❁ ❁

اللغة

﴿خَلَقَ﴾ الخلق أصله التقدير المستقيم ويستعمل في إبداع الشيء من غير أصل ولا احتذاء.

﴿جَمِيعًا﴾ ضم الشيء بتقريب بعضه من بعض ويقال للمجموع جمع وجميع وجماعة، وأما جميع وأجمع وأجمعون، يستعمل لتأكيد الاجتماع، وسُمّي يوم الجمعة بذلك لاجتماع الناس للصلاة.

﴿ٱسْتَوَىٰٓ﴾ الاستواء الاعتدال والاستقامة ضد الاعوجاج، وقوله ﴿فَسَوَّىٰهُنَّ﴾ أي عدل خلقهن وقوّمه وأخلاه من العوج والفطور.

التفسير

ذكر سبحانه في الآية المتقدمة أعظم النعم على هذا الإنسان وهي نعمة الوجود حيث أخرجه من العدم وأفاض عليه الحياة، واستعرض هنا النعمة الثانية التي تأتي بعد نعمة الحياة، ألا وهي نعمة ما يستقرّ عليه هذا الإنسان وما يُكمل به مسيرة حياته في الدنيا ليبلغ الآخرة. . .

﴿هُوَ﴾ الله سبحانه الذي خلق لكم أيها الناس ما في الأرض جميعاً.. خلق الحجر والشجر.. خلق الطيور والحيوانات.. خلق المعادن بأنواعها وما تخرج الأرض من دفائن وذخائر.. كل ما في الأرض من أجل سعادة هذا الإنسان في الدنيا ثم من أجل سعادته في الآخرة... إنه الله القادر المطلق الذي لا يعجزه شيء بعد أن خلق لهذا الإنسان كل ما في الأرض، عمد إلى السماء فخلق سبع سماوات... إنها بكلمة ﴿كن﴾ كانت سبع سماوات... قدرته مطلقة وعلمه محيط بكل دقائقها وجزئياتها... سبع سماوات محكمة قويمة لا اعوجاج فيها ولا نقص يعتريها... إنها إرادة الله العليمة الحكيمة فتبارك الله أحسن الخالقين.... إن هذه القدرة المطلقة التي خلقت الأرض وما عليها وخلقت السماوات السبع بأجرامها العظيمة.. إن هذه القدرة التي خلقت هذه الأمور من اللاشيء وأتقنت صنعها قادرة وحدها على إعادة هذا الإنسان إلى الحياة بعد الموت، وهي وحدها التي تستحق أن تُعبد وتطاع.

فوائد

١ ـ قال بعضهم إن هذه الآية جاءت رداً على من استعظم إعادة هذا الإنسان بعد موته، فإن الله الذي خلق الأرض وما فيها وكذلك السماوات وما فيهنّ، قادر على إعادة هذا الإنسان... وقال بعضهم الآخر أنه سبحانه ذكر نعمة الحياة في الآية المتقدمة وهنا يذكر سبحانه نعمة خلق الأرض وما فيها وكذلك السماوات من أجل أن يتوجّه الإنسان إلى معرفة خالقه ويؤدي شكر نعمه...

٢ ـ قوله تعالى: ﴿لَكُم﴾ أي من أجل أن تنتفعوا بها في الدنيا لتصلح بها أبدانكم وتقووا على الطاعات، وكذلك من أجل الدين حيث تستدلون بخلقها على وجود الله وعظمته وقدرته...

٣ ـ قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ فإن كلمة استوى استعملت في لغة العرب لمعان متعددة:

منها: استوى بمعنى قصد وتحوّل.

ومنها: استوى بمعنى استولى بالقهر والغلبة.

ومنها: استوى أمره وصعد إلى السماء.

ومنها: استوى: أقبل عليّ وإليّ...

٤ ـ قالوا إن قوله تعالى: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ دليل صريح ونص فصيح على أنه سبحانه يعلم بكل صغيرة وكبيرة وكل جزئيات هذا العالم المكون من الأرض والسماء وما فيهما...

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

❁ ❁ ❁

اللغة

﴿رَبُّكَ﴾ الرب: السيد المطاع، المالك، الصاحب، المصلح، المدبر، الجابر.

﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ جمع ملأك كشمائل جمع شمأل، وهي مخلوقات لطيفة ورد ذكرها في القرآن والسنة.

﴿جَاعِلٌ﴾ مُصَيِّر.

﴿خَلِيفَةً﴾ والخليفة من يخلف غيره ويأتي بعده.

﴿يُفْسِدُ﴾ من فسد الشيء فساداً وفسوداً وهو فاسد وفسيد ضد الصلاح وحقيقته العدول عن الاستقامة إلى ضدها.

قال الراغب في مفرداته: الفساد خروج الشيء عن الاعتدال قليلاً كان الخروج عنه أو كثيراً، ويضاده الصلاح، ويستعمل ذلك في النفس والبدن والأشياء الخارجة عن الاستقامة.

﴿وَيَسْفِكُ﴾ السفك يقال لصبّ الدم والدمع والسفح للصب من أعلى وأصل السفك الصب والإراقة.

﴿ٱلدِّمَآءَ﴾ جمع الدم بحذف لامه واواً كان أو ياء وأصله دماو أو دماي لقولهم في تثنيته دموان ودميان، وهو السائل الأحمر الذي يجري في عروق الحيوان...

﴿نُسَبِّحُ﴾ التسبيح تنزيه الله تعالى، وأصله المرّ السريع في عبادة الله تعالى وجُعل ذلك في فعل الخير كما جُعل عاماً في العبادات قولاً كان أو فعلاً أو نية...

﴿بِحَمْدِكَ﴾ الحمد: هو الثناء بالجميل على قصد التعظيم والتبجيل للممدوح سواء النعمة وغيرها.

﴿وَنُقَدِّسُ﴾ التقديس التطهير الإلهي.

التفسير

هذه هي النعمة الثالثة التي يذكّر الله بها هذا الإنسان.. إنها نعمة الاستخلاف في الأرض وإدارة شؤونها وعمارتها والتكامل التصاعدي في السير نحو الله...

خطاب يتوجه به الله إلى النبي ﷺ بقوله:

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ اذكر يا محمد حين قال ربك وخالقك للملائكة، إني خالق في الأرض خليفة، أي سأجعل في الأرض خليفة عني يقيم أحكامي وينظم شؤون الحياة وفق إرادتي وطبق أوامري.

ثم يُكمل الله الحديث وكيف وقفت الملائكة موقف المتعجب المستغرب مع الاستفهام عن عمق هذا الاستخلاف، فقالت بعد سماعها هذا النبأ: ﴿قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾.

إنهم وباستفهام مشوب بالاستغراب قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء...

إنهم قرأوا مستقبل هذا الإنسان على أساس بُنيته وتركيبه وما تكوّن منه على أساس ما يعيشه من نفسية أرضية تشدُّه إلى الاستئثار وحبِّ الذات... إنه الإنسان ذو الطبيعة الترابية ستشده الأرض إليها فيروح في سباق مع أقرانه ويتحول إلى خصم لهم يريد لنفسه السلطة والحكم كما يريد الملك والتملك، وهنا سيدبّ الخلاف والنزاع ويتحول إلى صراع تجري فيه الدماء وينتشر الفساد...

إنها جبلّة هذا الإنسان وتركيبته التكوينية ينتج عنها هذا الأثر من سفك الدماء والفساد في الأرض... وكم هو الفارق الكبير بين الملائكة التي لم يخطر ببالها المعصية ولم تجر في حلبة الانحراف والعصيان وبين هذا الإنسان، ولذا عندما استفهمت الملائكة عن سرِّ خلق هذا الإنسان كانت تنظر إلى نفسها وما جُبلت عليه من حمد الله وتقديسه وتنزيه ساحته عن كل عيب أو نقص... إنها نظرت إلى واقعها وإلى نفسها وأرادتْ من كل مخلوق أن يكون على شاكلتها حمداً وتقديساً بعيداً عن كل معصية وفساد وسفك دماء، ولذا باستفهام مشوب بالتعجب كان سؤالها.. أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك...؟

ويسمع الله حديث الملائكة.. ولكنّ الله الذي يعلم الحِكم والمصالح يختصر الجواب بشكل عام.. إنها الحقيقة التي تقرّ بها الملائكة وتعترف... ﴿قَالَ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾.

إنني أرى الأمور من جميع جوانبها المضيئة والمظلمة... الخيِّرة والشريرة، الخبيثة والطيبة...

أنتم الملائكة لا ترون الأمور إلا من وجه واحد... تنظرون إلى قبضة الطين التي تكوّن منها آدم فترون فيها الظلمة والانشداد إلى الأرض التي ينتج عنهما النزاع والتخاصم المؤدي إلى الفساد وسفك الدماء، ولكن لم تنظروا إلى إشراقة النور والعلم والمعرفة التي يتمتع بها هذا المخلوق...

إن آدم وكل ذريته يحملون إشعاعات الخير في نفوسهم.. يحملون العلم

والمعرفة ويدركون جيِّد الأمور وسيِّئها، وبهذا الأمر سيكون السرّ في صيرورة آدم خليفة في الأرض يدبّر شؤونها ويحكمها وفق إرادة الله ومشيئته. . .

إنه جواب مختصر تفهمه الملائكة على حقيقته ﴿قَالَ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ إني أعلم كل جوانب الخير في هذا الإنسان. . . أعلم كل المصالح الخفية عليكم التي لم ولن تدركوها لقصوركم الذاتي المحدود. . . ثم بعد هذا يقيم لهم الدليل على جهلهم وعدم علمهم في السر الذي من أجله جعل آدم خليفة له في الأرض. . . إنه يكشف لهم بالبرهان والتجربة العملية سرّ هذا الخليفة وسر هذا الاستخلاف. . .

فوائد

١ ـ لا خلاف بين المسلمين في وجود الملائكة وأنها أجسام لطيفة قابلة أن تتشكّل بصور متعددة وأنها أيضاً متعددة الرتب ولها وظائف معينة وهي معصومة عن المعصية، وهذا القدر ورد في الكتاب الكريم، كما ورد أيضاً في السنة وبهذا القدر يجب أن يؤمن الإنسان وما زاد لا يضرّ جهله ولا تنفع معرفته. . .

٢ ـ من أين علمت الملائكة أن خليفة الله سيمارس سفك الدماء والفساد في الأرض؟

قالوا في الجواب: إن سكان الأرض كانوا من الجان فأفسدوا وسفكوا الدماء فأرسل الله الملائكة فأجلتهم وقضت عليهم، فعندما أخبرهم الله باستخلاف آدم وذريته صدر منهم هذا الاستفهام المشوب بالتعجب.

وقالوا: إن الله أخبر الملائكة بأنه سيكون في ذرية آدم من يمارس هذا الانحراف فصدر منها هذا الاستفهام.

وقالوا: إن الملائكة ثبت لديها أنها وحدها المعصومة، فإذا وجد غيرها كان محط المعصية وبموجبها سيمارس هذا الانحراف.

والأقرب إلى الحق إذا لم تثبت الرواية وتصح في أحد الأقوال الماضية أن الملائكة بعد أن عرفت أن هذا المخلوق تكوّن من طين الأرض ويحمل غرائز شتى ويكثر نسله فسوف تقع المزاحمة بين أفراده كما يقع الخصام والنزاع، وهذا يؤدي إلى سفك الدماء والفساد في الأرض فكان منها هذا الاستفهام المشوب بالتعجب. . .

٣ ـ ورد في الكتاب الكريم ذكر أصناف الملائكة وهي كما ذكرها بعض المفسرين باختصار منا، وذكر للعناوين فحسب:

١ ـ حملة العرش.

٢ ـ الحافون حول العرش.

٣ ـ أكابر الملائكة كجبرائيل وميكائيل.

٤ ـ ملائكة الجنة.

٥ ـ ملائكة النار.

٦ ـ الموكلون ببني آدم.

٧ ـ كتبة الأعمال.

٨ ـ الموكلون بأحوال هذا العالم.

هذه أصنافهم صلوات الله عليهم.

وأما أوصافهم أيضاً باختصار:

١ ـ إنهم رسل الله.

٢ ـ قربهم من الله قرب شرف وعلوّ رتبة.

٣ ـ إنهم أهل الطاعات العظيمة التي يعجز عنها بنو آدم.

٤ ـ إنهم أصحاب قدرات عظيمة لا يعلم مداها إلا الله وإن ظهرت بعض آثارها في تدمير مدن بكاملها وقلبها على أهلها بفعل ملك واحد.

وقد قال الرازي في تفسيره الكبير بعد ذكر أصناف الملائكة وأوصافها قال:

واعلم أنه ليس بعد كلام الله وكلام رسوله كلام في وصف الملائكة أعلى وأجل من كلام علي عليه السلام قال في بعض خطبه: ثم فتق ما بين السماوات العلى فملأهن أطواراً من ملائكته فمنهم سجود لا يركعون وركوع لا ينتصبون وصافون لا يتزايلون ومسبحون لا يسأمون، لا يغشاهم نوم العيون ولا سهو العقول...

إلى آخر ما يذكره وهذا جزء يذكره الإمام عليه السلام في[1] الخطبة الأولى من خطب نهج البلاغة.

٤ ـ في كلام بعض الأفاضل كما ينقل صاحب كتاب (تفسير كنز الدقائق): إن التسبيح تنزيه الجناب الإلٰهي عن النقائص ونفيها عنه، والتقديس تنزيه عن النقائص وعن صلاحية قبوله إياها وإمكانها فيه فهو أبلغ من التسبيح، ولذلك أخّر عنه في هذه الآية وفي قولهم سبوح قدوس..

٥ ـ قال أرباب المعاني كما في بعض التفاسير: خاطب الله الملائكة لا للمشورة ولكن لاستخراج ما فيهم من رؤية الحركات والعبادة والتسبيح والتقديس ثم ردهم إلى قيمتهم، فقال عز وجل: ﴿ٱسْجُدُواْ لِآدَمَ﴾.

---

(١) ذكرالإمام أصناف الملائكة وأوصافهم في خطب متعددة منها في خطبة/ ١٠٩ والأكثر شمولاً ودقة في خطبة/ ٩١.

قال تعالى: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾﴾.

❁ ❁ ❁

اللغة

﴿ءَادَمَ﴾ هو أبو البشر، قيل سمي بذلك لكون جسده من أديم الأرض وقيل لسمرة في لونه. .

﴿ٱلْأَسْمَآءَ﴾ جمع اسم وأصله سِمْوٌ وأصله من السُّمو، وهو الذي به رُفع ذكر المسمى فيعرف به، وفي العرف اللفظ الموضوع لمعنى مركباً أو مفرداً فعلاً كان أو حرفاً أو غيرهما. .

﴿عَرَضَهُمْ﴾ من عَرضت الشيء إذا أظهرته ومنه عرضت الشيء للبيع.

﴿أَنۢبِـُٔونِى﴾ من النبأ، وهو الخبر ذو الفائدة العظيمة الذي يحصل به علم أو غلبة ظن وحق، الخبر الذي يقال فيه نبأ أن يتعرى عن الكذب وأنبأته بكذا إذ أخبرته ولتضمنه معنى العلم قيل أنبأته كذا ويقال نبّأته وأنبأته والأول أبلغ من الثاني. .

التفسير

أراد سبحانه أن يظهر للملائكة السر الذي من أجله كان خلق آدم وجعله خليفة له في الأرض وأراد أن يبرهن لهم عملياً وأمام أنظارهم بتجربة فريدة يكشف من خلالها عن ذلك السر، فقام سبحانه بتعليم آدم كل الأسماء لجميع المسميات بحيث جعله يمتلك القدرة التي بها يقدر أن يعرف أسماء الأشياء ويضع لكل مسمى اسمه، وبعد هذا عرضها على الملائكة... إنها ساحة الاختبار وميدان المعرفة والجهل... وأمام الملائكة ومعهم آدم، إذ قال لهم أخبروني وعرّفوني أسماء هذه الأشياء إن كنتم صادقين تعجيزاً لهم وإنهم لا يقدرون على ذلك ولن يقدروا...

قال تعالى: ﴿قَالُوا۟ سُبْحَـٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَـٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

❁ ❁ ❁

اللغة

﴿سُبْحَـٰنَكَ﴾ سبحان مصدر كغفران ومعنى التسبيح للتنزيه.

﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بمعنى العالم وفعيل للمبالغة وأنه عالم بجميع المعلومات.

﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ فاعل الحكمة وهو واضع الأمور مواضعها.

﴿ٱلْغَيْبِ﴾ ما لا يقع تحت الحواس ولا تقتضيه بداية العقول وإنما يعلم بخبر الأنبياء عليهم السلام.

﴿تُبْدُونَ﴾ تظهرون.

﴿تَكْتُمُونَ﴾ تخفون ومنه من كتم علماً أي أخفاه.

﴿ٱسْجُدُوا۟﴾ من سجد والسجود أصله التطامن والتذلل وفي الشريعة عبارة عن وضع الجبهة على الأرض.

﴿إِبْلِيسَ﴾ جمعه أباليس وأبالسة اسم للشيطان.

﴿أَبَىٰ﴾ امتنع بشدة فكل إباء امتناع وليس كل امتناع إباء.

﴿اسْتَكْبَرَ﴾ من الكِبْر وهي الحالة التي يتخصص بها الإنسان من إعجابه بنفسه وذلك بأن يرى نفسه أكبر من غيره، والاستكبار كما يقول الراغب في مفرداته على وجهين أحدهما: أن يتحرى الإنسان ويطلب أن يصير كبيراً وذلك متى كان على ما يجب وفي المكان الذي يجب والزمان الذي يجب وهذا محمود.

والثاني: أن يتشبّع فيظهر من نفسه ما ليس له وهذا هو المذموم..

التفسير

أمام هذا الأمر الإلهي للملائكة أن يخبروه بأسماء الأشياء كلها وقفوا موقف التنزيه له ابتداءً، فإن مقتضى معرفتهم بالله تستدعي منهم تنزيهه عن كل نقص يمكن أن يُشمّ من كلامهم المتقدم ولذا ابتدءوا بقولهم ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ﴾ ثم اعترفوا بعجزهم وأقرّوا بقصورهم ﴿لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا﴾ من أين يأتينا العلم ومن أين نحصل عليه إن أنت منعته عنا.. فنحن في عالم الجهل الذي لا يرفعه إلاّ تعليمك.. ثم أقرّوا أنه سبحانه العالم المطلق بكل الأشياء وبجميع ما يصلح هذا الكون ويعمّره ويسير به في ركب التكامل والسمو ﴿إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾، وأمام هذا الإقرار صدر الأمر الإلهي من جديد لآدم ﴿قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ﴾ يا آدم أعلمهم بأسماء هذه الأشياء كلها وفهّمهم إياها وأوقفهم على أسرارها وخواصّها وما فيها.

ويقوم آدم بالأمر... ينفّذه بحذافيره وخصوصياته ﴿فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ﴾ وانكشفت الحقيقة ووقفت الملائكة عليها﴿قَالَ﴾ الله سبحانه لهم رافعاً عن نفسه الحجاب ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ كل غيب مستور ومحجوب فهو سبحانه يعلمه سواء كان في عالم السماوات أم في عالم الأرض وطبعاً لا بد من العودة إلى ما كانوا يكتمونه من حديث يعيش في نفوسهم ﴿وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ فيستوي عند الله ما يخفيه الملائكة وما يظهرونه من حيث علمه به ووقوفه عليه...

فوائد

١ ـ إنَّ قوله تعالى: ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ﴾ من باب تغليب العاقل على غير العاقل لوجوده فيها ولو لم يُغلب لقال عرضها أو عرضهن.

٢ ـ في هذه الآية الكريمة بيان فضيلة العلم وكيف تقدم آدم على الملائكة بما يعلم.

٣ ـ من النكات اللطيفة أن في محاسن التأويل سئل الشعبي: هل لإبليس زوجة؟

قال: ذلك عرس لم أشهده.

ثم قرأتُ قوله تعالى: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى﴾ فعلمت أنه لا يكون له ذرية إلا من زوجة فقلت: نعم.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٩﴾﴾.

❁ ❁ ❁

اللغة

﴿ٱسْجُدُوا۟﴾ من السجود ومعناه الخضوع والتذلل، وفي الشرع عبارة عن وضع الجبهة على الأرض.

﴿أَبَىٰ﴾ الإباء شدة الامتناع.

﴿وَٱسْتَكْبَرَ﴾ الاستكبار: رفع النفس إلى ما لا تستحقها.

﴿ٱسْكُنْ﴾ من سكن والسكون ثبوت الشيء بعد تحركه، ويستعمل في الاستيطان نحو سكن فلان مكان كذا أي استوطنه أي لازم الإقامة فيه.

﴿زَوْجُكَ﴾ الزوج بغير هاء لغة القرآن وجمع الزوج أزواج وأما زوجة فهي لغة

رديئة وجمعها زوجات، ويقال زوج لكل واحد من القرينين من الذكر والأنثى في الحيوانات المتزاوجة، كما يقال زوج لكل قرينين كالخف ولكل ما يقترن بالآخر مماثلاً له أو مضاد . . .

﴿ٱلْجَنَّةَ﴾ البستان.

﴿كُلَا﴾ فعل أمر للمثنى ومفرده كُلْ، والأكل هو تناول المطعم.

﴿رَغَدًا﴾ بفتح الغين وهو العيش الدارّ الهني الذي لا عناء فيه وأرغد القوم إذا أخصبوا وصاروا في رغد من العيش.

﴿شِئْتُمَا﴾ عند أكثر المتكلمين كالإرادة سواء وعند بعضهم المشيئة في الأصل إيجاد الشيء وإصابته وإن كان قد يستعمل في التعارف موضع الإرادة . .

﴿وَلَا تَقْرَبَا﴾ من قَرب الشيء يَقرب قرباً أي دنا وقربته بالكسر أقربه قرباناً أي دنوت منه.

﴿ٱلشَّجَرَةَ﴾ ما كان ذو ساق من نبات الأرض.

﴿فَأَزَلَّهُمَا﴾ من الزلة وهي الخطيئة أي استزلّهما وأوقعهما فيها.

﴿ٱهْبِطُوا۟﴾ والهبوط: هو النزول من فوق إلى أسفل.

﴿بَعْضُكُمْ﴾ بعض الشيء جزء منه، ويقال ذلك بمراعاة كل ولذلك يقابل به كل فيقال بعضه وكله وجمعه أبعاض وبعّضته إذا جعلته أبعاضاً.

﴿عَدُوٌّ﴾ من عدا والعدْو بتسكين الدال التجاوز ومنافاة الالتئام فيقال العداوة والمعاداة ومنه رجل عدو لأنه تجاوز الحد في مكروه صاحبه وجمع العدو عدىً وأعداء وضده الصديق. . .

﴿مُسْتَقَرٌّ﴾ من قرّ في مكانه يقر قراراً إذا ثبت ثبوتاً جامداً، وأصله من القُر وهو البرد وهو يقتضي السكون.

﴿وَمَتَٰعٌ﴾ المتاع: كل ما ينتفع به على وجهٍ ما فهو متاع ومتعة.

﴿حِينٍ﴾ الوقت.

﴿فَتَلَقَّىٰٓ﴾ أخذ وقَبل وتلقيته بالقبول أي قبلته منه وتلقاني استقبلني وأصل اللقاء مقابلة الشيء ومصادفته معاً.

﴿كَلِمَٰتٍ﴾ جمع كلمة وتقع على الكثير والقليل.

﴿فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ قبل توبته وتاب العبد إذا رجع إلى طاعة ربه وأصل التوبة الرجوع والتواب مبالغة لكثرة قبوله لتوبة عباده.

﴿يَأْتِيَنَّكُم﴾ من الإتيان وهو المجيء والإقبال.

﴿الْهُدَىٰ﴾ الدلالة بلطف وخصّ ما كان دلالة بهديت وما كان أعطاه بأهديته ويتعدى بحرف وبغير حرف تقول هديته الطريق وإلى الطريق.

﴿تَبِعَ﴾ من الإتباع وهو الاقتداء والاحتذاء.

﴿الْخَوْفِ﴾ هو توقع مكروه عن إمارة مظنونة أو معلومة ويضاد الخوف الأمن.

﴿يَحْزَنُونَ﴾ الحُزن والحَزن خشونة في الأرض وخشونة في النفس لما يحصل فيه من الغم ويضاده الفرح.

التفسير

هذه هي أيضاً واحدة من النعم العظيمة التي كانت لأبينا آدم عليه السلام وهي تشملنا لأننا منه ومن ذريته، وفيها تذكير لهذا الإنسان بعظيم نعم الله عليه وعنايته به حيث أسجدَ له ملائكته الكرام وجعله الميزان في تمييز الصالحين من العاصين..

واذكر يا محمد ومن بعدك كل الناس ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ إنه أمر إلهي للملائكة أن يسجدوا لآدم إمّا السجود الذي يتمثل بوضع الجبهة على الأرض أو ما يظهر خضوعهم وتذلّلهم واعترافهم بما ينجز الأمر المطلوب منهم وامتثاله..

وما أعظم آدم وأجلّ قدره حيث أسجد الله له ملائكته... إنه الإنسان الذي يحمل العلم والمعرفة ويكون في ذريته الأنبياء والمرسلين فحقٌ له كل هذا التكريم والتعظيم...

وتسمع الملائكة الأمر ولا تتأخر عن تنفيذه لحظة واحدة، ﴿فَسَجَدُوٓا۟﴾ خروا إلى الأرض ساجدين ممتثلين لأمر الله. ولكنّ فرداً واحداً لم يسجد... إنّ هناك شذوذاً وانحرافاً ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ وَٱسۡتَكۡبَرَ﴾ إنه خارج سرب الملائكة ولكن شمله التكليف وتوجّه إليه الأمر، وكان حقاً عليه أن يمتثل ويطيع وخصوصاً بعد أن رأى من هو أعظم منه شأناً وأجل قدراً يمتثل ويطيع وينفّذ الأمر بسرعة ودقة..

إنه إبليس يستكبر عن السجود ويمتنع ويرفض الأمر ويبقى وحيداً في عناده ﴿وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ في هذا الرفض.. كان من الجاحدين لربوبية الله المتمردين على أمره الداخلين في زمرة الكافرين...

ثم بعد هذا الامتحان الصعب الذي أطاع خلاله الملائكة أمر الله وعصى إبليس، الأمر ابتدأت مما ابتدأت قصة آدم وعداوة إبليس له... إن إبليس الذي سقط في الامتحان لن يترك آدم وزوجه يعيشان الهدوء والسكينة أو يترك لهما الاستقرار والأمان... إنها قصة آدم الذي أكرمه الله فأسكنه جنته ولكن إبليس بوسوسته وشيطنته أخرجه منها.

﴿وَقُلۡنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ وَكُلَا مِنۡهَا رَغَدًا حَيۡثُ شِئۡتُمَا وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾﴾.

كرامة أكرم الله بها آدم وزوجه حواء.. أسكنهما الجنة.. إنها أكرم دار في عزّ جوار وأباح لهما أن يأكلا منها ما يريدان دون منع أو صد... لقد أباح لهما كل ثمار الجنة ما عدا شجرة واحدة نهاهما أن يقتربا منها أو يأكلا من ثمرها وبيّن لهما مضار التناول منها...

إن ثمرها إذا تناولاه يدخلهما في الظالمين... إنه الظلم لهما ولأنفسهما...

إنه التعب والمشقة وكل تبعات الحياة ستلحقهما إن هما تناولا منها. . . فهما ظالمان لنفسيهما إن أكلا من هذه الشجرة. . .

ويعرف آدم مشقة وتعب ما سيلحقه وذريته إن خالف هذه النصيحة وارتكب هذا النهي واستمر آدم في التزامه، ولكن إبليس لم يغفل عنه ولم يتركه يتنعم في الجنة. . . إنه يضعه في المواجهة ويتصور أنه السبب في تمرُّده ومعصيته فيجب على هذا أن يقتص منه ويجب عليه أن يحقد عليه كما يجب أن يعمل لكي يخرجه من الجنة كما خرج هو منها.

إن إبليس لا يزال يزيّن لآدم هذه الشجرة الممنوعة ويغريه للتناول منها وآدم يمتنع ويرفض، ولكن إبليس إذا انسد باب من أمامه يفتح باباً من خلفه أو عن يمينه أو شماله. . لن يتوقف عن الكيد لآدم ونسج الحيل لإيقاعه في هذه المخالفة التي تضر آدم وتخرجه من الجنة إلى متاعب الأرض ومشقاتها. .

بقي إبليس يخطط لآدم وزوجه حتى أوقعهما في هذه المخالفة فأكلا منها ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ فالشيطان بوسوسته حوّل آدم وزوجه من الجنة وأبعدهما عنها. . لقد أخرجهما من الجنة ومما كانا فيه من نعيم وهدوء وأمن وسرور. . .

تمّت المكيدة ونجحت الحيلة وخرج آدم وحواء من الجنة ﴿وَقُلْنَا ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾.

بعد هذه المخالفة من آدم وزوجه صدر الأمر الإلهي لهما ولإبليس أن يخرجوا جميعاً ويتحولوا إلى الأرض وتبدأ العداوة وتستحكم البغضاء، فإبليس عدو لآدم وزوجه وذريتهما وهم أيضاً أعداء له ومن حقك إذا كان لك عدو أن تتأهب له وتستعد وتهيىء أسباب النصر عليه. . .

إنها الأرض ستكون موضع سكنى هذا الإنسان ومحل استقراره يتمتع بها ويتنعم إلى أن يحين أجله بالموت فيرحل عنها. . إنها دار مؤقتة يُمتحن فيها هذا

الإنسان فإن نجح عاد إلى الجنة وإن سقط دخل النار وما هي إلا فترة امتحان قصيرة وما أقصرها وأشد خطرها..

وأدرك آدم بعد إقدامه على هذه المخالفة خطر ما أقدم عليه.. وقف على المشقّة التي تلحقه جراء هذه المخالفة، فأدرك أنه لن ينجيه من هذا التعب ويرفع عنه هذه المشقة إلا بالعودة إلى الله فرجع إليه تائباً فتداركته رحمة الله.

﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ (٣٧)﴾.

إنها كلمات أخذها آدم وفهم معناها وأدرك أن بها تكون العودة إلى الله كما أن بها يعود الله عليه بالتوبة.. كلمات ذات خطر كبير تحمل معها جواز العودة إلى الله... ليست ألفاظاً فحسب بل معانٍ أدركها آدم وعاشها حقيقة واضحة فقدّمها بين يدي الله فتاب عليه ومحى عنه مخالفته وقبل منه عودته إليه، إنه الله هو التواب الذي يقبل كل توبة من عباده مهما تعددت وتنوّعت وتكثّرت.. إنه الرحيم بعباده الذي يعطف عليهم ويريد لهم الخير والسعادة والهناء...

لقد قبل الله توبة آدم، ولكن لا بدّ من الهبوط إلى الأرض ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا﴾ إنها الرحلة التي كتبت على آدم فكان عليه أن ينفّذها ويقوم بها بحدودها... لقد ظلم نفسه فكان عليه أن يتحمّل تبعات هذا الظلم، فليهبط إلى الأرض ويتحمل مشقاتها وما فيها من تكاليف وأعمال حيث ينقسم على أثرها بنوه إلى قسمين:

﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

فهذا هو القسم الأول الذي يتبع ما أنزل الله من الهدى على ألسنة رسله ومن بعثه من أنبيائه... إنه صنف يتأمل في تعاليم الأنبياء وما جاءوا به فيتبعونهم ويسيرون على هداهم، وهؤلاء يعيشون الأمن والاطمئنان والراحة والسرور وتنتفي من دنياهم وآخراهم كل الأحزان والهموم.

وأما القسم الثاني: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

إنهم صنف كفروا بالله ورفضوا الإيمان بالأنبياء وكذبوا رسله وجحدوا آياته. . أغلقوا تفكيرهم وسدُّوا المنافذ التي من خلالها يتنفسون الحق والعدل. . . إن هؤلاء أصحاب النار وأهلها والمستحقون لها يخلدون فيها ولا يخرجون منها أبداً. . .

فوائد

١ ـ إن سجود الملائكة لآدم كان بعد خلقه وتسويته مباشرة وقبل محاورتهم لله واستفهامهم منه بدليل قوله تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ (٧٢)﴾ [ص: ٧٢].

٢ ـ هل الملائكة كلهم سجدوا أو بعضهم؟

ذهب الأعم الأغلب إلى أن الملائكة كلهم مأمورون بالسجود لآدم، وقوله تعالى نصٌ في ذلك حيث قال: ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (٣٠)﴾ [الحجر: ٣٠] فهو جمع مؤكد بلفظي كل وأجمع. . .

٣ ـ ما هذا السجود الذي كان لآدم؟

بعد الاتفاق على أنه ليس سجود عبادة قيل: إن السجود كان لله وآدم كان كالقبلة.

٤ ـ اختلفوا هل إبليس من الملائكة أم لا؟

الحق أنه من الجن لقوله تعالى: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ﴾ [الكهف: ٥٠].

٥ ـ ما هذه الكلمات التي تلقاها آدم حتى تاب الله عليه؟

قالوا: هي قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣].

وقالوا غير ذلك مما يؤدي هذا المعنى.

والوارد في روايات أهل البيت عليهم السلام أن آدم عليه السلام قد استجار وتوسل بأعظم مخلوقاته وأفضلهم عنده وأقربهم إليه وهم: محمد وعلي وفاطمة والحسن والحسين..

٦ ـ إن قوله: ﴿وَلَا تَقْرَبَا﴾ أبلغ في النهي عن الأكل لأنه إذا نُهي عن القرب فبطريق أولى نُهي عن الأكل...

قال تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِيٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴿٤٠﴾﴾.

❁ ❁ ❁

اللغة

﴿إِسْرَٰٓءِيلَ﴾: هو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل وهو اسم أعجمي ومعناه كما قيل عبد الله.

﴿ٱذْكُرُوا۟﴾: والذكر ضد النسيان وهو الحفظ للشيء بذكره والذكر أيضاً جرى الشيء على لسانك، كما أن معنى الذكر الشرف والكتاب والصلاة والدعاء وأصل الباب كما قيل التنبيه على الشيء...

﴿ٱلنِّعْمَةِ﴾: للجنس تقال للقليل والكثير وهي الحالة الحسنة، وحدّها بعضهم بقوله «المنفعة المفعولة على جهة الإحسان إلى الغير».

﴿أَوْفُوا۟﴾: من وفى بعهده يفي وفاء وأوفى إذا تمّم العهد ولم ينقض حفظه، وضده الغدر.

﴿ٱلْعَهْدُ﴾: حفظ الشيء ومراعاته حالاً بعد حال وسمي الموثق الذي يلزم مراعاته عهداً وباعتبار الحفظ قيل للوثيقة بين المتعاقدين عُهدة.

﴿فَٱرْهَبُونِ﴾: الرهبة: مخافة مع تحرز واضطراب.

التفسير

بعد أن ذكر سبحانه فيما تقدم جملة من النعم العامة على جميع الناس خصّ هنا بني إسرائيل بذكر ما أنعم به عليهم لأجل استمالتهم إلى النبي ﷺ وحملهم على الإيمان به وأن يقفوا على ما يخبرهم به من هذه النعم دليل على أنه وحي من عند الله يجب أن يؤمنوا به. . .

﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ خاطبهم باسم أبيهم إثارة لإحساسهم وتذكيراً لهم بهذا السلف الصالح وأنهم منه وإليه ينتمون، فحقهم أن يلتفتوا إلى هذه النعمة ويقوموا بشكرها وبشكر ما يُطلب منهم بعدها.

﴿ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ﴾ احفظوا النعم التي وفّرتها لكم ولا تنسوها. . اجعلوها على ذكر منكم وما أكثرها وأوفرها على هذا الشعب وأهمها وأعظمها نعمة، الإيمان، ونعمة جعل الرسل والأنبياء فيهم، ونعمة إنجائهم من آل فرعون، ونعمة إنزال المن والسلوى عليهم، ونعمة تفجير الماء من الحجر؛ وإلى غير ذلك من النعم الكثيرة.

وهذا الشرف للآباء شرف للأبناء والفروع يجب أن تحفظ. . . ميراث الأصول وترعاه وتصونه.

﴿وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ﴾.

أمرهم سبحانه أن يقوموا بكل أوامره ونواهيه التي يدخل فيها الإيمان بالنبي محمد ﷺ وبما جاء في كتبهم من صفاته ونعوته، ولهم في مقابل ذلك ما أخذه على نفسه نحوهم من المغفرة لهم والعفو عنهم وإدخالهم الجنة. . . ثم نبّههم إلى وجوب الخوف والحذر منه وحده.

﴿وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ﴾ فالخوف يجب أن يكون من الله لأنه المالك الحقيقي لهذا الكون ـ ومن فيه وما فيه ـ لا يخرج عن إرادته صغير أو كبير وفي هذا الأمر معنى التهديد. . .

قال تعالى: ﴿وَءَامِنُوا بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِۦ وَلَا تَشْتَرُوا بِـَٔايَـٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّـٰىَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾﴾.

اللغة

﴿ءَامَنُوا﴾: صدّقوا.

﴿أَنزَلْتُ﴾: من نزل وهو في الأصل انحطاط من علو يقال: نزل عن دابته ونزل في مكان كذا حط رحله فيه.

﴿وَلَا تَشْتَرُوا﴾: وحقيقة الاشتراء الاستبدال والعرب تستعمل ذلك في كل من استبدل شيئاً بشيء...

﴿ٱلْـَٔايَـٰتِ﴾: جمع الآية وتطلق على البناء العالي كما تطلق على كل جملة من القرآن دالة على حكم، سواء كانت سورة أو فصلاً أو فصولاً وقد يقال لكل كلام منه منفصل بفاصل آية وعلى هذا اعتبار آيات السور التي تُعدّ بها السور.

﴿ثَمَنًا﴾: اسم لما يأخذه البائع في مقابلة المبيع عيناً كان أو سلعة، وكل ما يحصل عوضاً عن شيء فهو ثمنه وشيء ثمين كثير الثمن.

﴿قَلِيلًا﴾: القليل: ضده الكثير ويطلق على الحقير واليسير.

التفسير

﴿وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ﴾ أمرهم أن يصدّقوا بالقرآن الذي أنزله على قلب النبي محمد ﷺ والذي جاء مصدّقاً بما في أيديهم من التوراة حيث تتضمن البشارة به وبقدومه.

ثم نهاهم ﴿وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ﴾ لا تكونوا أول من يكفر من أهل الكتاب لأن الخطاب إلى يهود المدينة الذين وقفوا على بشائر التوراة وما فيها من صفات النبي ﷺ فإذا كفروا بذلك وأنكروا ما في الكتاب فإنهم يسنّون سنّة سيئة يخلفونها بعدهم لكل فردٍ من اليهود، وأيضاً نهاهم ﴿وَلَا تَشْتَرُواْ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ لا تعتاضوا عن آيات الله وما فيها من بشائر بمال الدنيا وما فيها، وكلها قليل بالنسبة إلى الآخرة وما فيها، وقد روي عن أبي جعفر عليه السلام كما في مجمع البيان في هذه الآية، قال: «كان حيي بن أخطب» «وكعب بن الأشرف» وآخرون من اليهود لهم مأكلة على اليهود في كل سنة فكرهوا بطلانها بأمر النبي ـ أي إذا ظهر وآمنوا به ـ فحرفوا لذلك آيات من التوراة فيها صفته وذكره فذلك الثمن الذي أريد في الآية.

﴿وَإِيَّٰىَ فَٱتَّقُونِ﴾ أمرهم بتقواه أي يتقون معاصيه فلا يبيعون دينهم بدنيا قليلة لا تبقى ولا تدوم ومن اتقى الله وخاف عقابه أقرّ بالحقيقة والتزم تطبيق أوامر الله كما اجتنب نواهيه وكل ما منع منه...

فوائد

١ ـ قالوا: إن الضمير في قوله: ﴿وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ﴾ عائد إلى النبي ﷺ وقيل للقرآن وقيل للتوراة.

٢ ـ إن قيل لما قال سبحانه: ﴿وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ﴾ ولم يقل أول كافرين به.

قالوا: التقدير ولا تكونوا أول فريق كافر به، وقال بعضهم وهو الأخفش أنه محمول على معنى الفعل أي أول من كفر به.

٣ - لماذا قال تعالى هنا: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا﴾؟ فأدخل حرف الجر (الباء) في الآيات دون الثمن بينما في سورة يوسف أدخل حرف الجر على الثمن فقال تعالى: ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ﴾ [يوسف: ٢٠].

قال الفرّاء: إنما كان كذلك لأن العوض كلها أنت مخيّر فيها في إدخال الباء إن شئت قلت: اشتريت الثوب بكساء وإن شئت قلت اشتريت بالثوب كساء فأي منهما جعلته ثمناً للآخر جاز بينهما، أما إذا كان الثمن دراهم أو دنانير فلا بد وأن يبقى هو الثمن ويجب أن يتصل به حرف الجر لأن الدراهم والدنانير ثمن باستمرار.

٤ - إن قيل: إن قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ﴾ هل يدل على أنه يجوز أن يكون آخر كافر به؟!..

يقال: لا يصح ذلك الفهم لأن المقصود من الكلام النهي عن الكفر على كل حال، وخصّ الأول بالذكر لعظيم جرمهم حيث إنهم تحولوا إلى أئمة ضلالة وقدوة فاسدة فكان ضلالهم أعظم وأشد...

قال تعالى: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ﴿٤٢﴾.

اللغة

﴿وَلَا تَلْبِسُوا﴾: من اللبس وأصله ستر الشيء ويقال ذلك في المعاني، يقال: لبّست عليه أمره إذا فرجت بينه بمشكله وحقه بباطله وفي الأمر لُبسة أي ليس بواضح.

﴿الْبَاطِلَ﴾: نقيض الحق وهو ما لا ثبات له عند الفحص ويقال للمستقل عما يعود بنفع دنيوي أو أخروي بطّال، وهو ذو بطالة وبطل دمه إذا قتل ولم يحصل له ثأر ولا دية، وقيل للشجاع المتعرض للموت بطل تصوراً لبطلان دمه أو لأنه يبطل دم المتعرض له بسوء والأول أقرب.

﴿كَتَمَ﴾: الكتمان: ستر الحديث.

التفسير

لا يزال الخطاب الإلهي متوجّهاً نحو بني إسرائيل، فتارة يأمرهم وأخرى ينهاهم تبعاً لحركتهم وسيرتهم ومواقفهم في الدعوة ومن النبي محمد ﷺ وهنا يتوجه إليهم بقوله تعالى:

﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ﴾ نهاهم عن الخلط بين الحق الذي يعرفونه بالباطل الذي يختلقونه... إنهم يريدون تشويه الحقيقة وعدم إظهارها بصورتها الصحيحة السليمة فنهاهم الله عن هذا الأسلوب لما فيه من إبطال الحق وتشويش له وتشويه.

كما نهاهم عن أسلوب آخر بيّنه بقوله تعالى: ﴿وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ فهنا يخفون الحق بالكلية ويرفضون الإفصاح عنه.. إن جريمة تشويه الحق تعادل إخفاؤه..

إنها صورة تشويه الحق من حيث أن أوصاف النبي محمد ﷺ كانت موجودة في كتبهم والبشارات كانت تنقلها توراتهم، ولكنهم نقلوا ما يشوّه هذه البشارات أو أنهم أخفوها بالكلية عن أنظار اليهود وعوامهم البسطاء فكان هذا النهي.

﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي تعلمون أحقية محمد ﷺ وأنه رسول الله، أو أنكم تعلمون ضرر وقبح الإقدام على تلبيس الحق بالباطل، أو وأنتم تعلمون خطر كتمان الحق من حيث يدخل من يقدم على مثل ذلك جهنم وما فيها من عذاب وألم شديد...

وتلبيس الحق بالباطل أو كتمان الحق مع العلم والمعرفة، من أعظم المعاصي والآثام لأن الجرائم المتعمدة التي يعرف من يقوم بها، مدى مخاطرها وآثارها المدمرة على مستوى الفكر والعقيدة...

وهذا الخطاب في الآية المباركة؛ وإن كان في بني إسرائيل، فإن هذا الفعل منهم طبيعة وديدنةً، لكنه ينطبق على من يتعاطى ذلك ويتعامل به - حتى لو كان من المسلمين -.

قال تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُوا۟ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾

❁ ❁ ❁

اللغة

﴿أَقِيمُوا۟﴾: من قام الشيء إذا دام وثبت.

﴿ٱلصَّلَوٰةَ﴾: في الأصل الدعاء، ولكنها في لسان الشرع الأفعال المخصوصة والمعروفة عند المسلمين.

﴿ءَاتُوا۟﴾: الإيتاء هو الإعطاء، وأتيته أعطيته.

﴿ٱلزَّكَوٰةَ﴾: من زكا الشيء إذا نما وزاد، وفي الشرع ما يخرجه الإنسان من حق الله تعالى للفقراء، وتسميته بذلك لما يكون فيها من رجاء البركة أو لتزكية النفس أي تنميتها بالخيرات والبركات.

﴿وَٱرْكَعُوا۟﴾: الركوع: الانحناء فتارة يستعمل في الهيئة المخصوصة في الصلاة كما هي وتارة في التواضع والتذلل إما في العبادة وإما في غيرها..

التفسير

﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ الصلاة هي العبادة المعروفة لدى المسلمين من قراءة وركوع وسجود وذكر وتشهد وتسليم، وإقامتها أن تأتي بأجزائها وشروطها وكل مقدماتها

ثم يُخلص بها حتى تأتي مقبولة عند الله مؤثّرة في تهذيب النفس واستقامتها ناهية عن الفحشاء والمنكر مؤثّرة في عروج المؤمن نحو الله....

الصلاة هي الرابط بين الله والعبد... وفي الحديث: من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد من الله إلا بُعدا.

﴿وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾وهو الواجب المالي الذي يخرجه المستطيع من أمواله ويعود به على الفقراء وهو فريضة واجبة على الموسر ضمن أصناف وأعيان معدودة وبشروط مبسوطة في كتب الفقه... والزكاة فريضة تكافلية يشعر المجتمع من خلالها أنه وحدة متكافلة متكاملة يخرجها المسلم طاعة لله وامتثالاً لأمره ويقدّمها للفقراء دون منٍّ أو أذى ويأخذها المحتاج دون غضاضة أو حيف...

﴿وَٱرْكَعُوا۟ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ قالوا أن الخطاب في هذه الآية لليهود كما هي الآيات المتقدمة عنها والمتأخرة، وذكر الركوع لأمور:

قالوا: إنه تأكيدٌ للصلاة التي تقدم ذكرها في الآية وقد يعبّر عن الصلاة بالركوع.

وقالوا: إنها دعوة لإقامة الصلاة جماعة مع المسلمين فإن ﴿مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ يدل على وجوب انضمام المصلّي إليهم ليكون معهم...

قالوا: باعتبار أن صلاة اليهود ليس فيها ركوع فذكر الركوع يعيّن كون الصلاة أنها صلاة المسلمين وأن الأمر إليهم متوجه لإقامتها وليس لإقامة صلاتهم اليهودية...

قال تعالى: ﴿۞ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾﴾.

۞ ۞ ۞

اللغة

﴿أَتَأْمُرُونَ﴾: من الأمر وهو الطلب من العالي إلى ما دونه.

﴿ٱلْبِرَّ﴾: التوسع في فعل الخير وهو اسم جامع لأعمال الخير.

﴿وَتَنسَوْنَ﴾: النسيان: خلاف الذكر وهو ترك الإنسان ضبط ما استودع أما لضعف قلبه وإما عن غفلة وإما عن قصد حتى ينحذف عن القلب ذكره والمقصود بالنسيان هنا الترك.

﴿تَتْلُونَ﴾: تقرأون، تلا يتلو تلاوة أي قرأ وأصل التلاوة اتباع بعض الحروف لبعضها، وتفرّق عنها القراءة أن القراءة جمع الحروف بعضها إلى بعض.

﴿تَعْقِلُونَ﴾: من العقل ويقال للقوة المتهيئة لقبول العلم ويقال للعلم الذي يستفيده الإنسان بتلك القوة عقل وأصل العقل الإمساك والاستمساك كعقل البعير بالعقال وعقل الدواء البطن...

التفسير

﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ استفهام إنكاري لحالة

قبيحة كان يمارسها علماء اليهود. . . إنها صورة مشوّهة لإنسان يدعو غيره للخير ويمتنع هو عن القيام به. . . صورة يستهجنها العقلاء ويستغربون القيام بها. . . إنسان يأمر غيره بالإيمان والحق والعدل والإحسان ويمتنع هو عن القيام بذلك. . .

أنتم معشر الأحبار من اليهود تأمرون الناس من أتباعكم أو أقاربكم أو معارفكم أو من حولكم بالإيمان بالنبي محمد ﷺ أو تأمرونهم بالصدقة أو بأعمال الخير ثم أنتم تتنكرون لكل ذلك ولا تقومون بشيء منه.

والأعظم من ذلك والأكثر استهجاناً وتعجباً أنكم تقرأون الكتاب وهو التوراة الذي يحضّ على الإيمان بالنبي ﷺ أو القيام بأعمال الخير والإحسان فأنتم لستم جهلاء لا تعرفون ذلك أو لم تقفوا عليه. . .

فمع معرفتهم بآيات الله الدالة على القيام بكل بر وخير وإحسان ومع أنهم يأمرون غيرهم بذلك فإنهم مع ذلك يمتنعون عن القيام به.

ثم ندد بهم سبحانه بهم بقوله: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ ألا تنظرون بعقولكم لقبح ما تقدمون عليه من حيث تأمرون الناس بالبر ولا تمارسونه. . فيجب على من يملك العقل ويفكر فيه أن يمارس عملياً ما يأمر به حتى يأتي فعله مطابقاً لقوله وعمله متوافقاً مع ما يأمر به غيره. . .

فوائد

١ - وردت الأحاديث الكثيرة التي تذم من يأمر بالمعروف ولا يمارسه.

أ - ففي الحديث عن الصادق[1] عليه السلام في قوله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾ ويقال له: يا خائن أتطالب خلقي بما خنت به نفسك وأرخيت عنه عنانك.

---

(١) تفسير نور الثقلين، ج١، ص٧٥.

ب ـ وفي الحديث عن أبي جعفر عليه السلام[١] بإسناده إلى خيثمة: قال: أبلغ شيعتنا أن أعظم الناس حسرة يوم القيامة من وصف عدلاً ثم خالفه إلى غيره.

٢ ـ الاستفهام في مطلع الآية ﴿أَتَأْمُرُونَ﴾ خرج عن معناه الحقيقي وأريد به التوبيخ والتقريع.

٣ ـ الآية الكريمة وإن كانت نازلة في اليهود، ولكنها تُعمِّم على كل من يقوم بدورهم ويتمثل بشخصيتهم من حيث يأمر غيره بالبر ولا يقوم هو به...

٤ ـ قال بعضهم إن هذه الآية تُسقط عن العصاة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لأنها واردة مورد الذم.

والحق أنها لا دلالة فيها على ذلك، لأنها مسوقة لبيان قبح ترك البر عملياً وإن ذلك يتأكد في حق من يأمر به غيره وهو لا يعمل به. وهذا المعنى متداول في الاستعمال وعند العرف فإن من يأمر غيره بالبر وينسى نفسه يلومه الناس، لإهماله نفسه وليس لأمره وإنما يذكرون أمره بالبر لإقامة الحجة عليه وأن عليه أن يقوم بما يأمر وسياق الآية وارد في ذلك فالعيب والقبح فيمن يترك الحق كما فعل أهل الكتاب... ويساعد على ذلك ما ورد أيضاً أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يجب على الفاسق كما يجب على المؤمن...

٥ ـ إن أهم ضربة توجّه إلى الدعوة ـ أي دعوة كانت ـ أن يقوم أربابها بمخالفتها ويمارسوا عملياً ما ينافيها ويخالفها فإن من يرى ذلك منهم يعرف عدم صدقها، لأن أربابها لو لم يطلعوا على فسادها لما خالفوها وبذلك يتنكر لها الناس ولا يقبلون بها.

٦ ـ الاستفهام في قوله تعالى ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ للتوبيخ والإنكار عليهم هذا الفعل الشنيع، وأنهم لو استعملوا عقلهم وحركوه ما صدر منهم ما صدر من تقصير من حيث عدم قيامهم بما يأمرون به غيرهم من بر...

---

(١) تفسير نور الثقلين، ج١، ص٧٥.

قال تعالى: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَوٰةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴿٤٥﴾ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿٤٦﴾﴾.

اللغة

﴿اسْتَعِينُوا﴾: من العون والمعاونة والمظاهرة والتعاون والتظاهر، والاستعانة: طلب العون...

﴿بِالصَّبْرِ﴾: الصبر: الإمساك في ضيق يقال صبرتُ الدابة حبستها بلا علف والصبر حبس النفس على ما يقتضيه العقل والشرع أو عما يقتضيان حبسها عنه، وقيل إن الصبر أصله هو منع النفس عن محابها وكفّها عن هواها...

﴿الصَّلَوٰةَ﴾: في الأصل الدعاء، ولكنها نقلت في الشرع إلى الأفعال والأركان المخصوصة عند المسلمين...

﴿لَكَبِيرَةٌ﴾: يقصد بها هنا ما يشق على النفس ويصعب.

﴿الْخَاشِعِينَ﴾: من الخشوع وأصله الاستكانة والذل، وخشع الرجل إذا رمى ببصره إلى الأرض والخشوع في الصلاة خشية القلب والتواضع.

﴿الظَّنُّ﴾: ترجيح أحد طرفي المحتمل، وقد يستعمل في اليقين كما هو الحال هنا.

﴿مُّلَٰقُوا۟﴾: من اللقاء وهو مقابلة الشيء ومصادفته معاً، ويقال ذلك في الإدراك بالحس وبالبصر والبصيرة وملاقاة الله عبارة عن القيامة وعن المصير إليه.

﴿رَٰجِعُونَ﴾: الرجوع العود والرَّجع الإعادة.

التفسير

بعد تلك الأوامر والنواهي التي تقدّمت، وهي تكاليف شاقة صعبة تحتاج إلى قوة وإرادة وتصميم وجّه الله المكلفين بما فيهم أهل الكتاب من بني إسرائيل إلى وسائل ناجحة يستطيعون بها تنفيذ ما أمروا به وترك ما نهوا عنه فقال سبحانه:

﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ الذي يعني انضباط النفس واتزانها والتزامها بالسكينة وعدم الاضطراب... فالصبر تحمّل وإرادة وانضباط لا يضيع الصابر خلال الأزمات ولا يفقد وعيه وإرادته ومتى ملك هذه الملكة استطاع أن يجتاز الصعوبات بنجاح وفلاح.

وكذلك ﴿وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ التي تعني فيما تعنيه الاتصال بالله والارتباط به ومن خلالها يرتفع هذا الإنسان على ضعفه ويقوى بالله، لأنه معه يناجيه ويبثه همومه وآلامه ويخرج بهذا الارتباط والعلقة من كل صعوبات الحياة ومشقاتها.

وباعتبار أن هذه الصلاة تحتاج إلى عناء وتوجّه إلى الله وانقطاع إليه، وفيها أيضاً منتهى الارتباط وعمق الاعتقاد.

قال سبحانه: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾ أي أنها صعبة وثقيلة على النفس لما فيها من سجود وركوع يتمثل فيه انكسار النفس أمام الله، ولذا يصعب حملها وممارستها إلا على المتواضعين الذين يعرفون عظمة الله وقدرته وحقه، فهؤلاء يعيشون الحبُّ لها والرغبة بها ويفرحون عندما يأتي وقتها ويرون أن بها الراحة والاطمئنان والخروج من أعباء الدنيا ومتاعبها... حقاً إن الصلاة تصعب على غير الخاشعين المتواضعين وقد طلب بعض الأعراب الذين

أسلموا زمن النبي ﷺ أن يعفيه من الصلاة فأجابه النبي لا خير في دين لا صلاة فيه. . .

ثم بيّن صفات الخاشعين فإنهم يحملون صفات معينة وعلامات بارزة. . . إنهم أصحاب سمات وملامح تفردهم عن غيرهم وتميّزهم عمن سواهم.

﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴿٤٦﴾﴾ إنهم صنف خاص يعيش اليقين بلقاء الله يوم الحساب حيث ترتفع الأعمال إلى المحكمة العادلة لنيل الجزاء من ثواب وعقاب، وكذلك أنهم إليه راجعون عند الموت حيث تنقطع صلة هذا الإنسان بالدنيا ويخرج منها ليعود إلى الله حاملاً أعماله وما قام به في الحياة الدنيا. . .

إنهم يرجعون إليه، أي لا يملكون من أمورهم شيئاً والله وحده المالك لهذا الإنسان المتصرف فيه. . .

إن من يعيش هذه الحالة الشعورية يندفع ليكون عضواً صالحاً في المجتمع ويتلمس باستمرار مواضع رضا الله ليكون عندها كما يعرف مواضع سخط الله فيجتنبها. . .

فوائد

١ ـ قالوا إن قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ خطاب للمؤمنين دون أهل الكتاب لأنهم المستفيدون من الأمر والذي يصح أن يتوجه إليهم الأمر.

وقال آخرون: إنه خطاب لأهل الكتاب لمناسبة السياق والحديث كله عن بني إسرائيل وكأن العهد الذي أمرهم بالوفاء به أرشدهم إلى إتمامه للاستعانة بالصبر والصلاة. . .

وقال ثالث: إنه خطاب لجميع من هو بشرائط التكليف لفقد الدليل على التخصيص. . .

٢ ـ فسّروا الصبر في الآية الكريمة بتفسيرين:

أ ـ إنها الملكة التي يمنع الإنسان بها النفس عن محابها ويكفّها عن هواها وتجعله رزيناً منضبطاً فلا يضيع أو تتزلزل إرادته.

ب ـ فسروا الصبر بالصوم.

٣ ـ ذهب بعضهم إلى أن المراد بالصلاة ليست الأفعال والأركان المعهودة وإنما هو الدعاء...

قال تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا يُؤۡخَذُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾﴾.

اللغة

﴿إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾: هو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، وهو اسم أعجمي ومعناه كما قيل عبد الله.

﴿ٱذۡكُرُواْ﴾: الذكر ضد النسيان وهو الحفظ للشيء بذكره، والذكر أيضاً جري الشيء على لسانك، كما أن معنى الذكر الشرف والكتاب والصلاة والدعاء وأصل الباب كما قيل التنبيه على الشيء.

﴿نِعۡمَتِيَ﴾: للجنس تقال للقليل والكثير، وهي الحالة الحسنة وحدّها بعضهم، المنفعة المفعولة على جهة الإحسان إلى الغير.

﴿فَضَّلۡتُكُمۡ﴾: من الفضل وهو الزيادة، وفضّل هذا على ذاك إذا حكم له بالزيادة أو أعطاه الزيادة.

﴿ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾: جمع العالم، وهو اسم للفلك وما يحويه من الجواهر والأعراض، وهو في الأصل اسم لما يعلم به كالطابع والخاتم لما يطبع به ويختم به وكل نوع من هذا الكون عالَم فيقال عالم الإنسان وعالم الحيوان وعالم الجماد وهكذا. . .

﴿ٱتَّقُوا۟﴾من وقى والوقاية: حفظ الشيء مما يؤذيه ويضرّه، والتقوى جعل النفس في وقاية مما يخاف، وفي الشرع حفظ النفس عما يؤثم وذلك بترك المحظور، ويتم ذلك بترك بعض المباحات.

﴿يَوْمًا﴾: اليوم يعبّر به عن وقت طلوع الشمس إلى غروبها، وقد يعبّر به عن مدة من الزمان أي مدة كانت.

﴿لَّا تَجْزِى﴾: من جزى يجزي جزاء، والجزاء: الغناء والكفاية، ويجزي: يكفي، ويجزي: يقضي.

﴿نَفْسٌ﴾: شخص، وذات عن ذات.

﴿شَيْـًٔا﴾: قيل هو الذي يصحّ أن يُعلم ويخبر عنه.

﴿يُقْبَلُ مِنْهَا﴾: قبول الشيء: تلقّيه والأخذ به، وضده الإعراض عنه.

﴿ٱلشَّفَـٰعَةَ﴾: من الشفع وهما: الاثنان ضد الوتر وهو الواحد، والشفاعة ضم غيره إلى وسيلته ـ كما في البحر ـ لأن الشفيع ينضم إلى الطالب في تحصيل ما يطلب فيصير شفعاً بعد أن كان وتراً.

﴿يُؤْخَذُ﴾: من الأخذ وهو حوز الشيء وتحصيله.

﴿عَدْلٌ﴾: فدية وأصل العدل ـ بفتح العين ـ ما يساوي الشيء قيمة وقدراً ـ وإن لم يكن من جنسه وبكسرها، المساوي في الجنس والجرم.

﴿يُنصَرُونَ﴾: من النصر وهو في الأصل العون والأنصار الأعوان وانتصر الرجل انتقم.

التفسير

الخطاب لبني إسرائيل المتواجدين في زمن النبي ﷺ ولكن بأسماء آبائهم الذين سلفوا تأكيداً لهم وتذكيراً إلى أنهم أبناء أولئك القوم الذين أنعم الله عليهم،

فحقّ لهؤلاء الأبناء أن يحفظوا نعمة الله من حيث أنه أنعم على آبائهم، والإنعام على الآباء إنعام على الأبناء. . .

﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ﴾ تأكيد - بعد أن تقدم هذا النداء - من أجل أن يحملهم على تذكّر النعمة فيقوموا بشكرها. . .

ذكّرهم بنعمه على أجدادهم لأنها أيضاً وصلت إليهم ولولا نعم الله على الأجداد لما بقي الأبناء أو لما عاشوا الكرامة واستمروا على قيد الحياة. . .

وقد تقدّم ذكر جملة من تلك النعم عليهم، منها ما جعله الله فيهم من الأنبياء والرسل، ومنها نعمة إنجائهم من آل فرعون، ومنها نعمة إنزال المنّ والسلوى عليهم، ومنها نعمة تفجير الماء من الصخر وهكذا. . .

ويذكر سبحانه هنا نعمة أخرى عظيمة وجليلة وهي في قوله تعالى: ﴿وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾.

هذه نعمة أنعمها الله على الآباء يذكّر الله بها الأبناء ليرعوها ويحفظوها. . . إنها نعمة تفضيلهم على عالمي زمانهم بما بعث فيهم من الأنبياء والرسل وما أنزل عليهم من النعم المتتالية وأهمها، تخليصهم من فرعون وجنوده ومن عمليات الإذلال التي كان فرعون يمارسها عليهم حيث كان يقتّل أبناءهم ويستبقي نساءهم للخدمة وهكذا.

وإنما قلنا عالمي زمانهم لأن أمة النبي محمد ﷺ هي أفضل الأمم على الإطلاق لقوله تعالى: ﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

وباعتبار أن الله يعدّد النعم ويذكّرهم بها وهم لم يكونوا موجودين يومها نعرف أن المراد بها آباءهم وأجدادهم السابقين الذين كانوا في الأزمنة الغابرة زمن فرعون ومن بعده حيث منّ الله عليهم وأنقذهم من الظلم والجور وأنجاهم من فرعون وظلمه. .

ثم بعد أن ذكّرهم بنعمه أردف ذلك بتخويفهم لعلّهم إلى الله يرجعون وإلى رحابه يعودون، فقال تعالى:

﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾﴾ احفظوا أنفسكم وادفعوا عنها بلاء ذلك اليوم العظيم الذي يقوم فيه الناس للحساب... إنه يوم عظيم تذهل فيه كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكنّ عذاب الله شديد، إنه يوم لا يجزي والد عن ولده ولا مولوداً هو جازٍ عن والده شيئاً.. يوم يفرُّ المرء فيه من بنيه وأمه وأخيه وفصيلته التي تأويه... إنه يوم تسقط فيه شفاعات أهل الدنيا ووسائلهم التي يتعاملون بها مع العصاة وهي تتمثل بنفسٍ مكان نفسٍ، ويوم القيامة تسقط البدلية فلا تغني نفس عن نفس ولا تجزي عنها أو تقوم مقامها.

كما أن الشفاعة، وهي الواسطة التي يتقدم بها أصحاب الجاه والسلطان لمقامهم وشرفهم تسقط في ذلك اليوم أيضاً ولا تنفع في عدم أخذ العصاة.

وكذلك تسقط الفدية، كما لو جنى واحد في الدنيا على غيره تقبل في بعض المراحل فدية تقدّم لأهل المجني عليه من أجل أن يفدي الجاني نفسه ويخلّصها من القصاص، فهذا في ذلك اليوم لا يجري ولا يقوم...

كما أن المعونة له والنصرة تفقد معناها... فلا أنصار لمن خالف الله ولا أعوان يدفعون عنه العذاب أو يرفعون عنه ما يصيبه من الغمّ والهمّ والألم في ذلك اليوم العصيب.

وبعبارة مختصرة يجب على الإنسان أن يعتمد على الوسائل التي جعلها الله قوارب نجاة وهي الإيمان والعمل الصالح، وأما شفاعة النبي محمد وآله وعفو الله فإنما تنال من كان فيه القابلية لذلك، وأما معدوم القابلية فلا يناله شيء من ذلك لقصور فيه وليس لعجز في الشفيع ـ أو صاحب العفو والمغفرة ـ.

بقي أمر يجب أن نشير إليه إشارة سريعة ـ على أن نتناوله بالبحث فيما بعد ـ

وهو أن موضوع الشفاعة أمر اتفقت الأمة عليه إلا من شذّ وانحرف، وقد صرّحت الآية بذلك كما في قوله تعالى: ﴿مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ﴾ [يونس: ٣].

وقوله تعالى: ﴿لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾ [مريم: ٨٧].

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾﴾ [طه: ١٠٩].

وأما الأحاديث فقد تواترت عند السنة والشيعة، وقد وردت في تسمية النبي والأئمة والقرآن والشهداء وغير ذلك.

ففي كتاب (من لا يحضره الفقيه): قال رسول الله ﷺ: أعطيت خمساً[١]... أعطيت الشفاعة.

وفي الكتاب المتقدم يقول النبي ﷺ: إنما شفاعتي[٢] لأهل الكبائر من أمتي.

وفي نهج البلاغة يقول الإمام علي عليه السلام: اعلموا[٣] أن القرآن شافع ومشفّع وقائل ومصدّق وأنه من شفع له القرآن يوم القيامة شفع فيه.

وما نريد بيانه أن الشفاعة في الجملة أمر مقطوع فيه وإن وقع الأخذ والرد والنقاش فإنما يكون في التفاصيل، وهذا أمر آخر وراء القول بثبوت الشفاعة كأصل يجب الاعتقاد فيه...

---

(١) من لا يحضره الفقيه، ج١، ص١٥٥.
(٢) من لا يحضره الفقيه، ج٣، ص٣٧٦.
(٣) نهج البلاغة، خطبة ١٧٧.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾﴾.

❁ ❁ ❁

اللغة

﴿نَجَّيْنَٰكُم﴾: أصل النجاء الانفصال من الشيء، ومنه نجا فلان من فلان وأنجيته ونجيّته، والنجوة والنجاة: المكان المرتفع المنفصل بارتفاعه عما حوله ونجيناكم خلصناكم.

﴿ءَالِ﴾: قالوا إن أصلها أهل لتصغيرها بأهيل فأبدلت هاء ألفاً والأهل الأعم والآل أخص، وهم الذين يؤولون إليه بنسب أو قرابة غُلب عليهم فنسبوا إليه.

﴿فِرْعَوْنَ﴾: اسم لمن ملك مصر من العمالقة كقيصر ملك الروم.

﴿يَسُومُونَكُمْ﴾: يولونكم، وسامه خسفاً إذا أولاه ظلماً، وأصل السوم الذهاب في ابتغاء الشيء، وسام: السلعة إذا طلبها.

﴿ٱلسُّوٓءَ﴾: كل ما يَغُمُّ الإنسان من الأمور الدنيوية والآخروية ومن الأحوال النفسية والبدنية والخارجية من فوات مال وجاه وفقد حميم، وسوء العذاب: أشده..

﴿ٱلْعَذَابِ﴾: الإيجاع الشديد، وقد عذّبه تعذيباً: أطال حبسه في العذاب.

﴿يُذَبِّحُونَ﴾: أصل الذبح شقّ حلق الحيوانات، ويذبّحون على التكثير أي يُذبح بعضهم إثر بعض.

﴿أَبْنَآءَ﴾: جمعه: أبناء وبنون ومؤنثه ابنة وبنت والجمع بنات، وسمي بالابن لكونه بناء للأب فإن الأب هو الذي بناه وجعله الله بنّاء في إيجاده.

﴿وَيَسْتَحْيُونَ﴾: يستبقون.

﴿ٱلنِّسَآءِ﴾: جمع مفرده المرأة، وهي الأنثى البالغة من الإنسان.

﴿ٱلْبَلَآءُ﴾: الاختبار وتارة يكون بالنعمة وأخرى بالمحنة.

﴿فَرَقْنَا﴾: من الفرق وأصله الفصل، وفرقنا بكم أي بدخولكم فصلنا بين الماءين.

﴿ٱلْبَحْرَ﴾: أصله كل مكان واسع جامع للماء الكثير، وقال بعضهم: البحر يقال في الأصل للماء المالح دون العذب.

﴿أَنجَيْنَٰكُمْ﴾: خلصناكم.

﴿أَغْرَقْنَا﴾: من الغرق وهو الرسوب في الماء، وجمع غريق غرقى.

﴿تَنظُرُونَ﴾: من النظر وهو تقليب البصر والبصيرة لإدراك الشيء ورؤيته.

التفسير

بعد أن امتنّ الله على بني إسرائيل بذكر النعم عليهم بشكل عام ـ فيما تقدم ـ أراد سبحانه هنا أن يُفصّل تلك النعم لتكون أشد أثراً في نفوسهم وأكثر وقعاً في قلوبهم فيلتفتوا إلى شكر من أنعم عليهم بها.

فقال تعالى: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾﴾.

اذكروا يا بني إسرائيل نعمة الله عليكم إذ خلّصكم وأنقذكم من آل فرعون الذين كانوا يولونكم أشدّ العذاب وأقساه، وفسّر ذلك بطريقة مؤلمة على النفس مؤذية للشعور تهدّ كيان الإنسان وتهزه من الأعماق. . إنها واحدة من أقسى المحن التي تعرّض لها بنو إسرائيل حيث ذهب فرعون وآله ومن حوله إلى ذبح صبيان بني إسرائيل وترك النساء من أجل الاستخدام والعمل في بيوت القبط. . .

إن ذلك كان بلاءً عظيماً، وامتحاناً عسيراً صعباً إنه مما يشق على النفس تحمّله أو الصبر عليه، ولكن الله بمنّه وفضله وكرمه ـ على بني إسرائيل ـ رفع هذا البلاء وأخرجهم منه وكتب لصبيانهم الحياة وصانهم من فرعون وفعله. .

وأيّ نعمة أعظم من نعمة تحفظ للآباء أبناءهم، وتحفظ للنساء كرامتهن وعفافهن فلا يُستخدمن بإذلال في بيوت السادة والكبار من القبط. . .

إنها نعمة تستحق من بني إسرائيل أن يقفوا عندها طويلاً ويؤدُّوا شكرها باتباع موسى والتزام ما جاء به من عند ربه لتستمر هذه النعمة وتدوم عليهم. . .

وكذلك ذكّرهم أيضاً بنعمة أخرى فقال تعالى: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾﴾.

واذكروا يوم فلقنا بكم البحر وشققناه لكم عند دخولكم فيه، فلم تصابوا بأذى نخلّصناكم من الغرق.

وأغرقنا آل فرعون ـ وبما فيهم فرعون ـ وأنتم تشاهدون نجاتكم وتشاهدون غرقهم. . .

إنها نعمة عظمى حيث يطاردكم فرعون بجنوده وتصبحون بين خطرين عظيمين، فالبحر أمامكم وفرعون خلفكم، وفي هذه اللحظات الصعبة ينفلق البحر بمجرد أن يضربه موسى بعصاه فتدخلون فيه وتكتب لكم النجاة، بينما ينال الغرق فرعون وقومه. . . وهذه نعمة مزدوجة نعمة نجاتكم من فرعون، ونعمة اجتثاث الفساد والقضاء عليه بالقضاء على فرعون وقومه. . .

إنهما نعمتان تستحقان الشكر من اليهود المعاصرين للنبي محمد ﷺ لأنهما نعمتان كانتا لآبائهم وبالتالي تعودان إليهم، لأنه لولا نجاة الآباء من القتل والغرق لم يبق الأبناء. . . إنهم أبناء مَنْ لو لم يتداركهم الله برحمته فيرفع عنهم القتل والغرق لما كان هؤلاء على قيد الحياة. . . ومن شكر هاتين النعمتين أن يؤمن بنو إسرائيل بمحمد ﷺ ويصدقونه حيث أخبرهم بهاتين النعمتين وهو الأميُّ الذي لم يقرأ كتاباً ولم يعرف عنهم وعن ماضيهم شيئاً. . .

فوائد

١ ـ في الكتاب العزيز ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ وقرىء أيضاً: وإذ أنجيناكم وأيضاً: وإذ نجيتكم. . .

٢ ـ البلاء: الاختبار وقد يكون بالخير وقد يكون بالشر.

٣ ـ ذلكم يرجع إلى التذبيح والاستحياء وقال بعضهم يرجع إلى الإنجاء والأول أظهر وأقرب إلى الفهم. .

٤ ـ من حكمة الله تعالى أن فرعون افتخر بملكه للماء في قوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ﴾ [الزخرف: ٥١] فكان أن أغرقه الله في الماء وأماته فيه. . .

وأيضاً من تقدير الله والأسرار في قصة موسى وفرعون أنَّ أم موسى قذفت ابنها في اليمّ وخافت عليه من الموت فيه غرقاً، فكان أن نجّاه الله وأوصله إلى قصر فرعون، بينما فرعون مات غرقاً في الماء الذي كان به نجاة موسى. . .

قال تعالى: ﴿وَإِذْ وَعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾﴾.

اللغة

﴿وَٰعَدْنَا﴾: من وعَدَ، والوعد هو الخبر عن خير يناله المخبر في المستقبل أو شرّ، والمفاعلة على بابها وهي من طرف فعل ومن آخر قبوله.

﴿مُوسَىٰٓ﴾: النبي العظيم صاحب فرعون ومدمِّره.

﴿لَيْلَةً﴾: مؤنث ليل، وجمعها ليال وليائل وليلات ووقتها من غروب الشمس إلى طلوع الفجر الثاني.

﴿ٱتَّخَذْتُمُ﴾: من أخذ، والأخذ حوز الشيء وتحصيله والاتخاذ افتعال من أخذ، ويجري مجرى الجعل...

﴿ٱلْعِجْلَ﴾: ولد البقرة.

﴿ٱلْعَفْوَ﴾: من عفا وأصله القصد لتناول الشيء، وعفت الريح الدار قصدتها متناولة آثارها، وعفوت عنه قصدت إزالة ذنبه صارفاً عنه والعفو هو التجافي عن الذنب.

التفسير

وهذه أيضاً واحدة من جملة النعم على بني إسرائيل يذكّرهم الله بها.

﴿وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ واذكروا إذ واعدنا موسى أن ننزل عليه التوراة بعد إتمام أربعين ليلة من موعدنا له.

﴿ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ وفي غيبته وأثناء ذهابه لتلقي التوراة - وإنجائنا لكم وإغراقنا - لفرعون توجهتم نحو العجل، فاتخذتموه ربّاً وأخذتم في عبادته تاركين كل جهاد موسى في تعليمكم وتوجيهكم وراء ظهركم... إن هذا الفعل منكم فعل الظالمين لأنفسهم وفعل الظالمين للحقيقة التي يجب أن يؤمنوا بها ويلتزموا بأحكامها...

وهذا الفعل من بني إسرائيل وردّتهم السريعة في أثناء الغياب القصير لموسى يدلّل على أنهم قوم جاهلون بعيدون عن العلم والثقافة والوعي يميلون مع كل ريح ولو كانت من قبل السامري الماكر، حيث صدّقوه واتبعوه وخالفوا موسى صاحب المعجزات التي وقعت أمامهم ومعهم وبمرأى ومسمع منهم...

إنها فترة قصيرة أمر الله موسى أن يترك قومه أربعين ليلة يتعبّد بها، وعيّن له المكان الذي يأخذ فيه التوراة، وفي أثناء هذا الغياب القصير يتولى السامري الفتنة، فيجمع ما يملكه بنو إسرائيل من ذهب ثم يصوغ لهم عجلاً له خوار ويدعوهم إلى عبادته، ويقول لهم: هذا إلٰهكم وإلٰه موسى، وتقع الردّة بأبشع صورها ويضيع صوت هارون والقلة المتبقية معه أمام صخب العامة واندفاعهم، وتتوجه الغالبية نحو عبادة العجل تاركة كل تعاليم موسى وإرشاداته وما جاءهم به وراء ظهورهم... إنها ردّة قبيحة تمارس أثناء غياب موسى الذي لم يتجاوز غيابه عنهم الأربعين ليلة...

إنه ظلم فاحش يحتاج تكفيره إلى توبة صادقة وإن كانت قاسية، وسيأتي الحديث عن ذلك في الآيات المناسبة...

وعلى كل حال فالله امتنّ عليهم بالعفو عنهم فقال: ﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

وهذه نعمة يجب أن يتذكرها بنو إسرائيل.. إنه سبحانه عفى عما ارتكبوه من عبادة العجل ـ قطعاً بعد توبتهم وندمهم واعترافهم بخطيئتهم وقبولهم ما افترضه عليهم ككفارة لهذه الردّة كما يأتي بعد قليل.. إنه سبحانه عفى عنهم هذا الذنب العظيم وغفره لهم يستوجب ويستحق منهم أن يقفوا موقف الشاكرين لله الذي قبل توبتهم وعفى عن ذنوبهم...

إنه سبحانه يستحق الشكر ويجب على بني إسرائيل المداومة على الطاعة وترك التمرد والعصيان.

فوائد

١ ـ المعتمد في القرآن العزيز قراءة ﴿وَٰعَدْنَا﴾ بألف وكأنّ الأمر تم بين الله وموسى، فالله وعد موسى، وموسى لبّى واستجاب فحصلت المواعدة.. وقرأ بعضهم «وعدنا» بغير ألف بحجة أن وعدنا تقع بين البشر ولا تقع بين الله وأحد من خلقه فقرأ وعدنا لهذا السبب.

٢ ـ أكثر المفسرين قالوا: على أن الأربعين ليلة هي: ذو القعدة وعشرة من ذي الحجة.

٣ ـ ذكر الليلة ولم يذكر اليوم لأن افتتاح الميقات كان من الليل أو لأن الليالي أول الشهور، فلذا يثبت أول الشهر بظهور الهلال ليلاً فيكون غداً منه، فالغد تابع لليل وثابت به.

٤ ـ فرّقوا بين العفو والغفران، فعفو الله قد يكون بعد العقوبة وقبلها أما الغفران، فلا يكون معه عقوبة أبداً...

قال تعالى: ﴿وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾﴾.

اللغة

﴿ءَاتَيْنَا﴾: أعطينا.

﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾: التوراة.

﴿ٱلْفُرْقَانَ﴾: مصدر فرق بين الشيئين إذا فصل بينهما.

التفسير

وهذه نعمة من نعم الله يذكّر الله بها بني إسرائيل ﴿وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾﴾ اذكروا نعمتي عندما أعطيت موسى التوراة التي جعلتها فارقة بين الحق والباطل والمميزة لأحدهما عن الآخر، من أجل أن تهتدوا للحق فتعملوا به وتعرفوا الباطل فتنتهوا عنه...

وإنزال الكتاب على موسى من أعظم النعم على بني إسرائيل، كما أن إنزال أيِّ كتاب إلى أيِّ أمة هو أعظم نعمة عليها، لأنه القانون الإلٰهي الذي يضع البرنامج العملي لهذا الإنسان.. إن الكتاب الإلٰهي هو الذي يأخذ بيد الإنسان إلى طريق الحق، ويوصله إلى مرضاة الله، وهذا الكتاب هو الذي يعيّن للمكلف

تكليفه بعد ارتحال الرسول الذي أنزل عليه، خصوصاً إذا لم تلعب به يد التحريف والتزييف.. وإن التوراة والإنجيل كتابان إلٰهيان يؤمن بهما المسلم كما أنزلا على قلب موسى وعيسى، ولكنه على علم الآن من أن الأيدي الآثمة قد تلاعبت بأحكامهما وحرّفت آياتهما، وقد نص القرآن على ذلك وقوله الحق وكلامه الصدق ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ [المائدة: ١٣].

وأما القرآن العزيز فهو الوثيقة الإلهية الوحيدة التي لم يطرأ عليها تحريف أو تزييف، بل بقيت على طهرها ونقائها، ونقلت إلينا كما نزلت وحافظ عليها المسلمون وداوموا على قراءتها، ليبقى الكتاب كما تلقاه المسلمون عن النبي ﷺ دون زيادة أو نقيصة..

فائدة:

١ ـ المراد بالفرقان هو التوراة، فيكون للتوراة صفتان: إنه كتاب منزل وأنه فرقان يفرق بين الحق والباطل.

وقال بعضهم أن المراد بالفرقان هو: الأحكام الفاصلة بين الحلال والحرام والكفر والإيمان، وبعبارة أخرى بيان أصول الدين وفروعه التي يُميّز بها المؤمن من الكافر.

وقال بعضهم: إن الفرقان هو النصر واستدلّ بقوله تعالى: ﴿يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ﴾ [الأنفال: ٤١] هو يوم النصر وهو يوم بدر.

وقال بعضهم: الفرقان هو ما أعطاه الله لموسى من اليد البيضاء والعصى وانفلاق البحر وغيرها من الآيات...

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾﴾.

❁ ❁ ❁

اللغة

﴿ٱلْقَوْمِ﴾: جماعة الرجال في الأصل دون النساء، ولذلك قال ﴿لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ﴾ [الحجرات: ١١] وفي عامة القرآن أريدُوا به والنساء جميعاً، وواحد القوم امرؤ من غير اللفظ. . .

﴿ظَلَمْتُمْ﴾: من الظلم، وهو عند أهل اللغة وكثير من العلماء وضع الشيء في غير موضعه المختص به إما بنقصان أو بزيادة وإما بعدول عن وقته أو مكانه.

﴿أَنفُسَكُم﴾: نفس الإنسان: ذاته وشخصه.

﴿بِٱتِّخَاذِكُمُ﴾: من أخذ، والأخذ حوز الشيء وتحصيله والاتخاذ افتعال يجري مجرى الجعل.

﴿ٱلْعِجْلَ﴾: ولد البقر.

﴿تُوبُوٓا۟﴾: من التوبة وهي الرجوع إلى الله والعودة إليه.

﴿بَارِئِكُمْ﴾: البارىء الخالق.

﴿ٱقْتُلُوٓا۟﴾: من القتل وأصله إزالة الروح عن الجسد كالموت، ولكن إذا اعتبر بفعل المتولّي لذلك يقال قتل، وإذا اعتبر بفوت الحياة يقال موت. . .

﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾: قَبِل توبتكم.

التفسير

وهذه نعمة كريمة حصلت على أثر انحراف بني إسرائيل عن عبادة الله، فدعت موسى إلى أن يحفظ عليهم دينهم بإرشادهم إلى التوبة التي دعت إلى قتل طائفة منهم بأيديهم فغسلت بهذا العمل ذلّ المعصية فقبل الله توبتهم. . .

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ﴾ الذين اتخذوا العجل إلهاً يعبدونه أثناء غيابه لملاقاة الله وتلقي التوراة منه إذ قال لهم ﴿يَٰقَوْمِ﴾ نسبهم إلى نفسه لما في هذه النسبة من العطف والرقة.

﴿إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ﴾ بانحرافكم عن عبادة الله إلى عبادة العجل، أسأتم إلى أنفسكم وأدخلتم عليها الضرر والأذى، وهذا الضرر لعظيم جرمه وكبير إثمه استدعى من موسى أن يرشدهم إلى طريق العودة إلى الله، فقال لهم:

﴿فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ﴾ أي إن إقدامكم على ظلم أنفسكم بانحرافكم إلى عبادة العجل يحتاج إلى توبة تعودون بها إلى الله خالقكم ومصوّركم من العدم. . .

إنها التوبة إلى الله بأيّ معنى كانت يجب أن يتقبلها قوم موسى ليتخلّصوا من أعباء هذه المعصية وآثار هذا الانحراف. . . يجب على قوم موسى أن يعودوا إلى الله ويرجعوا إليه مهما كانت هذه التوبة شاقة وصعبة. . . حقاً إنها توبة صعبة، ولكنها طالما تطهرهم وتعيدهم إلى الله فهي مقبولة ومفروض عليهم أن يمارسوها ثم أرشدهم إلى هذه التوبة فقال:

﴿فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ﴾.

هذا هو الطريق الصحيح إلى التوبة. . . فهذا الجرم العظيم يستحق هذا

العقاب الأليم... الردة عن عبادة الله إلى عبادة العجل تمثل القتل المعنوي للفكرة الإلهية، فاستحقت لكي تعاد أن يقضى على الجسد المادي الذي حمل هذا الانحراف...

﴿فَاقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾: تناولوها بالقتل إما أن يقتل كل واحد منكم نفسه، أو يقتل بعضكم بعضاً كما وردت بذلك الروايات، أو يقتل الذين لم يرتدُّوا عن عبادة الله مَنْ ارتد إلى عبادة العجل، والمهم في الأمر أن تجري عملية القتل الماديّ للأجسام العاصية التي مارست عبادة العجل؛ ثم إنه بيَّن لهم حسن هذه التوبة بهذه الطريقة.

﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ﴾ لأن في قتل النفس قتل لملذات الدنيا وما فيها وقطع لأيامها القليلة، ولكنها تحفظ دينكم وآخرتكم فهي عند خالقكم عظيمة ومقبولة لأثرها الوضعي في الدار الآخرة...

وفعلاً التزم القوم بهذا الأمر وامتثلوا قتل أنفسهم... إنهم خاضوا مع أنفسهم حرباً قاسية قضت على الانحراف بالقضاء على المنحرفين، فكانت النتيجة الطيبة توبة كريمة طهَّرتهم من لوثات الكفر والارتداد.

﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ قبِل توبتكم وأعادكم إلى رحابه... طهَّركم من دنس الارتداد، وقَبِلَ منكم مَنْ بقي بعد هذه التوبة الصادقة.

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ فالله هو الذي يتقبل توبة عباده مهما تعددت ذنوبهم وتكثرت ومهما كانت كبيرة وعظيمة... إنه الرحيم بهم الذي يقبل توبتهم ويحفظ لهم جنتهم...

فائدة

أخطأ أرباب المعاني حينما فسروا العجل هنا بالنفس، وأن من أسقط هذه النفس فقد برىء من الظلم، لأن هذا المعنى مخالف للمعنى الحقيقي في هذا الخطاب القرآني، بل العجل حقيقة وقوم موسى عبدوه حقيقة فظلموا أنفسهم فاستدعى ذلك منهم التوبة فتابوا كما أمرهم الله فقبل توبتهم...

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾.

اللغة

﴿نُّؤْمِنَ لَكَ﴾: آمن له: صدّقه.

﴿جَهْرَةً﴾: مصدر جهر، يقال لظهور الشيء بإفراط حاسة البصر أو حاسة السمع، أما البصر فكما تقول رأيته جهاراً أي علانية وبالعين، والجهر بالقراءة إظهارها.

﴿فَأَخَذَتْكُمُ﴾: من الأخذ وهو حوز الشيء وتحصيله، وهنا بمعنى أحاطت بكم.

﴿ٱلصَّٰعِقَةُ﴾: جمعها صواعق، وهي نار تسقط من السماء في رعد شديد.

﴿تَنظُرُونَ﴾: ترون وتبصرون.

﴿بَعَثْنَٰكُم﴾: أحييناكم وأصل البعث إثارة الشيء وتوجيهه، يقال بعثته فانبعث ويختلف البعث باختلاف ما علق به.

التفسير

وهذه نعمة تستحق الشكر، يجب أن يقف يهود المدينة ـ وكل اليهود ـ موقف المعترفين بنبوة محمد ﷺ فلا يتمردوا على ما جاء به من عند الله أو يرفضوا الإيمان به.. تذكيراً للموجودين بنعمة إحياء آبائهم عندما طلبوا أمراً مستحيلاً فأماتهم الله ثم أحياهم، لكي لا يطلب هؤلاء من النبي ﷺ ما هو مستحيل فيصيبهم ما أصابهم ثم لا يكون لهم إحياء أو إعادة إلى الدنيا.

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ﴾ قولاً عظيماً ينتهي إلى الجهل بالله والجهل بصفاته.

﴿يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ هذه هي مقولتهم وبكل جرأة وجهل، كانت مقولتهم لنبيهم موسى إننا لن نصدقك فيما تتلقاه من الوحي ونسمعه من الكلام وتنسبه إلى الله، إلاّ إذا أريتنا الله علانية وبأبصارنا التي نحملها ونرى بها...

إنها كما قالوا قصة السبعين رجلاً الذين اختارهم موسى لميقات ربّه حتى يشهدهم على كلام الله معه وأن ما يتلقاه من التوراة هو كلام الله الموحى به إليه، وبالرغم من سماعهم الكلام الإلٰهي ويقينهم به، فإنهم طلبوا أمراً عظيماً يستحيل تحقيقه، طلبوه تعنتاً وتعجيزاً حيث طلبوا رؤية الله بأعينهم، ولما كان طلبهم يتضمن الجهل بالله ويدلّل على المخالفة للعقل والنقل، ويحمل معه التعنّت الصلف كان ما أخبر به سبحانه عنه في قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾.

سقطت عليكم النار من السماء فقضت عليكم وأماتتكم، ولقد كانت هذه العملية بمقدماتها ونتيجتها بمرأى منهم لتكون مؤثرة أكثر.. إنهم ينظرون إلى الصاعقة تسقط عليهم وتأخذهم ليعتبروا ويتعظوا بهذا الأخذ الشديد وليكون أشد ردعاً فيما لو عادوا إلى الدنيا وكتبت لهم الحياة من جديد...

إنهم ماتوا ولكن موسى طلب من ربّه أن يحييهم ويعيدهم إلى الحياة فاستجاب الله له.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ إنها نعمة عظيمة... إحياء الله لهؤلاء القوم بعد أن أماتهم بالصاعقة... ردُّهم إلى الحياة الدنيا وهذه واحدة تستحق الشكر، فحق للأبناء أن يقوموا بشكر الله الذي أحيا آباءهم وكانوا الخلف من بعدهم وكتبت لهم الحياة بحياة آبائهم... يجب على الآباء شكر الله بالأصالة، ويجب على الأبناء أيضاً شكره، لأن النعمة على الآباء هي نعمة على الأبناء...

قال تعالى: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٥٧)﴾.

اللغة

﴿وَظَلَّلْنَا﴾: من الظل وهو الحاجز بينك وبين الشمس أي شيء كان، وفي الحديث «السلطان ظل الله في الأرض». هو على الاستعارة لأنه يدفع الأذى عن الناس كما يدفع الظل أذى الشمس..

﴿الْغَمَامَ﴾: اسم جنس كغمام ومفرده غمامة، وهو السحاب وقيل ما ابيضْ منه، وسمي غماماً لأنه يغم السماء أي يسترها.

﴿أَنزَلْنَا﴾: من نزل وهو في الأصل انحطاط من علو وإنزال الله نعمة على الخلق إعطاؤهم إياها، إمّا بإنزال الشيء نفسه أو بإنزال أسبابه..

﴿الْمَنَّ﴾: قيل إنه كالطلّ فيه حلاوة يسقط على الشجر.

﴿وَالسَّلْوَىٰ﴾: طائر السماني، وقيل طائر يشبه السماني، وقيل إن المنْ والسلوى جميع النعم التي منّ الله عليهم بها مما لا تعب فيه ولا نصب.

﴿الطَّيِّبَاتُ﴾: من الطيّب وأصله ما تستلذه الحواس ومما تستلذّه النفس، والطعام الطيّب في الشرع ما كان متناولاً من حيث ما يجوز وبقدر ما يجوز ومن المكان الذي يجوز..

﴿رَزَقْنَٰكُمْ﴾: من الرزق يقال للعطاء الجاري تارة دنيوياً كان أم أخروياً وللنصب تارة ولما يصل إلى الجوف ويتغذى به تارة..

التفسير

إن بني إسرائيل لما امتنعوا أن يدخلوا مع موسى بيت المقدس ويحاربوا معه العمالقة ابتلاهم الله بالتيه أربعين سنة، حيث حرارة الشمس تحرق رؤوسهم وأبدانهم، وأيضاً لا مآكل ولا مشارب مما تنتجه أيديهم، لذا سخر الله لهم الغمام يقيهم حرَّ الشمس وأنزل إليهم المآكل الشهية التي لا تكلفهم جهداً ولا عناء، ومن هنا يمتّن الله عليهم بهذه النعم الجليلة لعلهم يفيئون إلى ظلال الله ولا يعصونه أو يخالفون أوامره وأوامر الأنبياء، فقال تعالى: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ﴾ أرسل الله السحاب يقيهم حر الشمس وهذه نعمة تستحق وحدها أن يقف بنو إسرائيل موقفاً كريماً في أداء شكره...

﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ﴾ وهذه نعمة أخرى تضاف إلى سابقاتها، إنها نعمة الغذاء الطيب الذي يحصل عليه بنو إسرائيل بدون كدّ ولا تعب... فالله ينزِّل عليهم المنّ وهو كالطّل يسقط على الأشجار فيتناولون منه قدر حاجاتهم وهو في الطعم كالعسل، وأما السلوى فهو أطيب الطيور لحماً كالسماني، أو هو السماني نفسه يرسله الله إليهم فيتناولونه بدون تعب.

إنها نعمة عظيمة واعتناء بهم لعلهم يشكرون... ولكن هل شكروا الله على هذه النعمة... إنهم باستمرار على طريقتهم في التمرد والعصيان...

﴿كُلُوا مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٠] إنه رزق طيّب تستلذه النفس وترتاح له، لا يؤذي ولا يعسر هضمه... إنه رزق أنزله الله إليهم فحق لهم أن يؤدوا شكره ويحفظوا عهده، ولكنهم كانوا على عهدهم في كفران النعمة وتبديلها...

إنهم ظلموا أنفسهم عندما تمرّدوا على أوامر الله. . . إنها طبيعة بني إسرائيل الدائمة والمستمرة يبتدأهم الله بالنعم ويقابلونه بالمعاصي والطغيان. . . إنهم باستمرار يتمردون على كل نعمة ويواجهون الله بكفرانها. . . إنهم لم يظلموا الله لأنه الغني الذي لا يطاله ظلم، وإنما يظلمون أنفسهم ويُدخلونها النار. . .

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾﴾.

اللغة

﴿الْقَرْيَةَ﴾: جمعها قرى، اسم للموضع الذي يجتمع فيه الناس وللناس جميعاً ويستعمل في كل واحد منهما، وقرى الشيء في فمه جمعه وقريان الماء مجتمعه...

﴿رَغَدًا﴾: بفتح الغين وهو العيش الدّار الهني الذي لا عناء فيه.

﴿سُجَّدًا﴾: من السجود وأصله التضامن والتذلل، وجُعل ذلك عبارة عن التذلل لله وعبادته، وأما في الشريعة فهو الركن المعلوم المتقوم بوضع الجبهة على الأرض..

﴿حِطَّةٌ﴾: مصدر حط وأصله الحدر من علو، وحط الأحمال إذ وضعها عنها.

﴿نَّغْفِرْ﴾: من الغفر وهو إلباس ما يصونه عن الدنس والغفران، والمغفرة من

الله هو أن يصون العبد من أن يمسه العذاب، وقيل اغفروا هذا الأمر بغفرته أي استروه بما يجب أن يستر به، والمغفر بيضة الحديد وحدُّ المغفرة: ستر الخطيئة برفع العقوبة.

﴿خَطَايَاكُمْ﴾: جمع خطيئة وهي المعصية.

﴿سَنَزِيدُ﴾: من زاد والزيادة أن ينضم إلى ما عليه الشيء في نفسه شيء آخر.

﴿الْمُحْسِنِينَ﴾: المحسن: فاعل الإحسان أو الفاعل للحسن والإحسان فوق العدل، وذاك أن العدل هو أن يعطي ما عليه ويأخذ ما له وأما الإحسان بأن يعطي أكثر مما له ويأخذ أقل مما له، فتحري العدل واجب وتحري الإحسان ندب وتطوع.

﴿فَبَدَّلَ﴾: التبديل: التغيير مطلقاً، فإذا كان العوض هو أن يصير الثاني مكان الأول فالتبديل تغيير الأول وإن لم يأت مكانه..

﴿الرِّجْزُ﴾: العذاب.

﴿السَّمَاءِ﴾: في اللغة كل ما علاك فأظلك فهو سماء، ومنه قيل لسقف البيت سماء.

﴿يَفْسُقُونَ﴾: من الفسق، وهو الخروج عن حجر الشرع من قولهم: فسق الرطب إذا خرج عن قشره وهو أعم من الكفر، والفسق يقع بالقليل والكثير من الذنوب، وأكثر ما يقال الفاسق لمن التزم حكم الشرع وأقرّ به ثم أخلّ بجميع أحكامه أو ببعضه.

التفسير

قصة بني إسرائيل مع موسى قصة مشجية ومؤلمة يتكشّف من خلالها مدى تمردهم وعصيانهم وخروجهم عن قواعد الشرع والأدب واللياقة في التصرّف وجميل التعاون.

وهذه واحدة من نعم الله عليهم. . . إنها عناية الله تتوجّه إليهم وتأخذ بأيديهم وتنقلهم بدقة وهدوء وتدلّهم على أبواب الخير والتقوى ولكنهم يرفضونها ويتمردون عليها.

﴿وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ﴾ اذكروا أيها الحاضرون من بني إسرائيل كيف كانت عناية الله بأجدادكم حيث أمرهم بدخول مدينة بيت المقدس وأباح لهم أن يتناولوا كل ما فيها من طيب المآكل وشهيها ولذيذ طعامها. . . إنها بلدة طيبة فيها الحياة الناعمة الوادعة الهنيئة أرادها الله لهم وأمرهم أن يدخلوها ولكن على شرط.

﴿وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

إن دخولكم بيت المقدس يجب أن يكون في حالة متواضعة، يشعر الواحد وهو داخل أنه في قبضة الله وتحت حكمه وسلطانه. . . إنها حالة نفسية من التذلل لله والتواضع له وفي حالته هذه يجب أن يقول ربنا حطّ عنا ذنوبنا فيقترن الفعل مع القول ليشكلا طاعة خالصة من هذا المخلوق نحو الله. . . ولرحمته وعنايته بهم فقد أخذ على نفسه أن يزيد في ثواب المطيع ويرفع من درجاته، كما أن المسيء في غير هذا المقام إذا أطاع هنا يرفع عنه سيئاته ويغفر له خطاياه. . .

إنها نعمة عظيمة أرادها الله لبني إسرائيل، ولكنهم لطبيعتهم الخبيثة التي تعودت التمرد رفضوا ذلك وأبوا. . . إنها صورة ينقلها كتاب الله وتكاد تنطق بواقع عاشوه ومارسوه. . . وليتهم سكتوا واكتفوا بذلك بل إنهم أخذوا يبدلون كلام الله المأمورين به ويغيّرونه بما فيه استهزاء واستخفاف. . .

﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ﴾ إنهم غيّروا ما أمرهم الله به وأبدلوه بما يخالفه ويضاده. . إنهم أمروا أن يقولوا حطّة ـ حطّ عنا ذنوبنا ـ فإذا بهم ـ كما في الروايات ـ قد قالوا: حبة حنطة أو غيرها مما يخالف أمر الله. . . إنها جرأة لا يُقدِم عليها إلا شقي يتعرض فيها لعذاب الله وانتقامه وهكذا كانت العاقبة عذاب من السماء.

﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ إنه عذاب إلهي يسقط على الذين ظلموا.. إنها جريمة تستحق هذا العقاب...

إنها مخالفة لتعاليم الله من فئة منحرفة كانت عاقبتها إنزال العقوبة بها بهذه الشدة.. إنها عقوبة مباشرة طالت المتمردين وفي بعض التفاسير أن هذا العذاب شمل في ساعة واحدة أربعة وعشرين ألفاً من كبرائهم وشيوخهم وبقي الأبناء فانتقل عنهم العلم والعبادة...

فوائد

١ - اختلفوا في المراد بهذه القرية في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ﴾.

فالمشهور والمعروف والذي يعتمد عليه أنه بيت المقدس، وهناك قول أنها أريحا البلدة المعروفة قرب القدس.

٢ - قوله ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾.

قال بعضهم إن المراد بـ ﴿سُجَّدًا﴾ رُكّعاً، وقال آخرون ادخلوا خاضعين متواضعين..

٣ - قال بعضهم إن قوله ﴿حِطَّةٌ﴾ يراد به حط عنا ذنوبنا ويكون أمراً بالاستغفار.

وقال بعضهم: إن هذه الكلمة غير عربية، ولكنها معروفة، بالمعنى عند أهل الكتاب، وهذا قول لا يعتنى به ولا يلتفت إليه.

٤ - في عيون الأخبار بالإسناد إلى الرضا[1] عن أبيه عن آبائه عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: لكل أمة صدّيق

(١) تفسير نور الثقلين، ج١، ص٨٢.

وفاروق، وصدّيق هذه الأمة وفاروقها علي بن أبي طالب، إن علياً سفينة نجاتها وباب حطتها...

وفي كتاب الخصال في مناقب[1] أمير المؤمنين عليه السلام وتعدادها قال علي عليه السلام وأما العشرون فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول لي: مثلك في أمتي مثل باب حطّة في بني إسرائيل فمن دخل في ولايتك فقد دخل الباب، كما أمره الله عز وجل..

(١) تفسير نور الثقلين، ج١، ص٨٢.

قال تعالى: ﴿وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾﴾.

❁ ❁ ❁

اللغة

﴿ٱسْتَسْقَىٰ﴾: من سقى والسَّقيُ والسُّقيا أن يعطيه ما يشرب فاستسقى موسى لقومه طلب لهم الماء.

﴿ٱلْحَجَرَ﴾: هو الجوهر الصلب المعروف وجمعه أحجار وحجارة.

﴿فَٱنفَجَرَتْ﴾: من فجر، والفجر شق الشيء شقاً واسعاً يقال فجرُته فانفجر وفجّرته فتفجّر، وقيل للصبح فجر لأنه فجر الليل والفجور شق ستر الديانة.

﴿ٱلْعَيْنُ﴾: منبع الماء ويجمع على عيون.

﴿عَلِمَ﴾: عرف.

﴿أُنَاسٍ﴾: جمع لا واحد له من لفظه.

﴿مَّشْرَبَهُمْ﴾: المشرب: العين التي يشرب منها فالمشرب اسم مكان أي محل الشرب.

﴿تَعْثَوْا﴾: العيث والعثي: أشد الفساد.

التفسير

عندما رفض بنو إسرائيل الأمر الإلهي بدخول الأرض المقدسة عاقبهم الله بالتيه في الصحراء، ولكنهم وهم في تلك الحالة الصعبة لم يتخلَّ الله عنهم، فأرسل عليهم الغمام يظلّهم ويقيهم حرَّ الشمس ولهيبها ثم أنزل عليهم المن والسلوى ليأكلوا من طيبات الله. نعم لم يبق لبني إسرائيل إلا الماء فعلى موسى أن يتقدم من ربه بطلب ودعاء أو معجزة يحقق لهم هذا الماء الذي يتوقف عليه حياتهم، فمن هنا يستسقي موسى لقومه ويطلب من الله أن يحقق لهم وجود الماء.

﴿وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ﴾ اذكروا هذه النعمة التي تفضّل بها الله على بني إسرائيل حينما طلب موسى من ربه الماء لقومه فكان الأمر الإلٰهي لموسى بتحقيق السبب فحسب، ثم يتحقق ما يريد.

﴿فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ﴾.

إنه أمر يصدر من الله إلى موسى فيتلقاه النبي بشوق ولهفة بقوله تعالى: ﴿ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ﴾ ولم يكد موسى يسمع الأمر حتى يبادر، فعصاه بيده والأحجار كثيرة، فعمد إلى حجر فضربه بالعصا ﴿فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ﴾ خرج الماء الزلال من الحجر الصلد بضربة من العصا... انفجرت الماء من الحجر بعدد أسباط بني إسرائيل الاثني عشر، وقد تميّز كل سبط بالعين التي يشرب منها ويختص بها..

كيف تم ذلك؟ وكيف يخرج الماء من الحجر الصلد؟ وكيف يخرج الماء الكثير من الحجر الصغير؟... إنها أسئلة متعددة يجاب عنها بكلمة واحدة. إنه أمر الله وإرادته يقول للشيء كن فيكون... يخلق من اللاشيء شيئاً ومن العدم الوجود... ليس لقدرة الله تحديد أو تقييد، ومن شك في ذلك وجب عليه مراجعة عقيدته وتصحيحها من جديد...

نعم إنه سبحانه جعل لموسى سبباً، فعلى موسى أن يستعمله لتحقيق غرضه ألا وهو الماء، إن عليه أن يتناول العصا فيضرب بها الحجر، فتحقيق هذا السبب يكون محققاً للماء، وهكذا كان...

إنها المعجزة التي تلغي قوانين الأسباب والمسببات والعلل والمعلولات وتتحدى ما تعارف عليه الناس أو تبانوا عليه...

إنها المعجزة تخرج عن القواعد المألوفة، وبهذا الخروج عن المألوف كانت معجزة وأخذت في تحدي الناس أن يأتوا بمثلها.

بهذه العصا التي كانت مدار حوار بين الله وموسى، وبهذه العصا التي أخذت صفة المعجزة لموسى، فكانت ثعباناً تلقف ما صنع السحرة... بهذه العصا ذات الخصائص والصفات الخاصة كانت ضربة الحجر فانشق وخرجت اثنتا عشرة عيناً لكل عينٍ ما يفردها عن غيرها ويعيّنها لأهلها من أسباط بني إسرائيل...

ويأتي بعد هذه النعمة الكريمة الخطاب الإلٰهي لبني إسرائيل.

﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾.

امتنّ بما تفضّل به عليهم حيث أنزل عليهم المن والسلوى وأخرج إليهم الماء من الحجر وكل ذلك بدون تعب ولا كد أو نصب وهذا يستحق منهم أن لا يتمادوا في الفساد.

﴿وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ فإن حق هذه النعم أن تقابل بالشكر، ولكن لطبيعة بني إسرائيل العدوانية والمفسدة باستمرار، نهاهم سبحانه عن التمادي في الفساد وعدم ممارسته أو القيام فيه...

فوائد

١ ـ اللام في ﴿ٱلْحَجَرَ﴾ إما للعهد والإشارة إلى حجر معين، وإما للجنس أي حجر كان وهذا كما قالوا أظهر في الحجّة وأبين في القدرة.

٢ ـ قال سبحانه هنا في الآية ﴿فَٱنفَجَرَتْ﴾ بينما في سورة الأعراف ﴿فَٱنۢبَجَسَتْ﴾ وكأن بينهما تناقض لأن الانفجار خروج الماء بكثرة بينما الانبجاس خروجه قليلاً.

والجواب: أنه لا تناقض أبداً إمّا لأنه ينبجس أولاً ثم ينفجر كما هي عادة العيون تبتدىء قليلة ثم تنفجر...

وإما لأنه عند حاجتهم للماء كان ينفجر الماء وعند قلّة حاجته ينبجس..

وإما عند وضعه كان ينفجر وعند حمله ينبجس كما قيل...

٣ ـ إذا كانت بركة موسى قد فجّرت من الحجر ماء بضربة من العصا بأمر إلْهي، فإن النبي محمد ﷺ قد نبع الماء من بين أصابعه، وهي من معجزات رسول الله ﷺ المتواترة والمتناقلة في جملة معجزاته.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَـٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾﴾.

❁ ❁ ❁

اللغة

﴿ٱلطَّعَامِ﴾: من طعم والطُّعم تناول الغذاء ويسمى ما يتناول منه طعم وطعام، وقد اختص بالبرّ في بعض الأحاديث كما أن طعمتُ قد يستعمل في الشراب.

﴿ٱلدُّعَآءَ﴾: كالنداء إلا أن النداء قد يقال بـ: يا أو أيا ونحو ذلك من غير أن يُضم إليه الاسم، والدعاء لا يكاد يقال إلا إذا كان معه الاسم ودعوته إذا سألته ادع لنا ربك أي سله..

﴿يُنۢبِتُ﴾: يخرج لنا النبات وأصله من الظهور والنبات ما يخرج من الأرض من الناميات سواء كان له ساق أم لا، ولكن المتعارف اختص بما لا ساق له.

﴿بَقْلِهَا﴾: البقل: ما لا ينبت أصله وفرعه في الشتاء وهو الخضار.

﴿وَقِثَّآئِهَا﴾: القثاء: نوع من الخيار.

﴿وَفُومِهَا﴾: الثوم وقيل الحنطة.

﴿وَعَدَسِهَا﴾: الحب المعروف.

﴿وَبَصَلِهَا﴾: هو المطعوم المعروف برائحته الكريهة..

﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ﴾: الاستبدال: وضع الشيء موضع الآخر ومنه البدل.

﴿أَدْنَىٰ﴾: أخسّ وأحقر أو من الدون وهو الأحطّ.

﴿ٱلْخَيْرِ﴾: ما يرغب فيه الكل، كالشيء النافع والخير يقابل الشر والخير يصح أن يكون وصفاً وتقديره تقدير أفعل منه نحو هذا خير من ذاك وأفضل.

﴿ٱهْبِطُواْ﴾: من الهبوط وهو النزول من فوق إلى أسفل.

﴿مِصْرًا﴾: إما اسم علم للبلاد المعروفة والتي كان يسكنها الفراعنة وإما يراد بها أي قطر وبلد.

﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ﴾: أي التحفتهم التحاف الخيمة بمن ضربت عليه، وفرضت ووضعت عليهم.

﴿ٱلذِّلَّةُ﴾: الذل والصغار.

﴿ٱلْمَسْكَنَةُ﴾: مصدر المسكين، وهو الفقير فكأنه لفقره سكنت حركته.

﴿وَبَآءُو﴾: رجعوا وعادوا.

﴿ٱلْغَضَبُ﴾: ثوران دم القلب إرادة الانتقام فإذا وصف به الله فالمراد به الانتقام فحسب.

﴿يَكْفُرُونَ﴾: من كفر والكفر لغة الستر والتغطية والكفر جحود الوحدانية أو الشريعة أو النبوة أو الثلاثة معاً، وكفر النعمة سترها بترك أداء شكرها...

﴿ٱلْآيَٰتِ﴾: جمع آية وهي العلامة الظاهرة وقيل للبناء العالي آية ولكل جملة

من القرآن دالة على حكم آية سورة كانت أو فصولاً أو فصلاً من سورة، وقد يقال لكل كلام منه منفصل بفصل لفظي آية...

﴿ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾: جمع نبي وهو المبعوث من قبل الله إلى الناس وهو من النبأ الذي هو الخبر.

﴿عَصَوا﴾: العصيان: الخروج عن الطاعة.

﴿يَعۡتَدُونَ﴾: الاعتداء: تجاوز الحد في كل شيء وقد اشتهر في المعاصي والظلم.

التفسير

لتمرد بني إسرائيل وعصيانهم تاهوا في صحراء سيناء وهم في الصحراء لم يقطع الله رحمته عنهم، بل أظلهم بالغمام وأنزل عليهم المن والسلوى وفجّر لهم الماء من الحجر، استمرت بهم الحال هكذا حتى ملّوا هذا الطعام وسئموه فاسترجعوا ما ألفوه وتربوا عليه، فلذا توجهوا نحو موسى يقولون بلسان الضجر والسأم كما يقصُّ الله مقالتهم مخاطباً الحاضرين بما جرى على لسان الماضي.

﴿وَإِذۡ قُلۡتُمۡ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصۡبِرَ عَلَىٰ طَعَامٖ وَٰحِدٖ﴾ اذكروا نعم الله عليكم حيث استجاب لكم ما طلبتم عندما توجهتم نحو موسى وبحالة من فقدان الصبر احتجاجاً على الطعام الواحد... ﴿لَن نَّصۡبِرَ﴾ بما فيها من التحدي واليأس... لن نصبر على طعام واحد... إنه المن والسلوى في كل وقت وإن جاء بدون كدّ أو تعب... وإن كان من عند الله وهو الذي وفّره لنا فإنا لن نصبر عليه...

﴿فَٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُخۡرِجۡ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلۡأَرۡضُ﴾ حنوا إلى ماضيهم واستذكروه... إن أجسامهم قد تربّت على ما تُخرج الأرض ولم يتعوّدوا على ما أنعم الله به عليهم في الصحراء من المن والسلوى... توجّه يا موسى بالدعاء إلى ربك فأنت مستجاب الدعاء، وأنت كما عوّدك الله فادعوه أن يخرج لنا مما تنبت الأرض

وماذا تنبت وما هي الأمور التي حنُّوا لها واشتاقوا إلى تناولها فليذكروا بعض أصنافها وشيئاً من مفرداتها؟

إنهم اشتاقوا إلى ما ذكروه ﴿مِنۢ بَقْلِهَا﴾ خضارها ﴿وَقِثَّآئِهَا﴾ نوع من الخيار ﴿وَفُومِهَا﴾ حنطتها أو ثومها ﴿وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا﴾.

إنها قائمة لم تغب عن أذهانهم قدّموا مضمونها بجملة ﴿مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ﴾ واهتموا بمصاديقها الخاصة التي هي الخضار والبقول ولو كانت من البصل والعدس. . . ويستمع النبي موسى هذا الطلب، وبحسرة وألم على هذه العقول الضعيفة التي لم تهتم إلا ببطونها يجيبهم بالحقيقة ﴿قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ﴾ أتعتاضون البقل والقثاء والعدس والبصل الذي هو أدنى وأخسّ من المن والسلوى الذي هو أطيب وأحسن، فالخسيس بالنفيس، ذلك اختيار غير موفق ولم يدرك الصواب أو يصيب الحقيقة.

وعلى كل حال أنتم اخترتم ما تنبت الأرض وتركتم ما أنزل الله عليكم من المن والسلوى فليكن ذلك ﴿ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ﴾ انزلوا أرض مصر التي تركتموها وهاجرتم منها فستجدون ما سألتم، وستعودون إلى أكل خضار الأرض وبقولها أو انزلوا أي مصر من الأمصار فستجدون ما طلبتم لأن ما سألتم مبذول ومتوفر وموجود. . .

ثم إنه سبحانه ذكر عدوانهم وظلمهم وكيف نالوا غضب الله لكفرهم، فقال تعالى: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ﴾ أصابتهم الذلة وشملهم الهوان ولفّهم الصّغار ولزمهم الفقر. . . فهم في حياتهم الدنيا في تعاسة وشقاء وذل وهوان وفقر وفاقة.

وأما في الآخرة ﴿وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ إنهم انقلبوا بعذاب من الله لم يرجعوا إلا إلى النار وعذاب الجبار.

ثم سبحانه علّل سبب ما أصابهم من الذلة والمسكنة وما عادوا إليه من عذاب الله. . . بيّن أن سبب ذلك هو كفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ فهذا هو السبب الأصيل لما أصابهم أنهم قوم رفضوا ما جاءهم من عند الله من آيات وكذبوا بها وحاربوها، كما أنهم عمدوا إلى النبّيين الذين حملوا هذه الآيات وبشّروا بها فقتلوهم وقضوا عليهم كما وقع ليحيى وزكريا وغيرهما من أنبياء الله.. إن قتلهم كان ظلماً فاحشاً بغير حق...

﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ كرّر اسم الإشارة - ذلك - إشارة إلى الكفر والقتل وإنهما لم يحصلا إلا لأن بني إسرائيل قوم عصاة متمردون معتدون على الحرمات متجاوزون لقوانين الشرع والدين، فعصيانهم واعتدائهم سبّب الكفر وقتل الأنبياء...

فائدتان

١ - إن قيل كيف وحدوا الطعام في قولهم ﴿لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ﴾. مع أنهما طعامان: المن والسلوى؟. قيل في الجواب إما لأنهم كانوا يأكلون الواحد بالآخر.

وإما لأنه مكرّر في كل يوم ومن كرّر فعلاً قالوا: إنه على نهج واحد وطريق واحدة...

٢ - إن قيل أن قوله تعالى: ﴿وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ يدلّ على أنه يجوز قتل الأنبياء بحق وكيف وهم معصومون عن كل ما يوجب قتلهم؟

قيل: إن هذا تعظيم لفعلهم وبيان لمدى إجرامهم إذ ليس هناك نبي يستحق القتل لأنه معصوم - وإضافة - بغير حق - لزيادة التشنيع على فعلهم.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾.

* * *

اللغة

﴿هَادُوا۟﴾: من الهَود وهو الرجوع برفق، وصار الهود في التعارف التوبة «إنا هدنا إليك» تبنا، قال بعضهم يهود في الأصل من قولهم هدنا وهاد فلان إذا تحرى طريقة اليهود في الدين..

﴿ٱلنَّصَٰرَىٰ﴾: أتباع عيسى سموا بذلك إما لقول عيسى ﴿مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ وإما انتساباً إلى قرية يقال لها نصران أو لقرية تسمى الناصرة في فلسطين.

﴿وَٱلصَّٰبِـِٔينَ﴾: جمع صابىء وهو من انتقل من دينه إلى دين آخر، وهم عبدة النجوم ولهم معتقدات تخالف الأديان الثلاثة.

﴿ٱلْخَوْفِ﴾: هو توقع مكروه عن إمارة مظنونة أو معلومة ويضاده الأمن.

﴿يَحْزَنُونَ﴾: الحُزن والحَزن خشونة في الأرض وخشونة في النفس لما يحصل فيه من الغم، ويضاده الفرح.

التفسير

تضع الآية الكريمة الميزان الصحيح لقبول الأعمال عند الله وما يستتبع ذلك من الأمن والسرور يوم القيامة، فلا تغني الاسماء ولا تنفع الألقاب والصفات بل العمدة على العقيدة السليمة للإنسان وما يقدّمه من عمل صالح.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ بألسنتهم ولم تؤمن قلوبهم كالمنافقين.

﴿وَٱلَّذِينَ هَادُوا﴾ اليهود الذين اتبعوا موسى.

﴿وَٱلنَّصَـٰرَىٰ﴾ الذين اتبعوا عيسى ﴿وَٱلصَّـٰبِـِٔينَ﴾ هم الذين عبدوا النجوم أو اتخذوا ديناً جمعوه من الأديان الأخرى هؤلاء جميعاً لا تنفعهم الأسماء ولا الانتماءات الشكلية، نعم الذي ينفع ويفيد هو ما ذكره سبحانه في قوله تعالى: ﴿مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا﴾.

إن هذا الثلاثي هو الأساس للنجاح والفوز في الآخرة ﴿ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾ كعقيدة في القلب تنطلق لتخطّط مسيرة هذا الإنسان في الحياة... الإيمان بالله المستتبع للإيمان بالرسل والأنبياء وما جاءوا به من عنده، ثم اتباعهم في كل ما أمروا، وكذلك من آمن بالله يجب أن يؤمن بالمعاد حيث يجازى الإنسان على أعماله التي عملها في الدنيا فلا تتحول هذه الحياة إلى عبث لا غاية لها ولا هدف، أو إلى غابة وحوش يفترس القوي فيها الضعيف ثم تنتهي عند هذا المشهد المخيف، ثم أخيراً العمل الصالح الذي يراه الشرع ويتبناه وأيضاً ما يراه العقلاء ويجمعون عليه...

إن هؤلاء الذين يحملون هذه العقيدة عقيدة الإيمان بالله واليوم الآخر ويعملون الصالحات أولئك ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ ثوابهم محفوظ عند الله، يعطيهم الله أجر إيمانهم وأعمالهم الصالحة ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ فلا يعتريهم فزع ولا غمّ مما يقدمون عليه وما هم فيه في الدنيا وما تركوه خلفهم فيها.. إنهم آمنون مطمئنون فرحون...

فائدة

١ - إن ما ذهبنا إليه من تفسير الآية هو الأقرب لانسجامه مع العقيدة ولأن على الناس قاطبة أن يؤمنوا بالإسلام ويعملوا به - ومن يرتضي غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين - وإن كان هناك تفسير آخر مفاده أن الذين آمنوا بالله واليوم الآخر وعملوا الصالحات بحسب زمانهم وما هو مطلوب منهم في ذلك الزمان كما هو حال اليهود زمان موسى أو النصارى زمان عيسى وهكذا، فإنهم ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ١٦٠] ولكن هذا تكلّف يصعب فهمه...

قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۖ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾ فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾﴾.

❁ ❁ ❁

اللغة

﴿ٱلْمِيثَٰقَ﴾: العهد المؤكد باليمين وهو أبلغ من العهد وجمعه المواثيق، والموثق هو الميثاق والمواثقة هي المعاهدة.

﴿وَرَفَعْنَا﴾: من الرّفع يقال تارة في الأجسام الموضوعة إذا أعليتها عن مقرها ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ﴾ وتارة في البناء إذا طولته ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ﴾ وتارة في الذكر إذا نوهته ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾﴾ وتارة في المنزلة إذا شرّفتها ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ﴾.

﴿فَوْقَ﴾: باعتبار العلو يقابله تحت.

﴿ٱلطُّورَ﴾: اسم للجبل الذي كلّم الله عليه موسى، وقيل اسم لكل جبل.

﴿ءَاتَيْنَٰكُم﴾: أعطيناكم.

﴿بِقُوَّةٍ﴾: بجد وعزم ويقين.

﴿ٱذۡكُرُواْ﴾: من الذكر وهو أن يحفظ الإنسان ما علمه وعرفه.

﴿تَوَلَّيۡتُم﴾: أعرضتم والإعراض قد يكون بالجسم وقد يكون بترك الإصغاء والائتمار.

﴿ٱلۡفَضۡلَ﴾: الزيادة والإفضال الإحسان.

﴿ٱلۡخُسۡرَانُ﴾: النقصان.

﴿عَلِمۡتُمُ﴾: عرفتم.

﴿ٱعۡتَدَوۡاْ﴾: من عدا والعدو هو التجاوز ومنافاة الالتئام، فتارة يكون بالقلب فيقال له عداوة ومعاداة، وتارة بالمشي فيقال له عَدْو، وتارة يكون في الإخلال بالعدالة في المعاملة فيقال له العدوان، والاعتداء مجاوزة الحق.

﴿ٱلسَّبۡتِ﴾: أصل السبت القطع ومنه قولهم سبت أنفه إذا اصطلحه وسبت فلان صار في السبت، والسبت يوم من أيام الأسبوع يقع بين الجمعة والأحد. . .

﴿ٱلۡقِرَدَةَ﴾: مفرده القرد وهو حيوان خبيث يضحك ويطرب، سريع الفهم والتعلم ويعرف عند العامة بالسعدان.

﴿خَٰسِـِٔينَ﴾: من خسأ وخسأت الكلب فخسأ أي زجرته مستهيناً به فانزجر وذلك إذا قلت له اخسأ وخسأ البصر انقبض عن مهانة.

﴿نَكَٰلٗا﴾: النكل قيد الدابة وحديدة اللجام لكونهما مانعين والجمع الإنكال، وسمِّيت العقوبة نكالاً لأنها تمنع عن ارتكاب مثل ما ارتكبه من نزلت به.

﴿وَمَوۡعِظَةٗ﴾: من وعظ، والوعظ زجر مقترن بتخويف، قال الخليل هو التذكير بالخير فيما يرق له القلب، والعظة والموعظة الاسم. .

التفسير

وهذه قصة الآباء وما وقع لهم مع الله وكيف أُمروا فخالفوا فكانت عناية الله

تتوجه إليهم وتنقذهم.. إنها قصة الآباء ينقلها الله إلى الأبناء الحاضرين زمن النبي ﷺ لعلهم بإخباره لهم يعرفون أنها من الوحي إليه حيث يكشف حقيقة ما عندهم، وأيضاً لئلا يخالفوا ما دعاهم إليه فيصيبهم ما أصاب آباءهم من العقوبات...

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ﴾ اذكروا إذ أخذنا منكم العهد المؤكد على العمل بالتوراة ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ﴾ في حالة رفضكم وتمنعكم أن تأخذوها وتعملوا بها، وذلك كما روي أن موسى عليه السلام جاءهم بالتوراة فقرؤا ما فيها، فلما وجدوه شاقاً عليهم رفضوه وأبوا قبوله فأمر الله جبرائيل أن يرفع الطور - الجبل - فوق رؤوسهم ويريهم الآيات العظيمة فعندما شاهدوا ذلك أذعنوا وخضعوا وقبلوها فتوجه الأمر الإلهي إليهم.

﴿خُذُوا مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ﴾ إنها التوراة أنزلناها إليكم فاعملوا بما فيها بكل قوة ومحافظة ولا تخالفوا شيئاً من أحكامها أو تتهاونوا بها.. دعاهم إلى المحافظة عليها ورعاية أحكامها.

﴿وَٱذْكُرُوا مَا فِيهِ﴾ احفظوا ما فيه وارعوه واعملوا به.. فكّروا فيما ورد في التوراة من أحكام وتشريعات وما فيه من أوامر ونواهي واعملوا بكل ذلك... ثم إنهم بعد أن أعطوا الميثاق على العمل بالتوراة فهل وفوا بما أعطوا من عهد وقدّموا من ميثاق؟ وهل التزموا بقوة وكانوا عند التزاماتهم أم خالفوا ذلك وضربوا به عرض الجدار...؟!

إنهم ليسوا أوفياء... ينقضون عهودهم ومواثيقهم باستمرار ويرفضون العمل بما التزموا به وما أخذوه على أنفسهم ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ إنهم أعرضوا عن التوراة وأداروا ظهورهم لكل ما أعطوا من التزامات...

فبعد أن شاهدوا الطور فوق رؤوسهم وأدركوا أنه واقع بهم وعرفوا الحقيقة وإن أمر الله يجب أن يُقبل ويُنفّذ أعطوا من أنفسهم القبول ورضوا به، ولكن الآن يرفضون العمل ويتمردون على إرادة الله ولا يقومون بما كُلّفوا به... بل يتولون

عنه ويعرضون رفضاً له أو تهاوناً واستخفافاً، وكلا الأمرين مخالفة متعمدة يستحق عليها فاعلها عقوبة صارمة تؤدبه وتؤدب من تسوّل له نفسه مخالفة الأمر الإلٰهي وما يعطيه من عهود والتزامات للآخرين. . .

ولكن هذه المخالفة لم تقابل من قبل الله إلا بتسهيل الأمر للعودة إلى رحابه والتوبة من هذا الذنب العظيم. . .

﴿فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾.

إن أفضال الله على بني إسرائيل خلال وجودهم مع موسى كانت كثيرة وهذه واحدة من تلك، إنه سبحانه وتعالى لفضله عليهم لم يأخذهم بمجرد فعلهم للمعصية ولم ينزل عليهم العذاب لمجرد وقوعهم فيها بل أمهلهم وأخّر ذلك حتى تابوا وأنابوا ورجعوا إلى الله فرجع عليهم، ولولا ذلك لكانوا قد خسروا أنفسهم ودخلوا النار وليس هناك أعظم وأكبر من هذه الخسارة. . .

ثم بعد أن ذكر فضله عليهم ورحمته بهم وعدّد نعمه الجمّة واحدة بعد أخرى نبّههم وخوّفهم ووضع بين أيديهم مأساة عظيمة حلّت ببعض أسلافهم الذين تقدّموا عليهم عندما خالفوا أوامر الله فقلب شكلهم البشري الإنساني - من أحسن تقويم - إلى أقبح الصور وأبشع الأشكال، حيث حوّلهم إلى قردة قبيحة تشمئز من رؤيتها النفوس وخصوصاً إذا عرفت بأصلها البشري وحُوّلت منه إلى هذه الصورة. . .

﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿٦٥﴾﴾.

لقد عرفتم ما حلّ بالذين ارتكبوا المعاصي عندما نهاهم الله عن صيد الحيتان يوم عطلتهم وأمرهم بالتفرغ للعبادة - وهو يوم السبت - فكان جزاؤهم أن مسخهم الله وحوّل صورهم من صورة إنسان إلى صورة قرد بشع مطرود من رحمة الله وبعيد عن ربّه في ذل وصغار. .

فالله حرّم صيد الحيتان يوم السبت بل فرض التفرغ للراحة والعبادة (ولكن هؤلاء القوم الذين غضب الله عليهم) بعض اليهود في زمن داود كما قال أخذوا

يخدّون جداول متفرعة عن الأصل فتأتي الحيتان يوم السبت فيحبسونها ثم يصطادونها يوم الأحد فكان هذا معصية واعتداءً عما حرّم الله فمسخهم الله قردة صاغرين أذلاء. . .

ثم إنه سبحانه بيّن سرّ هذا المسخ وإنه لم يكن لأنه يريد التشفّي منهم أو يريد أن يقوّي سلطانه وحكمه، حاشاه من ذلك بل ﴿فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ﴿٦٦﴾﴾.

إن عملية المسخ لهذه الفئة العاصية المتمردة إنما كانت لتؤدب غيرها وتمنعهم أن يمارسوا العصيان. . . إنها تُوْقف المتمردين الحاضرين يومها ومن يأتي بعدهم، كما أن فيها عبرة لأصحاب التقوى الذين يعرفون أثر المعصية وخطر الانحراف وما يترتب على المعاصي من العقوبات فيحاولون حماية أنفسهم من العقوبات فيتركون كل معصية وكل انحراف أو فساد. . .

فوائد

١ ـ إن الميثاق في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ﴾ فيه أقوال:

أ ـ إن ما أودعه الله في عقول الناس، مما يهتدى به إلى الله وإلى تصديق الأنبياء.

ب ـ وقيل إن الميثاق هو العمل بما في التوراة وإتباع موسى فيما يقول.

ج ـ وقيل هو ما أخذه الله على الرسل والأنبياء في قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ﴾ [آل عمران: ٨١] وأوسطها هو أوسطها لقرائن الحال والمقال. . .

٢ ـ إن قوله: ﴿كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ للمفسرين في هذا المسخ قولان.

أ ـ ما يظهر من الكلام والظهور حجة لا يخرج عنه إلا بدليل وهو أن المسخ الحقيقي قد وقع عليهم وتغيّرت أشكالهم من أشكال بشرية إلى قرود.

ب ـ قال بعضهم أن المسخ وقع على قلوبهم فطُبع عليها وأصبحت قلوب قردة، لأن من أصرَّ على المعصية واستمر في التمرد صح وصفه بذلك. وهذا خلاف ظهور اللفظ ولا داعي للذهاب إليه مع إمكان حمله على الحقيقة. . .

٣ ـ اختلف المفسرون في قوله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا﴾ على أقوال.

أ ـ قال بعضهم: لما قبلها من الأمم وما بعدها فكأن الماضين كانوا يعرفون أخبار هذا المسخ وأما الآخرين فواضح وصول هذا الخبر إليهم. .

ب ـ أن يراد بها القرى القريبة منها والأخرى البعيدة.

ج ـ أن يراد بها أهل هذه القرية وما حولها.

٤ ـ يُحرّم عندنا أكل المسوخ وهي كما في الحديث ثلاثة عشر منها: الفيل[١] والدب والأرنب. . . والقرد والخنزير. .

(١) وسائل الشيعة، كتاب الأطعمة والأشربة، ج١٦، ص٣١٧.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا۟ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَْٰٔتُمْ فِيهَا ۖ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾﴾.

اللغة

﴿الْقَوْمِ﴾: في الأصل جماعة الرجال وقوم الرجل أهله وأتباعه.

﴿تَذْبَحُوا﴾: أصل الذبح شق حلق الحيوانات، وذبحت الفأرة شققتها تشبيهاً بذبح الحيوان.

﴿بَقَرَةً﴾: واحدة البقر اسم للمؤنث، والمذكر ثور، وأصل البقر الشق وبقرت بطنه إذا شققته وسميت البقرة كذلك لأنها تشق الأرض بالمحراث، ومنه سمي محمد بن علي الباقر عليه السلام باقراً لتوسعه في دقائق العلوم وبقره بواطنها.

﴿هُزُوًا﴾: والهزو اللعب والسخرية.

﴿أَعُوذُ بِاللَّهِ﴾: من العوذ وهو الالتجاء إلى الله والتعلق به.

﴿الْجَاهِلِينَ﴾: جمع مفرده الجاهل من جهل، والجهل كما في مفردات الراغب على ثلاثة أضرب، الأول: وهو خلو النفس من العلم وهذا هو الأصل.

الثاني: اعتقاد الشيء بخلاف ما هو عليه.

الثالث: فعل الشيء بخلاف ما حقه أن يفعل سواء اعتقد فيه اعتقاداً صحيحاً أو فاسداً وعلى ذلك قوله تعالى: ﴿قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾.

﴿ادْعُ لَنَا﴾: سله.

﴿يُبَيِّن﴾: من بان كذا، أي انفصل وظهر ما كان مستتراً وبان الصبح إذا ظهر...

﴿فَارِضٌ﴾: المسنّ من البقر وقيل إنما سمي فارضاً لكونه فارضاً للأرض، أي قاطعاً أو فارضاً لما يُحمّل من الأعمال الشاقة.

﴿بِكْرٌ﴾: جمعها أبكار هي التي لم تلد أو التي لم توطأ من النساء والبكر أول الأولاد.

﴿عَوَانٌ﴾: وسط بيّن السّنين بين الكبيرة والصغيرة.

﴿لَوْنُهَا﴾: اللون: هو العارض على الجوهر الذي يميزه عن غيره كالأسود والأبيض والأحمر وغيرها...

﴿صَفْرَاءُ﴾: الأصفر: لون من الألوان معروف ولون النحاس أصفر.

﴿فَاقِعٌ﴾: من فقع يقال أصفر فاقع إذا كان صادق الصفرة شديدها كقولهم أسود حالك والفَقْع ضرب من الكمأة وبه يشبّه الذليل فيقال: أذل من فقعٍ بقاعٍ، والفقوع هنا شدة الصفرة...

﴿تَسُرُّ﴾: من السرور وهو ما انكتم من الفرح.

﴿ٱلنَّٰظِرِينَ﴾: من النظر: تأمل الشيء بالعين، والنظر إلى الشيء: مشاهدته.

﴿تَشَٰبَهَ﴾: أي تتشابه، مأخوذ من الشّبه والشَّبه والشبيه وحقيقته المماثلة من جهة الكيفية كاللون، والشُبهة هو أن لا يتميز أحد الشيئين عن الآخر لما بينهما من التشابه ـ التماثل ـ.

﴿ٱلْمُهْتَدُونَ﴾: الذين تحروا الهداية وقبلوها وعملوا بها...

﴿ٱلذُّلِّ﴾: ما كان عن قهر، وأما الذِّل ما كان بعد تصعّب وشماس من غير قهر، وذلّت الدابة بعد شماس ذُلاً وهي ذلول أي ليست بصعبة وقوله تعالى: ﴿لَّا ذَلُولٌ﴾ أي لم تروض للعمل فهي وحشية صعبة.

﴿تُثِيرُ﴾: من الإثارة وهي إظهار الشيء بالكشف وتثير الأرض تحرثها للزراعة.

﴿ٱلْحَرْثَ﴾: إلقاء البذر في الأرض وتهيؤها للزرع ويسمى المحروث حرثاً، فالأرض إذا هيئت للزراعة تسمى حرثاً، ولا تسقي الحرث أي لا تعمل في سقي الأرض المحروثة كأن ينضح عليها...

﴿مُسَلَّمَةٌ﴾: من السلامة أي مبرأة من العيوب.

﴿لَّا شِيَةَ﴾: من الشية وهو اللون في الشيء يخالف عامة لونه، وشيت الشيء وشياً: جعلت فيه أثراً يخالف معظم لونه، والواشي: النمام، لأنه أدخل في كلامه الكذب المخالف له. ﴿ولاشية﴾ فيها لا لون آخر مخالف للون الصفرة الغامقة التي هي فيها.

﴿ٱلْـَٰٔنَ﴾: كل زمان مقدّر بين زمانين ماضٍ ومستقبل نحو أنا الآن أفعل كذا وخصّ الآن بالألف واللام المعرف بهما ولزماه ويقال هذا أوان ذلك أي وقته المختص به وبفعله.

﴿جِئْتَ﴾: أتيت وأقبلت.

﴿ٱلْحَقِّ﴾: أصل الحق المطابقة والموافقة، كمطابقة رجل الباب في حقه لدورانه على استقامة.

﴿كَادُواْ﴾: من كاد ووضع هذا لمقاربة الفعل، يقال كاد يفعل إذا لم يكن قد فعل، وإذا كان معه حرف نفي يكون لما قد وقع ويكون قريباً من أن لا يكون...

﴿فَٱدَّٰرَٰءۡتُمۡ﴾: تدافعتم، واستعملت بمعنى: اختلفتم وتخاصمتم لأن كل واحد يدفع عن نفسه نحو الآخر.

﴿مُخۡرِجٞ﴾: خرج: برز من مقره أو حاله.

﴿تَكۡتُمُونَ﴾: من كتم الحديث إذ ستره.

التفسير

هذه قصة نبي الله موسى مع قومه الذين كانوا ينقلون إليه مشاكلهم ويطلبون منه الحلول لها، وعندما كان يوجّههم ويدلهم كانوا يترددون ويشككون، وربما أساءوا معه الأدب وتعنتوا في الأسئلة وتأخروا في الاستجابة...

يذكر الله هذه القصة ـ قصة البقرة ـ والتي كما تذكر الروايات، أن رجلاً من بني إسرائيل قتل قريباً من أقربائه، ثم أخذه فطرحه في طريق أفضل سبط من أسباط بني إسرائيل، ثم جاء يطلب بدمه وكادت أن تقع الفتنة فأحالوا الأمر إلى نبي الله موسى فأمرهم أن يذبحوا بقرة ويضربوه ببعضها فيحيا وينطق بمن قتله، ولكن بني إسرائيل تعنّتوا وأخذوا يسألون موسى عن خصوصيات البقرة وصفاتها وفي كل مرة يراجعونه حتى ذبحوها بعد شدة وعسر وبتعبير القرآن ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفۡعَلُونَ﴾.

والتذكير بهذه القصة، إما من باب تذكير الحاضرين من بني إسرائيل بما أجرى الله من النعم على أسلافهم، لأن فيها نعمة رفع الخلاف فيما بينهم لو

استمر التخاصم، كما أنه يمكن أن تكون من باب ذكر تعنّت بني إسرائيل ومخالفتهم لأنبيائهم، وعلى كل حال تبتدأ القصة بذكر ما واجهوا به موسى عندما أمرهم أن يذبحوا بقرة ويضربوا الميت ببعضها حيث تكشف مراجعتهم لموسى في كل مرة يأمرهم فيها وتمنّعهم عن امتثال الأمر فوراً حيث يكشف ذلك عن سوء نية وسوء أدب وعن تعنت، وفي بعضها شك وتردد. . .

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً﴾ واذكروا يا بني إسرائيل الحاضرين كيف خاطب موسى آباءكم ونقل إليهم الأمر الموجه من الله إليهم. . . إن موسى صادق فيما ينقل عن الله. . . فالخلاف بينكم قائم فيمن قتل القتيل والحلّ يأتي من السماء فيعيّن لكم البيّنة الصادقة التي تكشف المجرم وتعيّن القاتل. . .

إن موسى يتوجّه إلى قومه المختلفين ليقول لهم إن الله يأمركم. . فالأمر صادر من الله وينقله موسى وما هو هذا الأمر وما مضمونه؟!. . إنه سهل وفي متناول أيديكم ﴿أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً﴾ أن تعمدوا إلى بقرة، أيّ بقرة كانت فتذبحوها وتضربوه ببعضها فتنتهي المشكلة ويتعين القاتل عندما تضربوه ببعضها.

ويتوجه هذا الأمر إلى بني إسرائيل فما هو موقفهم منه؟ وكيف استقبلوه؟ هل خفّوا إلى تنفيذه وطبّقوا مضمونه ولم يتأخروا عن القيام به؟!.

إن بني إسرائيل أساءوا الأدب مع الله ومع موسى حيث التفتوا إلى موسى و﴿قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾ قالوا أتسخر منا يا موسى وتضحك علينا في هذا الأمر؟ ويستمع موسى الجواب فماذا يجيبهم وبماذا يردّ عليهم؟ إنهم قوم عصاة لم يتأدبوا بأدب الله ولم يتخلقوا بأخلاقه. . . إنه يعرفهم على حقيقتهم فلم يزد على أن ﴿قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ أي ألتجئ إلى الله وأعوذ به أن أكون من المستهزئين الجاهلين الذين يمارسون هذا النمط من السخرية الباطلة. . .

ويستمع بنو إسرائيل كلام موسى وتبرّيه من الاستهزاء والسخرية، ومن حقهم أن يعودوا لأنفسهم ويعترفوا بالتقصير ويندموا على هذا المنطق مع نبي الله،

ولكنهم بدلاً عن ذلك أعادوا الطلب من جديد قائلين لموسى ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ﴾ اطلب من ربك يا موسى مع ما في هذه الإضافة من سوء أدب فكان رب موسى هو غير ربهم... يا موسى اطلب من ربك وادعوه أن يبيّن لنا خصوصيات هذه البقرة ومواصفاتها ومميزاتها لكي نقوم بالأمر وننفذه.

ويستمع موسى إليهم ويصبر على جهلهم وسوء أدبهم ويتوجّه إلى الله بالدعاء ويطلب منه تعيين البقرة وذكر مواصفاتها ويرد عليهم الجواب بقوله ﴿إِنَّهُ يَقُولُ﴾ فالله يقول لكم يا بني إسرائيل وقوله حق وصدق.

﴿إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ﴾ إنها بقرة لا مسنة كبيرة هرمة، ولا فتيّة صغيرة لم يلقحها الفحل، بل إنها وسط بين الكبيرة والصغيرة، فنفذوا هذا الأمر واذبحوا البقرة ولا تتأخروا، ومن الواجب عليهم أن يبادروا إلى أي بقرة استجمعت هذه الصفات فيذبحوها وخصوصاً بعد التأكيد عليهم بقوله: ﴿فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ﴾ الذي يحمل في طياته قطع المراجعة والعودة إلى السؤال من جديد عن خصوصيات إضافية وقيود ومميزات، ولكن كأنهم لم يسمعوا الأمر فعادوا إلى موسى و﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا﴾ يا موسى اطلب من ربك وتوجه إليه أن يبيّن لنا ويكشف ويظهر ما لونها حتى نميزها عن غيرها ونعرفها بعينها...

ويتوجه موسى إلى الله بالدعاء فيستجيب الله له ويعيّن لونها وينقل إليهم الخبر.

﴿قَالَ﴾ موسى ﴿إِنَّهُ يَقُولُ﴾ الله يقول ﴿إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ﴾ إنها بقرة صفراء شديدة الصفرة تعجب كل من نظر إليها أو رآها وشاهدها... ففيها خصوصية اللون الأصفر الشديد وفيها خاصية أنها تعجب من نظر إليها...

ويستمع بنو إسرائيل ما يقوله لهم موسى وما يحدّده من صفات للبقرة ولكنهم يعودون من جديد ليسألوا أيضاً عن مميزات هذه البقرة الصفراء فإن الأبقار كثيرة بهذه الصفة وتتشابه ولا تتميز.

﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ﴾ أدع يا موسى ربك كي يوضح لنا ما هي صفات هذه البقرة الصفراء وعللوا سؤالهم ﴿إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾ فالبقر الأصفر كثير وكله يتساوى في هذه الصفات فلا يتميز المطلوب من غير المطلوب، فلوجود الالتباس طلبوا البيان والتوضيح وطلبوا من الله أن يهتدوا إلى المطلوب ويصلوا إلى المرغوب.

ويتوجه موسى من جديد إلى الله ويطلب منه بيان هذه البقرة وما يميزها عن مثيلاتها من البقرات الصفر التي تعجب من نظر إليها ﴿قَالَ﴾ موسى ﴿إِنَّهُ﴾ الله ﴿يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا﴾.

إنها بقرة لم تروّض لحراثة الأرض ولا لسقاية الزرع وهي سالمة من العيوب وليس فيها ما يخالف الصفرة الفاقعة بل كلها لون واحد خالية من كل شائبة أو لون آخر.

ويستمع بنو إسرائيل مواصفات البقرة وتنقطع أسئلتهم ويجيبوا موسى:

﴿قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ﴾ أي الآن توضحت الرؤية أمامنا وانكشفت الأمور على حقيقتها ولم يبق أي التباس أو سؤال.. إنها الحقيقة أصبحت ظاهرة لنا، ولكن كم هي صعبة هذه الحقيقة ولصعوبتها قال تعالى عنهم في هذا الموقف:

﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ نفّذوا الأمر ولكن بعد صعوبة وشدة... إنهم عانوا كثيراً... تصويراً لحالتهم النفسية وتعنتهم وأنهم كانوا يتحايلون بأسئلتهم حتى بلغ بهم الأمر من الصعوبة أنهم كادوا أن لا يذبحوها ولكنهم ذبحوها بجهد وشدة...

ثم إنه سبحانه يذكر السبب لذبح البقرة:

﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَٰلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾﴾.

واذكروا يا بني إسرائيل إذ قتلتم شخصاً وأخذتم تتهمون بعضكم وتتشاجرون فيما بينكم وكل يدفع التهمة عن نفسه وينسبها إلى غيره، ولكن الله بحكمته

وعلمه أراد أن يظهر ما هو مستور ويكشف المجرم ويبينه للناس، فقال بعد أن أمر بذبح البقرة أن يضربوه ببعضها فضربوه كما أمرهم الله فأحيا الله الميت ونطق وأخبرهم بالقاتل، وكما أحيا الله هذا كذلك هو قادر على أن يحيي كل الأموات فهذه آية من آيات الله وعلامة من علامات قدرته يظهرها أمامكم لكي تفكّروا وتتدبّروا وتنظروا في قدرة الله وإنه على كل شيء قدير...

إنها آية من آيات الله بموت البقرة ذبحاً وضرب الميت ببعضها تعاد الحياة لهذا الميت إذاً بالموت تكون الحياة، وهذه علامة واضحة ودلالة ظاهرة على قدرة الله المطلقة في الأشياء والعاقل يطلق للفكر حيويته ويطلقه من عقاله ويعلم أن الله على كل شيء قدير وإنه يحيي الموتى...

فوائد

١ ـ إن بني إسرائيل كان يكفيهم أن يمتثلوا الأمر المتوجه إليهم بذبح أي بقرة فإن قوله تعالى: ﴿أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾ يصدق على أي بقرة وقعت تحت أيديهم، ولكنهم كما في الخبر عن رسول الله ﷺ: «شدّدوا على أنفسهم فشدد الله عليهم».

٢ ـ إن بني إسرائيل لا يملكون شيئاً من اللائقة وحسن الأدب نحو نبيهم موسى، حيث كانوا يلحّون عليه بالسؤال وخصوصاً بصيغة فادع لنا ربك وأيضاً بقولهم له: ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾ ورده عليهم: ﴿أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [البقرة: ٦٧].

٣ ـ إن في هذه القصة تسلية لرسول الله ﷺ الذي يعيش بين اليهود أبناء أولئك الذين عاصروا موسى وكانت لهم منه تلك العذابات والآلام فلن يكون الأبناء أقل سوءاً وبغتاً من الآباء بل الأبناء سيكونون أشد في العناد والرفض، وإن النبي ﷺ سيواجه الأبناء كما واجه موسى آباءهم وسيلاقيه هؤلاء بالصلف والغرور كما لاقى أولئك موسى...

٤ ـ إن اكتشاف المجرم بهذه الطريقة التي تمت فيها من ذبح البقرة وضرب الميت ببعضها كانت حادثة فريدة أعطاها الله لموسى وكانت واقعة شخصية لا تتعدى إلى غيرها من حالات القتل الأخرى . .

٥ ـ إن بني إسرائيل الذين عبدوا العجل أراد الله أن يميت جنسه من البقر فيذبحه بهذه الصورة ازدراء لهم وتصغيراً لقولهم.

٦ ـ إن الله سبحانه قادر على أن تكون الحياة عن طريق حيوان ميت لا روح فيه إذا تعلقت إرادته عن هذا السبيل وإنه قادر على إحياء الموتى بكلمة واحدة وهي كلمة ـ كن ـ وعلى العاقل أن يفكر في ذلك ويتدبره ويعتبر به . . .

٧ ـ قرأت في بعض التفاسير الحديثة ما نصه «ثمة حقيقة اجتماعية قد يمكن استنتاجها من الأوصاف التي ذكرت للبقرة . . . يبدو أن القرآن يريد أن يبيّن أن البقرة «المحياة» ينبغي أن لا تكون ذلولاً أي تأبى التسليم والخضوع الأعمى كما أنها ذات لون واحد خالص لا تشوبه ألوان أخرى.

وهذا يعني أن القائد الذي يستهدف إحياء المجتمع ينبغي أولاً أن يكون متحرراً من تأثيرات الضغوط الاجتماعية التي يمارسها أصحاب الثروة والجاه والقوة . . . كما أن القائد يجب أن يكون مبرءاً من أي لون غير اللون التوحيدي . . . » انتهى . . .

ما ذكره صاحبنا المفسر القدير من شروط القيادة هو أمر صحيح ولكن لماذا يحوّله إلى بقرة؟ وكيف استطاع أن يفهم هذا الفهم العجيب الغريب الذي لا يوافق عليه من له أدنى معرفة بأسلوب الكلام . . . إنها قصة حقيقية جرت أيام نبي الله موسى، إذ كانت البقرة بهذه المواصفات فكيف نأخذ من البقرة صفات قائد يريد تحرير الأمة وإنقاذها؟! وهل نحن بحاجة إلى هذه البقرة وكتاب الله وسنة نبيه تفصح وبأعلى صوتها عن شروط القائد وصفاته وما يجب أن يتمتع به من مؤهلات!؟

إننا بغنى عن بقرة بني إسرائيل وصفاتها لنأخذ منها صفات القيادة ـ وحاشا

لله ـ أن يذكر بقرة ضمن قصة ويوجه أنظار الناس إلى مثل هذه الاستفادة التي استفادها مفسرنا الجليل... وكيف يمكن للأمة أن تستخلص من البقرة صفات القائد المنقذ..

٨ ـ لولا إجماع المفسرين على أن قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ (٧٢) فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى﴾. من تتمة القصة السابقة لقلت إن هذه قصة أخرى منفصلة عن قصة البقرة ولا تعلق بها، فقصة البقرة واردة في قتيل لم يعرف قاتله البتة فكانت معجزة البقرة بالطريقة التي تمت فيه، وأما هنا فإن القتل محصور في عدد معين يشتبه بهم فأراد الله أن يكون الضرب ببعض الميت بيده مثلاً على كل مشتبه به وعندها تظهر الحقيقة وإن «إذ» المصدّرة بها الآية يمكن أن تكون على نسق ما تقدمها حيث كانت كل «إذ» بداية لحادثة قام بها بنو إسرائيل وأنعم الله عليهم بإنقاذهم منها...

قال تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾.

اللغة

﴿قَسَتْ﴾: القسوة: غلظة القلب، والقساوة: الصلابة.

﴿كَٱلْحِجَارَةِ﴾: مفردها حجر وهو الجوهر الصلب المعروف.

﴿يَتَفَجَّرُ﴾: من فجر، والفجر شق الشيء شقاً واسعاً يقال فجرته فانفجر وفجّرته فتفجّر وقيل للصبح فجر لأنه فجر الليل والفجور شق ستر الديانة.

﴿ٱلْأَنْهَٰرُ﴾: جمع نهر بفتح الهاء وسكونها وهو مجرى الماء الفائض وهو فوق الجدول ودون البحر.

﴿يَشَّقَّقُ﴾: من الشّق وهو الخرم الواقع في الشيء، يقال شققته بنصفين.

﴿يَهْبِطُ﴾: من الهبوط وهو النزول من فوق إلى أسفل.

﴿خَشْيَةِ﴾: خوف يشوبه تعظيم وأكثر ما يكون ذلك عن علم بما يخشى منه.

﴿بِغَٰفِلٍ﴾: من غفل والغَفْلة سهو يعتري الإنسان من قلة التحفظ والتيقظ.

التفسير

أخبر سبحانه في هذه الآية عن شدة قساوة قلوب اليهود، وإنها قلوب قاسية إلى حد أنها فاقت الحجارة، وما هو أشد من الحجارة في القساوة؟.

﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾.

بعد رؤيتكم للآيات المتقدمة وهي عديدة وكل واحدة تحمل الإنسان على الإيمان والتسليم لأمر الله وفي كل واحدة حجة دامغة لا محيص عنها ومع ذلك كله لم تلن القلوب ولم تستجب لنداء الله. . . إنها قلوب جفت منها قابلية الاستجابة لنداء الحق وتمنعت عن الانفعال أو التأثر بكل الآيات مهما كانت مؤثرة وبليغة. . .

إنها قلوب قاسية كالحجارة أو ما هو أشد من الحجارة كالحديد أو غيره مما لا يتأثر أبداً. . .

لقد فاقت الحجارة في قساوتها. . إنها قلوب بني إسرائيل الذين كانوا يرون المعجزات أمام أنظارهم ويطلبونها بأنفسهم من نبيهم فيدعوا الله فيستجيب له ويحققها لهم بإذنه ومع ذلك كانوا يتنكرون لها ولا يتأثرون بها، ثم لبيان تفوق تلك القلوب في القساوة على الحجارة، قال سبحانه:

﴿وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾.

إن من الحجارة ما ينفجر منها الأنهار، أي تتدفق منها الأنهار الغزيرة القوية ومنها ما يشقق قليلاً وينصدع فيخرج منه الماء القليل ومنها ما يتفتت ويتردى من أعلى القمم، إن من الحجارة ما تمر فيه هذه الحالات ولكن قلوب بني إسرائيل قاسية لا تتأثر ولا تملك خيراً أو أي عطاء. . .

الجبال تتأثر وتهتز وبعضها يخرج منه الماء وبعضها يهبط من خشية الله وخوفاً

منه ولكن قلوب بني إسرائيل لا تتأثر أو تهتز أو تشعر برهبة أو خوف من كل ما تراه من المعجزات والبينات والنعم والنقم والشدائد والمصائب. . . إنها قلوب اليهود القاسية الفاقدة لكل إحساس ولكل استجابة ولكل نداء.

فائدتان

١ ـ إن كلمة ﴿أو﴾ في قوله تعالى: ﴿فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ تحتمل عدة معانٍ:

أ ـ قالوا إنها تبقى على طبيعتها من الترديد بينهما وبأي الأمرين شبهت قلوب اليهود فهو مناسب.

ب ـ قال آخر: إنها بمعنى الواو على حد قوله تعالى ﴿عُذْرًا﴾ أو ﴿نذرا﴾.

ج ـ قال ثالث: إنها بمعنى «بل» على حد قوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾﴾ أي بل يزيدون.

٢ ـ ذهب بعض المفسرين إلى أن الخشية في بعض الحجارة هي الخشية الحقيقية ولكن بقدرها كما في التسبيح الذي جعله فيها ونسبه إليها في قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء: ١٧] وهذا هو الصحيح وعليه الاعتماد والله قادر مطلق لا حدود لإرادته. . .

وبعضهم حملها على المجاز وأن الناظر إلى الجبال يخشى ويخشع فنسب ذلك إلى الجبال. . .

وأطرف ما رأيت أن بعضهم يفسر الحجارة بالبرد الذي يهبط من السحاب تخويفاً من الله لعباده، وهذا خروج عن ظواهر الكلام ومدلول الخطاب والبرد لا يصح أن يطلق عليه حجارة. . .

قال تعالى: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾.

اللغة

﴿أَفَتَطْمَعُونَ﴾: الطمع: نزوع النفس إلى الشيء شهوة له.

﴿فَرِيقٌ﴾: الفريق اسم جمع لا واحد له من لفظه، وجمعه أفرقة للقلة، وأفرقاء: للكثرة وهي الجماعة والطائفة.

﴿يُحَرِّفُونَ﴾: من التحريف وتحريف الشيء إمالته وتغيره عن معناه.

﴿عَقَلُوهُ﴾: فهموه وعقل الشيء أدركه بعقله.

التفسير

هذا خطاب للنبي ﷺ ومن معه من المسلمين وقد كانوا أشد الناس حرصاً على إسلام اليهود والإيمان بما جاء به النبي ﷺ إلى الناس ولكن الله أخبر عن هؤلاء الحاضرين من اليهود بأنهم على سيرة من انحرف من آبائهم وأسلافهم الذين كانوا يسمعون كلام الله ويعرفونه حق معرفته ومع ذلك كانوا يحرّفونه نيلغون بعضه أو يزيدون فيه بحيث تختلف المعاني وتتبدل الحقائق وتصبح الأمور على غير وجهها المنزل..

﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ﴾ بحيث أن المسلمين كانوا حريصين على إيمانهم

ويرغبون رغبة شديدة في ذلك، فهذا استفهام إنكاري وإن طمعكم في إيمانهم ورغبتكم في إسلامهم لن ينفع ولن يفيد.. إنهم لن يدخلوا الإسلام بدعائكم لهم لكي يسلموا..

ثم علل ذلك ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾.

أي أنهم على نهج من سبقهم ممن كان من أسلافهم حيث كان فريق منهم يسمع كلام الله ويعيه ويفهمه، ولكن مع ذلك يحرّفه بحذف ما لا يخدمه ويخدم مصالحه أو كان يزيد فيه لأجل ذلك وهم يعلمون أثر ذلك وعاقبته عند الله... إن هذا الفريق المحرّف لآيات الله يزداد جرمه ويكبر إثمه من حيث معرفته أنه كلام الله ومن حيث معرفته بمدى خطورة وعقوبة هذا التحريف والتبديل..

قال تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوٓا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾﴾.

اللغة

﴿لَقُوا﴾: من لقي، واللقاء: مقابلة الشيء ومصادفته معاً.

﴿خَلَا﴾: الخلاء: نقيض الملاء، والخلاء: المكان الذي لا ساتر فيه من بناء ومساكن وغيرهما، وخلا فلان بفلان صار معه في خلاً وخلا إليه انتهى إليه في خلوا، وخلوا، إلى بعضهم انفردوا ببعضهم..

﴿أَتُحَدِّثُونَهُم﴾: من الحديث وهو الخبر والنبأ، وأصله من الحدوث وهو كون الشيء بعد إن لم يكن.

﴿فَتَحَ﴾: من الفتح، وفي اللغة القضاء والنصرة والحكم وأصل الفتح إزالة الإغلاق والإشكال، كفتح الباب وإزالة الغم.

﴿لِيُحَآجُّوكُم﴾: من المحاجة وهي المجادلة، بأن يحتج كل واحد من الخصمين على الآخر فيدلي بحجته ويظفر بها عليه، وأصل الحج هو القصد إلى الشيء.

التفسير

حكاية فريق من اليهود وكشف واضح عن نفسية مريضة وسلوك أعوج سخيف.. إنها خصلة من خصالهم الذميمة ينقلها الله إلى النبي ﷺ والمؤمنين لكي يتوقفوا عندها قليلاً ويأخذوا لأنفسهم العلم بها والحيطة والحذر منهم.

﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوٓا ءَامَنَّا﴾ فهم يظهرون الموافقة للمؤمنين ويعلنون أمامهم أنهم على خطهم الإيماني.. إنهم مؤمنون بمحمد كرسول بعثه الله إلى الناس.. آمنوا به من خلال كتبهم وما كانت تنقله إليهم من بشائر وتحفظه من علامات..

ولكن هذه الفئة ـ التي كانت تعلن عن موافقتها في إيمانها لإيمان المسلمين وتظهر ذلك، كانت تواجه بالتوبيخ والتأنيب من قبل الذين أصرّوا على الكفر وأعلنوا تمسكهم بيهوديتهم...

إن هؤلاء الذين قالوا آمنا كانوا يواجهون بلفتة نظر، فيها بيان خطر هذه المقولة منهم...

﴿وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ إذا انفرد الذين قالوا آمنا بأصحابهم من اليهود المعاندين، كان المعاندون يحذّرونهم خطر هذه المقولة و﴿قَالُوٓا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أي كيف تحكون للمسلمين صفات محمد والبشائر التي في التوراة...؟ إن هذا سر لم يطلع عليه أحد تجهرون أنتم به ويكون مستمسكاً بأيديهم يغلبونكم به عندما تتحاورون وإياهم في هذا الموضوع.

ثم ازدراء لهم وتأنيباً يقولون ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ فمن كان يملك عقلاً يفكر فيه ويدرك به الأمور لا يقدم على تسليح عدوه بحجة يغلبه بها في مقام المحاورة والمناظرة، ثم ردّ الله عليهم مقبحاً هذه السيرة منهم...

﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۝٧٧﴾ استفهام يحمل الإنكار

عليهم، وفيه تقرير أن الله يعلم ما يسرونه إلى إخوانهم من قولهم اكتموا صفات محمد ولا تعلنوها لأصحابه، كما أنه سبحانه يعلم كل ظاهر من القول ومُعلَن، وهذا توبيخ لهم وذم من حيث إنهم يحملون عقيدة أن الله يعلم كل شيء وأنه المطلع على ما يقولون ويعرف السر والعلن فكيف يعملون عمل من لا يؤمن بهذه العقيدة...

فائدتان

١ ـ روي عن أبي جعفر الباقر عليه السلام أنه قال: كان قوم من اليهود ليسوا من المعاندين المتواطئين، إذا لقوا المسلمين حدثوهم بما في التوراة من صفة محمد فنهاهم كبراؤهم عن ذلك وقالوا: لا تخبروهم بما في التوراة من صفة محمد فيحاجوكم به عند ربكم فنزلت الآية...

٢ ـ قوله تعالى: ﴿لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ﴾ قالوا إنهم جعلوا محاجتهم به وقولهم لهم هو في كتابكم هكذا محاجة عند الله كما تقول هذا في كتاب الله وهو عند الله كذا...

وقال بعضهم ﴿لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ﴾ يوم القيامة فيكون ذلك زيادة في التشهير بهم وتوبيخهم... وقيل: بل معناه: لتصيروا محجوجين بتلك الدلائل في حكم الله...

قال تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾﴾.

اللغة

﴿أُمِّيُّونَ﴾: جمع الأمي وهو الذي لا يقرأ ولا يكتب، قال قطرب: الأمّيّة الغفلة والجهالة، فالأمي منه وذلك هو قلة المعرفة.

﴿الأَمَانِيَّ﴾: جمع الأمنية وفي الأصل من مني وهو ما يقدّره الإنسان في نفسه، ولذا يطلق على الكذب وعلى ما يتمنى وما يقرأ.

﴿ٱلْوَيْلُ﴾: كما قال الأصمعي: ويل أي قُبْح والويل كلمة يستعملها كل واقع في هلكة، والويل: مصدر لا فعل له من لفظه.

﴿لِيَشْتَرُوا﴾: وحقيقة الاشتراء: الاستبدال، والعرب تستعمل ذلك في كل من استبدل شيئاً بشيء.

﴿ثَمَنًا﴾: اسم لما يأخذه البائع في مقابل المبيع عيناً كان أو سلعة وكل ما يحصل عوضاً عن شيء فهو ثمنه.

﴿كَسَبَ﴾: الكسب: ما يتحراه الإنسان مما فيه اجتلاب نفع وتحصيل خط ككسب المال، وقيل إن أصله العمل الذي يجلب به نفع أو يدفع به ضر.

التفسير

هذه حال فرقة من اليهود... إنها فئة الجَهَلة التي لا تكتب ولا تقرأ ولم تأخذ خطها من العلم والمعرفة فهي سائمة يقودها الأحبار والرهبان إلى النار...

﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾﴾.

إنهم لم يطّلعوا على التوراة ولم يعرفوا ما فيها لجهلهم وعدم وقوفهم على مضمونها.. إنهم لا يعرفون إلا ما ينقله إليهم الأحبار من أنهم أبناء الله وأحباؤه، وأن آباءهم الأنبياء يشفعون لهم وينقذونهم من النار وإلى غير ذلك من الأماني الباطلة التي لا تستند إلى حق أو تحقيق أو علم ومعرفة، بل إلى جهل مصدره تقليدهم لآبائهم وما ينقلونه إليهم من غير ثقة بهم.

ثم ذكر حال أولئك الكبار من الأحبار والرهبان الذين يتولون إضلال هؤلاء البسطاء ويمنعون عنهم مصادر المعرفة الصحيحة، كما يمنعونهم عن الهداية الموصلة إلى الإيمان برسول الله محمد ﷺ من حيث يغيّرون ما ورد فيه من بشارات - في كتبهم - ويحرفون صفاته التي وردت إلى غيرها مما يجعل هؤلاء البسطاء لا ينصاعون لأمره ولا يؤمنون به.

﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾.

إن أكبر جريمة يعرفها المجتمع البشري هي تلك التي يفتري فيها هذا الإنسان على الله ليحرّف كتابه المنزل ويغير كلامه الكريم إلى كلام آدمي خاضع للأهواء والميول والرغبات...

إن أحبار اليهود لهم العذاب والهوان من حيث تمت على أيديهم هذه الممارسة البشعة عندما عمدوا إلى آيات التوراة المبشرة بالنبي محمد ﷺ والتي تنقل أوصافه وتذكرها فغيّروا ذلك وبدّلوه.. إنهم مارسوا ذلك عن عمد وسابق تصور وتصميم، ثم وضعوا ذلك بين أيدي الناس قائلين لهم هذا هو كلام الله وهذا هو الكلام المنزل من عنده سبحانه وتعالى على نبيه موسى...

إنهم أضلوا الناس وانحرفوا بهم عن منهج الله إلى منهج هم اخترعوه ووضعوه، وإذا سألت عن سر ذلك وسببه فالقرآن يخبرك عن العلة ويكشف لك السر.

إنما غيّروا ذلك وبدّلوه ﴿لِيَشْتَرُوا بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ من أجل أن يبقوا على مكانتهم الاجتماعية ورئاستهم لتلك الأمة من اليهود... إن هذا التحريف والتغيير إنما كان من أجل هذه الدنيا، وهي ثمن قليل وضئيل مقابل هذا العمل الرهيب الذي يستحقون به الهوان والعذاب والنار...

وزيادة في هوان هؤلاء الضالين المضلين توجه الله بهذا الدعاء عليهم وبيّن ما ينالهم جراء هذا التحريف للتوراة، ونسبة ذلك إلى الله بدون حق.

﴿فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ العذاب والهلاك لهؤلاء الذين حرفوا التوراة وغيّروا كلام الله، وأيضاً ﴿وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾ ويل لهم على زعامتهم وما تجرّ لهم من منافع مادية وأموال دنيوية... فهناك عذاب مضاعف يناله هؤلاء المحرفون لكلام الله...

فوائد

١ ـ ذكر الله الويل ثلاث مرات في هاتين الآيتين المتصلتين، وقد قيل لأن اليهود جنوا بهذا التحريف ثلاث جنايات فاستحقوا التهديد بالويل لكل جناية، والجنايات هي:

أ ـ تغيير صفة النبي.

ب ـ الافتراء على الله.

ج ـ أخذ الرشوة..

٢ ـ قرأ بعضهم «الأماني» بالتخفيف...

٣ ـ إن قيل لماذا جاء سبحانه بكلمة أيديهم في قوله ﴿فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ مع أن الكتابة لا تكون بغير اليد؟.

قالوا: إن ذكر الأيدي للتأكيد أنهم مارسوا ذلك بأنفسهم وتولوه دون غيرهم، أو ذكر الأيدي كناية عن أنهم من تلقاء أنفسهم دون أن ينزل عليهم.

٤ ـ إن قيل: لماذا وصف الثمن بأنه قليل؟

قيل: إما لفنائه وعدم ثباته، وإما لأنه حرام، وإمّا لأن الدنيا بما فيها لا تساوي عذاب الله الذي يستحقه هذا المحرِّف الضال. . .

قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ۚ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

اللغة

﴿ٱلْمَسُّ﴾: كاللمس، لكن اللمس قد يقال لطلب الشيء وإن لم يوجد، والمس يقال فيما يكون معه إدراك بحاسة اللمس وكنى باللمس عن النكاح كما كني بالمس عن الجنون وكني به أيضاً في كل ما ينال الإنسان من أذى...

﴿مَّعْدُودَةً﴾: المعدود: المحصور القليل مقابل ما لا يحصى كثرة.

﴿أَتَّخَذْتُمْ﴾: من أخذ، والأخذ: حوز الشيء وتحصيله، والاتخاذ افتعال يجري مجرى الفعل.

﴿ٱلْعَهْدُ﴾: حفظ الشيء ومراعاته حالاً بعد حال وسمي الموثق الذي يلزم مراعاته عهداً...

﴿يُخْلِفَ﴾: والإخلاف نقض ما أبرم من العهد بالفعل أو القول.

﴿بَلَىٰ﴾: رد للنفي أو جواب لاستفهام مقترن بنفي، وأما نعم: فيقال في

الاستفهام المجرد، فإذا قيل: ما عندي شيء، فقلت: بلى، فهو رد لكلامه وإذا قلت: نعم، فهو إقرار منك..

التفسير

وهذه أيضاً واحدة من افتراءاتهم التي افتروها وأكذوبة من أكاذيبهم التي نسجوها... إنهم كذبوا على الله:

﴿وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾ إنهم ذهبوا إلى إشاعة أن النار لن تصيبهم أو تنال منهم إلا في أيام قليلة محصورة لا تتجاوز الأربعين يوماً أو السبعين... إنها مقولتهم من أجل تسهيل الأمر على العامة منهم، ومن أجل أن يحصّنوا أنفسهم إن هم كفروا بالنبي محمد ﷺ وأنكروا نبوته بعد تغيير أوصافه التي وردت في التوراة.. إنها خطة لئيمة ربما عَبَرت على البسطاء من بني إسرائيل الذين لا حظّ لهم في العلم ولا وقوف لهم على المعرفة...

لماذا لا تمسهم النار؟ أو يصيبهم لهبها وعذابها إلا أياماً معدودة؟ وهل بينهم وبين الله قرابة أفردهم من خلالها بهذه المكرمة؟! وهل يفرّق الله بين إنسان وإنسان اشتهاءاً ورغبة منه؟!...

حاشا لله أن يكون شيء من ذلك يؤثر عليه أو يدخل في قراره وحكمه...

إنه سبحانه يعامل الناس كلهم بميزان واحد، والحق يجري على الجميع وحكمه يشمل الكل، ولذا رد سبحانه عليهم وأبطل هذه المقولة الجائرة وبيّن أنهم ضمن القواعد الإلٰهية التي لا يخرج عنها فرد أو يشذّ عنها شخص...

طالبهم بالدليل على هذه المقولة وأنهم كيف أدركوا ذلك ومن أين حصلوا على هذا الحكم والقرار؟!..

﴿قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾﴾.

أمر الله نبيه أن يطالبهم بالدليل، وهل الله أنزل عليهم وحياً أو جاءهم خبر بهذه المقولة؟ فإن جاء ذلك فالله سيفي به وينجزه لهم، ولكن لم يكن كل ذلك ولم يعط الله لأحد مثل هذا الوعد والخبر فتسقط هذه الدعوة وتتحول القضية هذه إلى قضية افتراء على الله... إنها قضية أطلقها الأحبار من دون أن يكون لها مستند إلهي أو رصيد من وحي سماوي، إنها قول بدون علم يساوق الجهل ويتحرك معه نحو الباطل والضلال...

إنها دعوة باطلة... قضية افتراء، وإذا كانت هذه باطلة كمفردة افتراها بنو إسرائيل فحقٌ لله أن يضع الميزان الصحيح للعقاب كما حق له أن يضع الميزان الصحيح للثواب...

﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴿٨١﴾﴾.

هذا هو الميزان للعذاب الدائم والخلود في النار، يجري على جميع الناس بما فيهم بني إسرائيل... إنها كبرى كلية يدخل تحتها جميع الناس وبدون استثناء. إن من يعيش الانحراف في العقيدة والسلوك ويمارس ذلك حتى يصبح جزءاً منه لا يتحرك إلا به، ولا يتنفس إلا به، ثم يقضي حياته كلها كذلك فهذا من أصحاب النار. إن أي شخص وبدون استثناء ـ إذا كان يكفر بأنبياء الله ـ فضلاً عن الكفر بالله ـ فمصيره إلى الخلود في النار لا يخرج منها أبداً.

ثم في مقابل هذا المعلم لأهل النار، وضع الله معلماً لأهل الجنة، إلى رواد الجنة وأهلها وأصحابها... إلى المستحقين للنعيم ولجنة رب العالمين... إنه سبحانه وضع الميزان الصحيح لكل روّاد الجنة وطلاّبها ومَنْ أراد أن يدخلها ويعلو إلى أعلاها... إن الميزان لبلوغ الجنة والدخول إليها والتنعّم بما فيها يتجسد في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴿٨٢﴾﴾.

هذا هو ميزان دخول الجنة والخلود فيها، ذكره الله ترغيباً للناس ـ بعد ذكر

ميزان دخول النار ـ إنه الإيمان بالله وبأنبيائه وبما جاءوا به من عنده، ثم العمل الصالح الذي يتجسد في تطبيق أوامر الله والتزام أحكامه فلا يترك الإنسان واجباً ـ لا يفعل حراماً، فإذا كانت مسيرته ضمن هذا الخط كانت كل خطوة يتحركها هي خطوة في الطريق إلى الجنة وفي نهاية الشوط سيصل إليها ويعيش في نعيمها خالداً فيها أبداً. . .

إن هذا الميزان لا ينطبق على بني إسرائيل الذين لم يؤمنوا بما أنزل الله من حيث أنهم كفروا بالله لتحريفهم كتابه ـ التوراة ـ وقالوا إفكاً وزوراً ـ لن تمسهم النار ـ وغيّروا صفات النبي محمد ﷺ الواردة في التوراة لينكروا نبوته. . . ليُضلّوا عباده وهكذا استمرت سلسلة الانحرافات عندهم التي ستوصلهم إلى النار.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾﴾.

❁ ❁ ❁

اللغة

﴿أَخَذْنَا﴾: من أخذ، والأخذ: ضد الإعطاء وهو حوز الشيء وتحصيله وذلك تارة بالتناول وأخرى بالقهر..

﴿ٱلْمِيثَٰقَ﴾: العهد المؤكد باليمين وهو أبلغ من العهد وجمعه المواثيق، والموثق هو: الميثاق والموافقة هي: المعاهدة.

﴿تَعْبُدُونَ﴾: من عبد، والعبودية: إظهار التذلل، والعبادة أبلغ منها لأنها غاية التذلل ولا يستحقها إلا من له غاية الإفضال وهو الله تعالى ولهذا قال: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾.

﴿ٱلْوَٰلِدَيْنِ﴾: هما الأب والأم ومفرده الوالد ومؤنثه الوالدة وجمعه الوالدون.

﴿حُسْنًا﴾: الحُسن عبارة عن كل مبهج مرغوب فيه.

﴿ٱلْقُرْبَىٰ﴾: من قرب منه وإليه إذا دنا وهي مصدر ويقصد بها القرب في الرحم.

﴿ٱلْيَتَـٰمَىٰ﴾: مفرده اليتيم ويطلق الجمع على الذكور والإناث واليتيم في الناس هو الطفل إذا فقد أباه ولم يبلغ، وفي الحيوانات من فقد أمه وكل منفرد يسمى يتيماً، ومن هنا يقال درة يتيمة إذا كان لا نظير لها.

﴿وَٱلْمَسَـٰكِينِ﴾: جمع المسكين، قيل هو الذي لا شيء له وهو أبلغ من الفقير.

﴿تَوَلَّيْتُمْ﴾: التولّي عن الشيء الإعراض عنه وعدم القرب منه.

﴿مُّعْرِضُونَ﴾: من أعرض عن الشيء إذا تولى وصد عنه، وقيل إن التولي يكون بالجسم والإعراض بالقلب.

التفسير

هذا تذكير للحاضرين من اليهود بما فعل أسلافهم من مخالفات إلٰهية.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ اذكروا ما كان من أجدادكم من بني إسرائيل حينما أخذنا منهم العهود المؤكدة على العمل بجملة من الأوامر، فأعطوا لتزاماتهم أن يقوموا بها، ولكنهم نقضوا العهود وخالفوها وتمادوا في العصيان، وهذه الأوامر التي أمر الله بها فخالفوها، هي:

١ ـ ﴿لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ فهذا أمر خرج بصورة الخبر المتضمن للنهي لتأكيد مضمونه، وهو أبلغ من الأمر وأبلغ من صريح النهي كما في البلاغة..

فأول أمر إلٰهي صدر إلى بني إسرائيل هو أن يحصروا العبادة بالله، فيعرفوه ويعرفوا مراده ثم يتوجهوا إلى عبادته وحده، ولكن هذا الأمر قد سقط من بين يدي بني إسرائيل ولم ينفّذوه.. إنهم في حياة موسى عبدوا العجل وبعد أن قبضه الله إليه عبدوا المادة والأهواء والميول والشهوات وابتدأ الله بذكر حقه لأنه الأصل في وجود هذا الإنسان...

٢ ـ ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ أي من الميثاق الذي أخذناه عليهم قولنا لهم أحسنوا إلى الوالدين ـ الأم والأب ـ إحساناً..

وحق الوالدين يأتي بعد حق الله، لأنهما السبب المباشر في تكوّن الولد وتربيته وتعليمه وتهذيبه والاعتناء به والإحسان إلى الوالدين يجب أن يكون بكل ما تعارف عليه الناس، إحساناً بالكلمة الطيبة والبسمة الحانية. يكون الإحسان بالوقوف معهما في أيام الشدة والكبر وعند المشيب... يكون الإحسان إليهما بالعناية بهما وتقديم ما يلزمهما من مساعدات مادية ومالية وروحية وعاطفية... وحتى لو كانا كافرين يجب الإحسان إليهما وإطاعتهما في غير معصية الله.

٣ - ﴿وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ وهم الأرحام، ولهذه الوشيجة الرحمية وأواصر الدم حقوق يجب القيام بها، وأهمها: الإحسان إليهم بما يناسب شأنهم المعنوي والمادي.

٤ - ﴿وَٱلْيَتَـٰمَىٰ﴾ وهم الصغار الذين فقدوا آباءهم ففقدوا بفقدهم العناية والتربية والاهتمام... فقدوا من يعيلهم ويعطف عليهم ويقف إلى جانب ضعفهم، فكانت الوصية بهم لكي يقف الطيبون إلى جانبهم ويحسنوا لهم في العطاء والعطف ويعوضوهم ما تيسر لهم عما خسروه بفقد آبائهم وأوليائهم...

٥ - ﴿وَٱلْمَسَـٰكِينِ﴾ هم الفقراء الذين لم تساعدهم الحياة لتخطي عتبات الفقر وهؤلاء يحتاجون إلى مدّ يد العون إليهم ومساعدتهم... يحتاجون إلى القلب الرحيم الحنون واليد السخية الطيبة التي ترفع عوزهم.

٦ - ﴿وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ أن تكون الكلمة الطيبة لجميع الناس وسُمّيَ القول حسناً مبالغة، فهو في نفسه حسن... وهذا أدب قرآني إلٰهي يعكس صورة المسلم نحو الآخرين سواء كانوا من أبناء دينه أو من غير دينه...

إنه الكلام الحسن الذي يفتح القلوب ويدغدغ المشاعر ويناغي الأحاسيس ويحرك أوتار القلوب ليجذب الإنسان للاستماع والحوار ثم الهداية والإيمان...

وفي أصول الكافي بإسناده إلى معاوية بن عمار عن أبي جعفر عليه السلام قال في قول الله عز وجل: ﴿وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ قال: قولوا للناس أحسن ما تحبون أن يقال فيكم...

٧ ـ ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ وهذه من تتمة ما أخذه الله من الميثاق على بني سرائيل أن يؤدوا صلاتهم المفروضة عليهم كما هي بحدودها وشروطها.

٨ ـ ﴿وآتوا الزكاة﴾ أمرهم بإخراج زكاتهم وإعطائها إلى المحتاجين كما هي حدودها وشروطها، ولكنهم لم يعملوا بشيء من تلك الأوامر كما لم يعملوا بما قدم من أوامر، ولذا ذمهم الله بقوله: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ﴾ لقد عطيتم ظهوركم لكل هذه الأوامر وضربتم ميثاق الله عرض الجدار... لم تقوموا بذه الأوامر ولم تنفذوها كما هي... إنكم تخليتم جميعاً عن العمل بها ـ إلا لة قليلة منكم ـ إنكم عصيتم الأمر وأبطلتم الطاعة ورفضتم ما أنزل الله...

لقد هجرتم أوامر الله وخلفتموها وراء ظهوركم لم تعطوها بالاً ولم تقوموا بها... نعم هناك قلة منكم ضائعة بقيت محافظة ولكن ليس لها أثر أو خبر يُعلم يُذكر...

﴿وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ﴾ دأبكم وطبيعتكم الإعراض عن أوامر الله وعدم الوفاء بها.

فوائد

١ ـ في هذه الآية دلالة على ترتيب الحقوق، فبدأ الله بذكر حقه لأن منه كان سل الوجود وكل موجود، ثم خص الوالدين لأنهما السبب المباشر ولإنعامهما لتربية...

ثم ذكر ذوي القربى لأنهم الأقرب من غيرهم ثم ذكر حق اليتامى لضعفهم ثم مساكين لفقرهم...

٢ ـ أساء الفخر الرازي الأدب وإن انتصر للإمام الباقر فيما ذهب إليه حينما ل وهو يستعرض قوله تعالى: ﴿وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ وإنها عامة أو خاصة قال: زعم أبو جعفر محمد بن علي الباقر عليه السلام أن هذا العموم باق على ظاهره وأنه حاجة إلى التخصيص وهذا هو الأقوى والدليل عليه أن موسى وهارون مع

جلال منصبهما أمرا بالرفق واللين مع فرعون وكذلك محمد ﷺ مأمور بالرفق وترك الغلظة. . .» إلى آخر كلامه فهو وإن أحسن الانتصار لرأي سيدنا الإمام الباقر عليه السلام فقد أساء الأدب بقوله زعم إلا أن نُخرج اللفظ عما هو ظاهر فيه. . .

قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾﴾.

* * *

اللغة

﴿لَا تَسْفِكُونَ﴾: السفك يقال لصبّ الدم والدمع والسفح للصب من أعلى وأصل السفك الصب والإراقة.

﴿ٱلدِّمَآءَ﴾: جمع الدم بحذف لامه واواً كان أو ياءً وأصله دماو أو دماي لقولهم في تثنيته دموان أو دميان وأصله السائل الأحمر الذي يجري في عروق الحيوان.

﴿تُخْرِجُونَ﴾: خَرجَ خروجاً ومخرجاً من موضعه إذا برز من مقرّه أو حاله سواء كان مقرّه داراً أو بلداً أو ثوباً . . .

﴿دِيَـٰرِكُمْ﴾: جمع دار وهو المنزل اعتباراً بدورانها الذي لها بالحائط، وتسمى البلدة داراً والصقع داراً والدنيا كما هي داراً.

﴿أَقْرَرْتُمْ﴾: أقرّ بالحق: اعترف به وأثبته على نفسه.

﴿تَشْهَدُونَ﴾: من شهد والشهود والشهادة الحضور مع المشاهدة إما بالبصر أو بالبصيرة وقد يقال للحضور، والشهادة قول صادر عن علم حصل بمشاهدة بصيرة أو بصر.

﴿فَرِيقًا﴾: اسم جمع لا واحد له من لفظه وجمعه أفرقة للقلة، وأفرقاء للكثرة وهي الجماعة والطائفة.

﴿تَظَـٰهَرُونَ﴾: مضارع حذف منه أحد التائين ومعناه تتعاونون والظهير المعين.

﴿ٱلْإِثْمِ﴾: جمعه الآثام وهو الذنب الذي يستحق صاحبه عليه الملامة.

﴿وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾: تجاوز الحد في الظلم.

﴿أُسَـٰرَىٰ﴾: من الأسر وهو الشدّ بالقيد من قولهم أسرت القتب إذا شددته وسمي الأسير بذلك، ثم قيل لكل مأخوذ ومقيد وإن لم يكن مشدوداً ذلك، وقيل في جمعه أُسارى أَسارى وأسرى ويقال أسرى الحرب لمن قبض عليهم من الأعداء...

﴿تُفَـٰدُوهُمْ﴾: الفدى والفداء حفظ الإنسان عن النائبة بما يبذله عنه، وفداه وفاداه إذا أعطى فداءه فأنقذه وفداه بنفسه وفدّاه يفدّيه إذا قال له جعلت فداك...

﴿مُحَرَّمٌ﴾: ممنوع منه، محظور.

﴿ٱلْجَزَآءُ﴾: ما فيه الكفاية من المقابلة إن خيراً فخير وإن شراً فشرّ وهي المكافأة على الفعل.

﴿ٱلْخِزْيِ﴾: الهوان والذل.

التفسير

هذا تذكير للحاضرين من بني إسرائيل بما سلف من آبائهم حيث كانوا يُنهون عن أمورٍ فيعترفون بتشريعها ثم يعمدون إلى مخالفتها والتمرد عليها.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ﴾ أذكروا يا بني إسرائيل حيث أخذنا عليكم العهد المؤكد الذي لا يمكن مخالفته أو تركه.

﴿لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ﴾ فهو أمر أُخرِجَ بصورة الإخبار المتضمن للنهي ليكون أقوى، وكأنه قد وقع وفُرِغ منه، إياكم أن تسفكوا دماءكم وتستبيحوها فهذا محرّم عليكم.. فلا يقتل بعضكم بعضاً حيث جعل قتل الرجل غيره قتلاً لنفسه لاتصاله به نسباً أو عقيدة أو لأنه يوجب قتله قصاصاً..

﴿وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ﴾ فلا يخرج بعضكم بعضاً من دياره فلا يجليه عنها أو يخرجه منها وهذا الأمر كان محرماً عليهم كما كان يحرم عليهم أن يقتلوا بعضهم وقد كانوا يعرفون ذلك ويقرّون به.

﴿ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ إنكم تعترفون بحرمة ذلك وتعلمون صدق تشريعه وما ورد به من الحظر والمنع، إن المخالفة تكون أشد والمعصية أعظم إذا كان يعرف الإنسان الحرام ثم يعمد إلى ارتكابه ويشهد بحرمته لأنه يقدم عليه عن سبق إصرار وتصميم وعن عمد وتمرد.

﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ﴾ فهذه هي المخالفة الأولى في هذا الباب إنها أول فقرة تنقض من الميثاق الذي أعطيتموه لله.. إنكم تقتلون أنفسكم من حيث تشنون الحروب فيما بينكم إما كحلفاء لغيركم من حيث يتحالف بعضكم مع هؤلاء وبعضكم الآخر مع أولئك ثم ينتصر كل منكم لحليفه وتدور المعارك وتقتلون بعضكم البعض، أو تدخلون الحرب بأنفسكم مستقلين عن الحلف لغيركم وعلى كل حال فأنتم مجرمون سفاكون لدماء بعضكم البعض ناقضون لميثاق الله وما أمركم به.

﴿وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ وهذه ثانية المخالفات في هذا الباب... إنه نقض للعهد الذي أعطيتموه لله من حيث إنكم تتعاونون مع أعدائكم معصية ومخالفة لله على فريق منكم لتخرجوهم من ديارهم وتجلوهم عنها..

إنها طريقة محرّمة لا يجوز ممارستها أو القيام بها وقد قام بها بنو إسرائيل.

﴿وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ﴾ وهذه كانت شريعة توراتية إذا سقط بعض بني إسرائيل في الأسر وجب دفع الفدية عنهم وتحريرهم، فكان هذا الأمر مما يقومون به مع مخالفتهم لما تقدم، فعابهم الله وأنبّهم على هذا التناقض العملي من حيث يقومون ببعض أحكام التوراة ويدفعون الأحكام الأخرى، يقتلون أبناء ملتهم من اليهود ثم إنهم إذا وقع أحد اليهود في الأسر يدفعون فداءً عنه لكي يخلّصوه، والأول محرم عليهم وهم يفعلونه والثاني واجب عليهم أن يقوموا فيه ـ والموضوع واحد وهو الإنسان اليهودي ـ.

يؤمنون ببعض ويكفرون ببعض، ولذا قال سبحانه: ﴿وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ﴾ تعرفون حرمة إخراج بني إسرائيل من ديارهم، ولكن مع ذلك تخرجونهم وتجلونهم عنها...

﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ إنكار عليهم وتوبيخ لهم أن يكون هذا دأبهم وذاك ديدنهم.. يؤمنون ببعض التوراة ويقومون بأحكامها بينما يكفرون بالبعض الآخر ويرفضون الالتزام به.. إن مثل هذه الطريقة تُلحق متبّعها بالكافرين، فالكفر بالبعض يساوق الكفر بالكل ولذا رتب الجزاء القاسي الشديد لمن يقوم بمثل هذا الدور الشائن.

فقال تعالى: ﴿فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ ففي الحياة الدنيا له عقوبة تتمثل بالذل والهوان... إنه الخزي الذي يتابعه في كل مراحل حياته فهو مهدّد في كرامته وعزته نتيجة مخالفته لأمر الله.

وأما في الآخرة فهناك المصيبة كل المصيبة.

﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ﴾ سيرجعون يوم القيامة إلى أشد العذاب من حيث دوامه وعدم انقطاعه ومن حيث يتولى الله هذا العذاب لوعيدهم به، وكون عذابهم أشد العذاب لأن كفرهم أشد الكفر وجرائمهم أشد الجرائم ثم عقب ذلك بقوله: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ تهديد لهم بأن الله لا ينسى أعمالهم وما يقومون به.

إنه سبحانه لم يغفل عنهم وعن أعمالهم بل يحصيها وسيحاسبهم عليها، فيجب أن يتوقفوا عن المخالفة ويعودوا إلى الطاعة حتى لا ينالهم غضبه وتلحقهم عقوبته..

وأخيراً يكشف سبحانه عن الدوافع والأسباب التي حملتهم على الإيمان ببعض الكتاب والكفر بالبعض الآخر فقال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ﴾ إن السبب الرئيسي لهذه المخالفة هي الدنيا.. إنهم أحبوها وعشقوها فباعوا الآخرة بها... تخلّوا عن الآخرة وما أعدّه الله لمن آمن بالكتاب كله من أجل دنيا حقيرة، فآمنوا بما لا يضرهم ولا يضر مصالحهم، وكفروا بما لا ينفعهم ولا يخدم مصالحهم..

إنها الدنيا التي تقدمت في نظرهم على الآخرة فآثروها وراحوا يمارسون من أجل دنياهم كل ما يقدرون عليه وإن كان على حساب آخرتهم، لكن الله يهدّدهم بقوله تعالى: ﴿فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ فلا ينقطع عنهم العذاب ولو لحظة واحدة ولا يرتفع عنهم ولو ساعة.. إنه دائم مستمر بهوله وقسوته وفظاعته وليس لهم ناصر ينصرهم أو يدفع عنهم هذا العذاب الأليم، ومن كتب عليه العذاب وانقطع عنه الناصر والمعين كيف يكون حاله؟ وهل يقدر على مواجهة هذا العذاب أو تحمّله؟... إنه الجزاء العادل الذي يقابل هذا الكفر العظيم...

فوائد

١ - إن قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم﴾ قيل إنها نزلت في اليهود المعاصرين للنبي ﷺ حيث كان بنو قريظة - من اليهود حلفاء الأوس من المشركين، بينما كان يهود بني النضير حلفاء الخزرج، وكانت تدور بين الأوس والخزرج معارك فكان كل حليف ينصر حليفه فيقتل اليهودي اليهودي كما يخرّب اليهودي ديار اليهودي مثله، وإذا وقع بعض اليهود أسرى كان يعمد جميع اليهود إلى فدائه وفكّه من الأسر تصديقاً لما في التوراة وامتثالاً لحكمها فعابهم الله وأنّبهم بفعلهم من حيث مخالفة التوراة في القتل والإجلاء وموافقتها في المفاداة...

٢ - إن قوله تعالى: ﴿لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ﴾ قالوا: إنه سبحانه جعل قتل الرجل منهم لغيره قتلاً لنفسه لاتصاله به نسباً أو ديناً، أو لأنه إذا قتله يُقتل به قصاصاً.

وقيل: المراد أن لا يرتكبوا من الأفعال ما يستوجب سفك دمائهم وإخراجهم من ديارهم.

وقيل: لا تفعلوا ما يصرفكم عن الحياة الأبدية، فلا ترتكبوا ما حرّم الله لئلا تحرموا من الجنة وتجلوا عنها ويكون ذلك الجلاء الحقيقي.

ولا يخفى أن الآية الكريمة ظاهرة في المعنى الأول، وفي غيرها يحتاج إلى تقدير وتكلف وهو خلاف الأصل ولا موجب له.

٣ - وفي قوله تعالى: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ دلالة على أن من آمن ببعض أحكام الله وكفر ببعضها الآخر مع معرفته بأن ما ينكره حكم الله كان من الكافرين الخالدين في النار لا يخفّف عنه العذاب ولا ناصر له.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾﴾.

❁ ❁ ❁

اللغة

﴿وَءَاتَيْنَا﴾: الإيتاء: الإعطاء.

﴿قَفَّيْنَا﴾: أتبعنا وأردفنا مأخوذ من القفا وهو مؤخر العنق يقال: قفاه إذا اتبعه وقفاه به إذا اتبعه إياه، وسميت قافية الشعر بذلك لأنها تتلو سائر الكلام.

﴿ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾: جمع بيّنة وهي الدلالة الواضحة عقلية كانت أو محسوسة وهي هنا المعجزات.

﴿وَأَيَّدْنَٰهُ﴾: قوّيناه.

﴿رُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾: جبرائيل، والقدس الطهارة والبركة، والتقديس: التطهير.

﴿لَا تَهْوَىٰٓ﴾: لا تحب، والهوى: ميل النفس إلى الشهوة.

﴿وَفَرِيقًا﴾: اسم جمع لا واحد له من لفظه، وجمعه، أفرقة للقلة، وأفرقاء للكثرة وهي الجماعة والطائفة.

﴿غُلْفٌ﴾: جمع أغلف وهو الذي لم يختن، وغلاف السيف: قرابه وهو غطاءه، وغلاف الكتاب جلده الخارجي، فالغلاف هو الغطاء.

﴿لَّعَنَهُمُ﴾: اللعن: الطرد والإبعاد.

التفسير

هذا هو دأب بني إسرائيل وديدنهم مع كرم الله ونعمه عليهم.. إنهم يقابلون كل نعمة بالتمرد والعصيان وهنا يذكر الله نعمة بَعْث الرسل إليهم ابتداءً بموسى ومروراً بقافلة الأنبياء بعده إلى زمن النبي محمد ﷺ وكيف واجهوهم بالقتل أو التكذيب.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ إنه سبحانه يقسم أنه أعطى موسى التوراة، فعظيم يتسلّم أمراً عظيماً.. نبي كبير يختاره الله لمهمة كبيرة هي حمل التوراة وتبليغها للناس ثم لم يقتصر الأمر على موسى بل ﴿وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ﴾ لقد توالت الرسل بعد موسى كلما غاب نبي بعث الله نبياً فلم تنقطع سلسلة الأنبياء ولم تتوقف عن بني إسرائيل... إنها نعمة إثر نعمة ونبي يتبع نبياً حتى لا يَشذّ بنو إسرائيل أو ينحرفوا عن الدين.

﴿وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ ذكر الله عيسى بالاسم والخصوصيات لأهمية دوره من حيث جاء برسالة عالمية، فكان من أولي العزم من الرسل الذين تخطّت دعوتهم بني إسرائيل...

إنه عيسى بن مريم بعثه الله ومعه الحجج والبيّنات الدالة على صدقه وصدق ما جاء به.. إنها بيّنات واضحات الدلالة... في مولده بيّنة ودلالة واضحة.. وفي كلامه وهو في المهد دلالة واضحة، في إبرائه الأكمه والأبرص دلالة.. في إحيائه الموتى دلالة واضحة، إنها دلائل زوده الله بها وزيادة على ذلك أيّده الله بجبرائيل ذلك الروح الأمين الذي تولاه منذ صغره وكان عونه في كل مراحل حياته منذ صغره وإلى أن رفعه الله إليه...

هذه هي قافلة الأنبياء.. نبي بعد نبي وكل نبي يأتي حاملاً الدعوة إلى بني إسرائيل فماذا كان موقفهم منهم؟ وكيف قابلوا أنبياء الله وبأي شكل واجهوهم؟... هل استمعوا إليهم وقبلوا منهم وساروا على هداهم؟... إن الله يخبرنا عن سلوكهم نحو أنبيائهم.. يخبرنا عن مسيرتهم وسيرتهم معهم... إنها سيرة بني إسرائيل المستمرة التي كانت وستبقى إلى آخر يوم في الدنيا ومع كل الأنبياء والدعاة إلى الله يقول تعالى:

﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾

هذه هي طريقة بني إسرائيل مع أنبيائهم.. إنها طريقة ساقطة وباطلة من حيث أنهم كلما جاءهم رسول بما لا يحبون ولا ترغب أنفسهم فيه كانوا يستكبرون عليه ويقفون منه أحد موقفين: إما تكذيب له ولما جاء به، وإما يعمدون إلى قتله إن كانوا قادرين على ذلك، وبين التكذيب للأنبياء والقتل لهم، كانت هذه هي سيرة بني إسرائيل... إنهم قتلوا يحيى وزكريا وكذّبوا عيسى ومحمداً وهكذا يفسدون في الأرض ويقتّلون أنبياء الله...

ثم ذكر سبحانه مقالة يهود المدينة الذين كانوا أثناء بعثة رسول الله حينما دعاهم النبي ﷺ إلى الإيمان به، فكان جوابهم بكل صلافة ووقاحة ﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ﴾ قلوبنا عليها أغشية تمنع الهداية ولا تقبل الإيمان... إنهم ويبدون أن يفكروا إلا في العناد والمعارضة كان جوابهم المفضل الذي به ينقطع أمل النبي في هدايتهم وشدهم إلى الإيمان... لقد أقفلت القلوب وغلّفت بغشاوة مانعة عن الاستقبال لأي خير يأتي به النبي ﷺ.. يا الله أي منطق يملكه هؤلاء اليهود وهل هذا المنطق يمكن أن يتفوه به إنسان يحترم عقله ودينه وشخصيته؟! ولكن متى كان لليهود منطق أو شخصية أو احترام لعقل أو لفكر؟.. إنهم لا يريدون الهداية فلا يريدون أن يسمعوا كلام الله، ولكن هذا المنطق واجهه الله بقوله لهم رداً عليهم: ﴿بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾.

إن هذا المنطق الملتوي من اليهود يستحق هذا الجزاء... إنه جزاء كفرهم وعنادهم وإصرارهم على موقف الردّ على النبي ﷺ وعدم الاستماع له.. إنه

الجزاء العادل لمن لا يستمع إلى كلمة الحق ويذعن لها. . . إنه الطرد من رحمة الله والبعد عن ساحته. . بل لعنهم الله. . استحقوا الطرد واللعن من الله بهذا الكفر الصريح، فالمؤمنون منهم قلة قليلة كعبد الله بن سلام فهذا وأمثاله استثناء يخرج عن القاعدة التي تحكم بني إسرائيل بالكفر والعناد. . . .

فوائد

١ - قالوا إن المراد بقوله تعالى: ﴿وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ هو جبرائيل وهذا هو المعتمد وإليه المصير، فإن قوله تعالى يخاطب عيسى عليه السلام ويقول: ﴿إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾[1].

ويخاطب النبي ﷺ: إن جبرائيل هو الذي ينزل بالوحي ويسميه الروح القدس: ويقول تعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾﴾[2].

وقال بعضهم أن المقصود بروح القدس هو الإنجيل.

وقال ثالث: إنه الاسم الأعظم الذي كان يحيي به الموتى، وقيل غير ذلك. . .

٢ - قالوا في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ﴾ أي عليها أغشية تمنع وصول كلام الله إليها، وهذا ما ذهبنا إليه وهو الراجح من منطق اليهود.

وقال بعضهم إن قولهم: ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ﴾ أي مغلفة بالعلم ومملوءة بالحكمة والمعرفة فلا حاجة لنا إلى دين محمد وما جاء به.

وقال ثاني: إن ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ﴾ أي كالغلاف الخالي من الدلائل والبينات التي تدل على صحة ما يدعو إليه النبي. . .

---

(١) المائدة/ ١١٠.
(٢) النحل/ ١٠٢.

٣ ـ قالوا أن قوله تعالى: ﴿فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ قالوا يراد به أي لا يؤمن إلا القليل كما آمن عبد الله بن سلام.

وقال بعضهم: يراد به أن لا يؤمنون بكل ما جاء من عند الله، بل يؤمنون ببعض ولا يؤمنون بالبعض الآخر.

وقال ثالث: واختاره الطبرسي في مجمعه «لا يكون أصلاً لا قليلاً ولا كثيراً». . .

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾﴾.

❁ ❁ ❁

اللغة

﴿يَسْتَفْتِحُونَ﴾: يستنصرون من الاستفتاح وهو طلب الفتح أي النصر.

﴿بِئْسَمَا﴾: أصلها ـ بئس ما أي بئس الذي وهي كلمة مستوفية للذم كما أن نعم مستوفية للمدح.

﴿ٱلْبَغْىَ﴾: الحسد والظلم.

﴿فَبَآءُو﴾: رجعوا وعادوا.

﴿مُّهِينٌ﴾: من الهوان وهو الذل.

التفسير

هذه قصتهم مع مَنْ كان معهم من المشركين قبل مبعث رسول الله ﷺ

وموقفهم من الانتظار للنبي ﷺ ثم كيف غيّروا موقفهم وأبدلوا توجههم..؟

إنهم قبل أن يبعث الله محمداً رسولاً كانوا يعيشون فترة انتظار وترقب.. إنهم قرأوا في التوراة صفات النبي وخصائصه ومميزاته ومكان بعثته ومحل مهاجرته، ولذا نزلوا (يثرب) وهم يحملون فكرة قرب مبعثه، متوقعين أن يكون منهم، وكانوا يقولون للأوس والخزرج شركاؤهم في الدار والمقام: أما لو قد بعث الله نبي آخر الزمان لنخرجنكم من ديارنا، فلما بُعث النبي كفروا به حسداً وظلماً، لأنه لم يكن منهم من جهة، ولأن وجوده يضر بمكانتهم الاجتماعية وما يتمتعون به من رئاسة وزعامة من جهة أخرى، قال تعالى:

﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ﴾ فهؤلاء اليهود لما جاءهم القرآن من عند الله وهم يعلمون صدقه لحججه وبيّناته، وما فيه من إخبار وتشريع، وما فيه من تطابق لما عندهم في كتاب التوراة من ذكر محمد وصفاته وخصوصياته.

﴿وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي قبل أن ينزّل القرآن ويبعث الله محمداً ﷺ، كانوا يستنصرون ويتوعدون المشركين بأن النصر يكون بطلعته ومبعثه وأنهم يستنصرون عليهم بهذا القرآن وهذا النبي...

وفي روضة الكافي عن أبي عبد الله عليه السلام[1] في قوله عز وجل: ﴿وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾. فقال: كانت اليهود تجد في كتبها أن مهاجر محمد ﷺ ما بين (عير) و(أُحُد) فخرجوا يطلبون الموضع، فمروا بجبل يسمى (حداد) فقالوا: (حداد) (واحد) سواء فتفرقوا عنده فنزل بعضهم بـ(تيماء) وبعضهم بـ(فدك) وبعضهم بـ(خيبر) فاشتاق الذين بـ(تيماء) إلى بعض إخوانهم، فمر بهم أعرابي من قيس فتكاروا منه وقال لهم: أمرُّ بكم ما بين (عير) و(أحد)، فقالوا له: إذا مررت بهما فآذنا بهما فلما توسط بهم أرض المدينة قال لهم: ذاك (عير) وهذا (أحد) فنزلوا عن ظهر إبله وقالوا قد أصبنا بغيتنا فلا حاجة لنا في

(١) نقلاً عن تفسير نور الثقلين، ج١، ص١٠٠.

إبلك فاذهب حيث شئت، وكتبوا إلى إخوانهم الذين بـ (فدك) و(خيبر) إنا قد أصبنا الموضع فهلمّوا إلينا، فكتبوا إليهم إنا قد استقرت بنا الدار واتخذنا الأموال وما أقربنا منكم، فإذا كان ذلك فما أسرعنا إليكم فاتخذوا بأرض المدينة الأموال، فلما كثرت أموالهم بلغ تبعاً فغزاهم فتحصنوا منه فحاصرهم، وكانوا يرقون لضعفاء أصحاب تبّع فيلقون إليهم بالليل التمر والشعير فبلغ ذلك تبع فرقّ لهم وأمنهم فنزلوا إليه فقال لهم: إني قد استطبت بلادكم ولا أراني إلا مقيماً فيكم فقالوا له: إنه ليس ذاك لك إنها مهاجر نبي وليس ذلك لأحد حتى يكون ذلك.

فقال لـم: فإني مخلّف فيكم من أسرتي من إذا كان ذلك ساعده ونصره فخلف «حيين الأوس» و«الخزرج»، فلما كثروا بها كانوا يتناولون أموال اليهود وكانت اليهود تقول لهم: أما لو قد بعث محمد لنخرجنكم من ديارنا وأموالنا فلما بعث الله محمداً ﷺ آمنت به الأنصار وكفرت به اليهود وهو قول الله عز وجل: ﴿وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾.

﴿فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا﴾ فلما تطابقت معلوماتهم وما عندهم من بشارات ومعرفة مع ما في الواقع من بعثة النبي وصفاته..

﴿كَفَرُوا بِهِ﴾ كفروا بالنبي وبالقرآن عن علم ومعرفة وهو أعظم الكفر وأقبحه فاستحقوا بذلك اللعن من الله ﴿فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ أبعدهم عن رحمته وأدخلهم ناره واليهود هم أحق الكافرين بهذا اللعن...

ثم بيّن سبحانه خساستهم وضعتهم وكيف باعوا أنفسهم بأبخس الأمور وأحقرها، وكيف باعوا آخرتهم بدنيا زائلة فانية؟.

﴿بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ﴾ بئس الشيء الذي باعوا به أنفسهم حيث اشتروا الكفر به حسداً وحقداً أن يكون الله قد اختص محمداً بالرسالة وبعثه إلى الخلق ﴿أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ أي كفرهم بما أنزل الله وهو المشترى ثمناً لأنفسهم وبدلاً عنها.

ويزيد كفرهم وعداوتهم هذا حسداً وحقداً ﴿بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ فدافعهم إلى هذا الموقف الخاسر الذي باعوا به أنفسهم هو الحسد على محمد الذي اختاره الله واختصه من بين عباده لحمل رسالته والله يختص بفضله ـ الرسالة ـ من يشاء من عباده. . .

وكانت نتيجة هذا البيع منهم والحسد لرسول الله أنهم ﴿فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ رجعوا بغضب جديد لكفرهم وعنادهم ورفضهم للحق زيادة على أنهم كانوا من المغضوب عليهم قبل ذلك فرجعوا بغضب من الله زيادة على سابق غضبه عليهم. . .

﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ فلكفرهم بسبب تكبّرهم وحسدهم عذاب مقرون بالذل والهوان، زيادة في الامتهان والإذلال. . .

قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾﴾.

❁ ❁ ❁

اللغة

﴿وَرَآءَ﴾: في الأصل مصدر جُعل ظرفاً ويضاف إلى الفاعل فيراد ما يتوارى به، وهو خلفه وإلى المفعول فيراد به ما يواريه وهو قدامه ولذلك عدّ من الأضداد..

التفسير

وهذا موقف مشين من جملة مواقف اليهود المشينة... إنه موقف العصبية والأنانية التي تربّت عليها نفوسهم فلا يعترفون بغيرهم ولا يعترفون بما ينزل الله على أحد غيرهم... إنهم منغلقون على أنفسهم لا يسمحون لها أن تفكّر بغير ما هو معها وما هي عليه ولذا كان هذا الموقف السفيه منهم فيقصه الله كما وقع، ويؤنّبهم على مخالفتهم.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ قد يكون الرسول هو الذي قال لهم آمنوا

بالقرآن الذي أنزله الله وقد يكون المسلمون، وليس المهم أن نعرف مَنْ القائل ولكن المهم أن نعرف القول ومفاده؟. . . إنها دعوة إلى الإيمان بما أنزل الله ـ بالقرآن ـ وما فيه وليس فيه إلا ما ينفع ويفيد ويقرّب العبد من ربه ويبعّده عن الشيطان ـ فيه الخير والهدى وما يوصل إلى الجنة ونعيمها ويسمع بنو إسرائيل القول ولكنهم بدل أن يبادروا ويستجيبوا ويؤمنوا.

﴿قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾ اقتصروا في الإيمان على ما أنزل عليهم من التوراة. . . إنها التوراة فحسب نؤمن بها ولا نتعدى في الإيمان إلى غيرها بل ﴿وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ﴾ ويكفرون بالقرآن الذي هو خلف التوراة من حيث النزول ويحمل معه دلائل صدقه من حيث يتطابق مع ما في التوراة من الأحكام والتشريعات، وما فيه من ذكر لأوصاف النبي وردت في كتابهم. . . إن ما في القرآن مما يتطابق مع التوراة دليل على صدقه وإنه من عند الله يجب الإيمان به، لأن النبي لم يقرأ ولم يكتب ولم يتتلمذ على يد أحد، ومع ذلك يخبر عن الله ويكلام القرآن عما في التوراة، فهذا يكشف أنه رسول من عند الله يتلقى فيه القرآن وينقله إلى الناس فيجب الإيمان به وتصديقه ومتابعته. . . ثم إن الله يكشف كذب ما ادعوه من أنهم يؤمنون بالتوراة ولا يؤمنون بغيرها من كلام الله، قال تعالى:

﴿قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ هذا خطاب من الله لنبيه محمد أن يقول لهم: ـ للحاضرين، وإن كان الفعل قام به آباؤهم لأنهم وافقوا على أعمالهم وسدّدوا أقوالهم وما فعلوه، فخوطب الحاضرون بما خوطب به آباؤهم إن قولكم ﴿نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾ هذا منكم كذب، لأن ما تقولونه لو كان صدقاً ما قتلتم أنبياء الله الماضين كيحيى وزكريا وغيرهما فإن من ادعى الإيمان لا يقوم بما ينافيه ولا يعمل عملاً يخالفه فيكون كاذباً في دعواه مجافياً للحقيقة فيما يقول. . .

فائدة

قالوا إن قوله: ﴿وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُمْ﴾ أي بما بعده.

وقال الفراء أن ﴿وَرَآءَهُمْ﴾ هنا يقصد به ما سواه.

كما يقال للرجل يتكلم الكلام الحسن فيقال لكلامه: ما وراء هذا الكلام شيء يراد ليس عند المتكلم به شيء سوى ذلك الكلام.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُم مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ ﴿٩٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِ إِيمَانُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾﴾.

❁ ❁ ❁

اللغة

﴿الْبَيِّنَاتِ﴾: جمع بينة وهي الدلالات الواضحة عقلية كانت أم حسّية وهي هنا المعجزات.

﴿الْعِجْلَ﴾: ولد البقر.

﴿الْمِيثَاقَ﴾: العهد المؤكد باليمين وهو أبلغ من العهد وجمعه المواثيق، والموثق هو الميثاق، والمواثقة هي المعاهدة.

﴿وَرَفَعْنَا﴾: من الرفع يقال تارة في الأجسام الموضوعة إذا أعليتها عن مقرها.

﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ﴾ وتارة في البناء إذا طوّلته ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ﴾ [البقرة: ١٢٧] وتارة في الذكر إذا نوهته ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾﴾ [الشرح: ٤] وتارة في المنزلة إذا شرّفتها ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾ [الزخرف: ٣٢].

﴿الطُّورَ﴾: اسم للجبل الذي كلّم الله موسى عليه، وقيل اسم لكل جبل.

﴿ءَاتَيْنَٰكُم﴾: أعطيناكم.

﴿بِقُوَّةٍ﴾: بجد وعزم ويقين.

﴿وَأُشْرِبُوا۟﴾: من الشُرب وهو تناول كل مائع ماء كان أو غيره ﴿وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ﴾ معناه أن حب العجل ذهل قلوبهم واستقر فيها.

التفسير

تقبيح وتهجين لممارسات بني إسرائيل وأعمالهم القبيحة وكيف قابلوا الإحسان بالإساءة والإيمان بالكفر؟.. إنها حكايتهم مع موسى وردتهم السافرة حيث عبدوا العجل من دون الله بعد أن حمل موسى إليهم الحجج والبينات الدالة على صدقه وصدق ما جاء به...

﴿وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أقسم أن موسى جاء بني إسرائيل بالمعجزات الدالة على صدق نبوته.. إنها بينات واضحة ودلائل ظاهرة لمن تدبرها أو ألقى إليها السمع وهو شهيد، فإن انقلاب العصا إلى ثعبان وانفجار الماء من الحجر بضربة العصا، وكذلك اليد البيضاء، وفلق البحر وغيرها مما جاء به كلها تكشف عن حقيقة واحدة تحكي صدق ما ادعاه موسى من النبوة... فيجب على بني إسرائيل أن يصدقوه ويتابعوه ويناصروه حتى يحقق فيهم إرادة الله، ولكن القضية جاءت عكس ذلك وخلافه.

إنهم وبعد كل تلك الحجج والآيات وتمام وضوحها انحرفوا عن المنهج السديد وضلوا الطريق إلى أقبح ما يمكن أن يتدنى إليه إنسان أو ينحط إليه بشر... لقد أسفّوا حتى عبدوا العجل...

﴿ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ لقد عبدوا العجل وانحرفوا عن عبادة الله بعد أن جاءتهم البينات وتوضحت لديهم الحقائق... إنها فترة قصيرة غاب خلالها موسى لملاقاة ربه ومناجاته وتلقي الألواح منه، فكانت هذه الرِّدة

إلى عبادة العجل. . . إنها حالة ظالمة منهم أو شيء اعتادوه حتى تحوّل إلى طبيعة لهم، كلا الأمرين جائز وهو في حقهم وارد ومفاده ظلم واعتداء.

وكذلك لم يتوقف بنو إسرائيل عند حدّ معيّن بل تحولوا إلى شعب مشاغب يسمع الأمر ويعصيه ويعلن عن هذا العصيان ويتشدق به وكأنه طاعة أو امتثالاً له. . .

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ﴾ اذكروا هذه الحالة التي أخذنا فيها عليكم العهد المؤكد أن تأخذوا التوراة وتعملوا بها ولا تتهاونوا بها، وعندما ترددتم رفعنا فوق رؤوسكم الجبل ونظرتم إليه وشعرتم بالخطر وعظمة هذا الأمر.

فقلنا لكم: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا﴾ خذوا التوراة واعملوا فيها بجدّ وقوة وافهموا أحكامها وطبقوا بنودها ولا تتهاونوا بشيء منها، وكان من حق هذا الشعب أن يستمع ويفهم ويطيع ويبادر إلى تنفيذ الأمر ولكنه شعب متمرد عاصٍ طُبع على المخالفة حتى جهر بها وأعلنها.

و﴿قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ هذا منتهى الوقاحة وأشد الصلافة. . قوم لم يعودوا يستحون من إعلان العصيان، فلذا يجهرون ويعلنون بكل وضوح مواقفهم.

لقد وصل البيان إلينا وفهمنا المراد والمطلوب ولكننا لن نطبق شيئاً مما أريد منا ولن نقوم بشيء مما هو مطلوب منا. .

ثم يحكي الله سبب ذلك التمرد والعصيان بقوله: ﴿وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾ فلكفرهم تغلغل حب العجل في قلوبهم، وصار جزء منها بل خالطها كمخالطة الشراب لبدن الإنسان عندما يتناوله والفارق أن هذا في البدن وذاك في القلب. . . إنهم عاشوا حب العجل حتى سرى حبه في قلوبهم فلا يمكن أن ينفكوا عنه أو يتحلّلوا منه. . .

ثم نعى عليهم إيمانهم المزيف كما سفّه لهم هذا الإيمان الذي ليس لهم منه إلا هذه الدعوى الفارغة. .

﴿قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أذرى على أيمانهم وقبّح هذا الإيمان الذي يأمر بالمخالفة والعصيان، بل نفى عنهم الإيمان لمخالفتهم لمقتضاه وما يتطلبه منهم ويدعوهم إليه.

فوائد

١ - الضمير في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾. أي ما بعد موسى لما فارقكم ومضى لميقات ربه.

ويمكن أن يرجع أيضاً للمجيء فيكون من بعد مجيء موسى بالبينات...

٢ - إن قوله ﴿وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ﴾ الإشراب مخالطة المائع للجامد ثم توسعوا فيه فصار في اللونين ومنه بياض مشرب بحمرة وهذا مجاز لتمكن حبّ العجل في قلوبهم وقيل ﴿وَأُشْرِبُوا۟﴾ بمعنى الإحكام والشد كما تقول: أشربت البعير أي شددت في عنقه حبلاً...

وإنما عبّر بالشرب دون الأكل، لأن شرب الماء يتغلغل في الأعضاء حتى يصل إلى باطنها كما هو معتقدهم، ومن عادتهم إذا أرادوا أن يعبروا عن مخامرة حب أو بغض استعاروا له الشراب، وللأطباء مقولة ينقلها البعض عنهم، فيقول:

«الماء مطيّة الأغذية، والأدوية: مركبها الذي تسافر به إلى أقطار البدن...».

قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ
فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ
بِالظَّالِمِينَ ﴿٩٥﴾ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ
أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾.

اللغة

﴿خَالِصَةً﴾: مصدر خلص، والخالص كالصافي، إلا أن الخالص هو ما زال عنه شوبه بعد أن كان فيه، وخلص لي هذا الأمر صار لي وحدي.

﴿دُونِ﴾: يقال للقاصر عن الشيء دون وأيضاً على ما سوى ذلك وقوله: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ [النساء: ٤٨] يصلح للمعنين..».

﴿فَتَمَنَّوُا﴾: من التمني وهو تشهّي حصول ما توده.

﴿أَبَدًا﴾: الأبد هي عبارة عن مدة الزمان الممتد الذي لا يتجزأ كما يتجزأ الزمان، وذلك أنه يقال زمان كذا ولا يقال أبدُ كذا وأبد وأبيد أي دائم وذلك على التأكيد.

﴿قَدَّمَتْ﴾: فعلت وعملت..

﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ﴾: لتعرفنهم.

﴿أَحْرَصَ﴾: من الحرص وهو فرط الشره وفرط الإرادة، والحرص شدة الرغبة في الشيء.

﴿يَوَدُّ﴾: محبة الشيء وتمنى كونه.

﴿يُعَمَّرُ﴾: من العمر وهو اسم لمدة عمارة البدن بالحياة، والتعمير إعطاء العمر بالفعل أو بالدعاء.

﴿أَلْفَ﴾: العدد المخصوص، وسمي بذلك لكون الأعداد فيه مؤتلفة، فإن الأعداد أربعة آحاد وعشرات ومئات وألوف فإذا بلغت الألف فقد ائتلفت، وما بعده يكون مكرراً فيقولوا عشرة آلاف، مئة ألف، مئة ألف ألف وهكذا...

﴿بِمُزَحْزِحِهِ﴾: من زحزحه إذا نحّاه وأبعده.

﴿الْعَذَابِ﴾: الإيجاع الشديد، وقد عذّبه تعذيباً أكثر أي حبسه في العذاب.

التفسير

ادّعاءات يهودية باطلة:

كان بنو إسرائيل يعيشون أحلاماً واهية وادعاءات باطلة وانتفاخات فارغة.. كانوا يعيشون على حساب أمجاد أنبيائهم ويدّعونها لأنفسهم زوراً وبهتاناً... وكانوا يطلقون الأمنيات التي يحلمون بها ويغرّون بها غيرهم من البسطاء.

قالوا عن أنفسهم ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ [المائدة:١٨] وقالوا: ﴿لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾ [البقرة: ٨٠] وقالوا: ﴿لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا﴾ [البقرة: ١١١] وقالوا وقالوا.. وادعوا زوراً وبهتاناً هنا أن الجنة لهم وحدهم دون غيرهم من الناس... إنهم أرادوا احتكار الجنة لأنفسهم ومنعوا غيرهم من دخولها وليتهم اقتصروا على أنهم من أهل الجنة لهانت القضية وسهل الأمر، ولكن الدعوة الكاذبة حملت شهود كذبها معها من حيث تمنع خلق الله الآخرين ـ غير اليهود ـ من دخول الجنة...

لقد كان الرد عليهم حاسماً. . إنها دعوة باطلة تستحق أن يرد عليها وبأسلوب التحدي الذي يكون القائم عليه النبي ـ محمد ﷺ ـ نفسه.

ولذا كان هذا التحدي بمستوى المعجزة التي توقّف اليهود عندها ولم يجرؤوا على الإقدام عليها أو مقابلتها بما تحمله وتتحداهم فيه. . .

﴿قل﴾ يا محمد لهؤلاء اليهود المدّعين المبطلين.

﴿إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.

هذا هو التحدي الكبير لفئة تحتكر الجنة لنفسها وتمنع غيرها منها. . . إن كنتم كما تزعمون أن الجنة لكم وحدكم فتمنوا الموت. . . اطلبوه لأن فيه راحتكم وسروركم وخلاصكم من الدنيا ومتاعبها وما فيها من مشقات ومنغصات. . إن الدار الآخرة ـ الجنة ـ فيها الراحة والسكينة والاطمئنان والهدوء والنعيم وليس فيها من منغصات الحياة الدنيا شيئاً فتمنوا الموت إن كنتم صادقين أنّ الآخرة لكم وحدكم. . .

وكان على بني إسرائيل أن يستجيبوا لهذا التحدي لو كانوا صادقين فيما يذهبون إليه ويعتمدون عليه، ولكنهم أحجموا وامتنعوا وخافوا ولم يبادروا إلى الرد على هذا التحدي ولو بادروا لاستؤصلوا وأخمدت نارهم. . .

إن قوله تعالى: ﴿فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ تشبه المباهلة التي جرت بين النبي وأهل بيته وبين نصارى نجران، فامتنع النصارى ولم يباهلوا المسلمين خوفاً على أنفسهم من أن يأخذهم الله بعذاب أليم يقضي عليهم وينهي وجودهم. . لكن هنا كان التمني فحسب، يؤدي إلى أخذهم والقضاء عليهم. . .

ثم إن الله يحكي ما في نفوسهم وما يعيشون فيه ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٥﴾﴾.

هذا إخبار عما يعيشه هؤلاء اليهود وإنهم قطعوا على أنفسهم عدم تمني الموت لها خلال حياتهم كلها. . .

﴿وَلَن﴾ تفيد النفي المستقبلي و﴿أَبَدًا﴾ تؤكد هذا النفي وتثبته، فهم لإجرامهم وانحرافهم وعصيانهم وتمردهم، كيف يطلبون الموت ويصلون من خلاله إلى الآخرة. . .؟ فالآخرة السعيدة لمن اتقى وأطاع الله ولم يعص أمره أو يتعدى حدوده، وهؤلاء قوم عصاة ظلمة تنتظرهم النار وعذاب الملك الجبار فلذا لن يتمنوا الموت أبداً طيلة أعمارهم حتى لو لم يبق منها إلا لحظة واحدة، لن يتخلوا عن الدنيا ويطلبوا الآخرة، لأن الآخرة بالنسبة لهم فيها النار والعذاب. . . ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ أمثالهم الذين سينالهم العقاب نتيجة ظلمهم وانحرافهم وتعدّيهم على حدود الله. . .

ثم إن هؤلاء اليهود ـ فضلاً عن أنهم لن يتمنوا الموت أبداً ـ فهم أحرص الناس على الحياة ولو كانت أتفه حياة وأحقرها، ولذا قال الله لنبيه: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾.

إنهم قوم فاقوا الناس جميعاً في حبهم للدنيا والرغبة فيها ـ حتى فاقوا لمشركين الذين لا يؤمنون بالآخرة التي تكون الدنيا هي مبلغ علمهم وأكبر همّهم ـ فكانوا أحرص الناس على الحياة حتى لو كانت تافهة وحقيرة أو ذليلة وخانعة. . . إنهم أحرص الناس على حياة. . . أحبوا الحياة وأرادوها. . طلبوها وحرصوا عليها. . لقد غلت الحياة عندهم وعزّت عليهم فكيف يتنازلون عنها ويتمنون الموت القاطع لها والقاضي عليها. . .؟

إننا نقرأ هذه الآية فنجد تجسيدها اليوم في عالمنا المعاصر. . . حيث تتجسد لآية في اليهود بوضوح فهم قوم من أحرص الناس على حياة.

وقد نقلت وكالات الأنباء أن اليهودي كان يُدفع قهراً عنه إلى دخول الأراضي للبنانية خوفاً من بأس المقاومين المسلمين، ونقلت الصحف والإذاعات المرئية المسموعة أخبار التمرد الذي كان يحصل من الجنود اليهود عندما يوجّهون

لدخول جبل عامل... بل كانوا يبادرون إلى الملاجىء والانسحابات ويعلنون تمردهم على قياداتهم وأنهم لا يحبون الموت...

ثم حكى الله عنهم ما يحبون من دوام الحياة لهم ورغبتهم في البقاء في دار الدنيا، فقال تعالى:

﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ كل واحد منهم يتمنى ويحب أن يعيش في الدنيا ألف سنة وهو رقم خيالي بالنسبة إليهم قد يكون أقصى ما تتطلع إليه نفوسهم ويعيشه إنسان، أو يراد به الدوام وعبّر بهذا العدد لأنه منتهى الأعداد من حيث يكرر ويعاد كلما أرادوا الزيادة عليه.

ولكن هذا الود منهم للحياة الطويلة في دار الدنيا لن ينفعهم أو ينجيهم من عذاب الله ولذا ردّ الله عليهم ﴿وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ﴾.

فالتعمير الطويل في دار الدنيا لن يبعد اليهودي عن عذاب الله، بل العذاب واقع به ولاحقه لأن الذي ينجيه من العذاب هو العمل الصالح والبُعد عن المعاصي، وهذا الأمر لا يفعله بنو إسرائيل ولا يقومون به وإنما يتّكلون على تمنيات باطلة وأمنيات حالمة لا واقع لها ولا أساس تبنى عليه.

وأخيراً يعقّب الله الآية بقوله: ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ إن أعمالهم كلها بعين الله يراها ويحصيها وسيحاسبهم عليها...

فوائد

١ ـ قوله تعالى: ﴿قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَـٰنُكُمْ﴾ إسناد الأمر إلى الإيمان من باب التهكم بهم على حد قول قوم شعيب لنبيهم ﴿أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ﴾ [هود: ٨٧].

٢ ـ إن هذه الحقيقة القرآنية ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ﴾ حقيقة واقعية

يعيشها اليهود في كل الأزمنة والأمكنة وتاريخهم يحكي هذه الحقيقة ويشهد بها، وهذا من أخبار الغيب ينقلها الله ويحكيها للناس. . .

٣ ـ عن الإمام جعفر بن محمد عن أبيه عليه السلام قال: أتى النبي صلى الله عليه وآله رجل فقال له: ما لي لا أحب الموت؟

فقال له: ألك مال؟

قال: نعم.

قال: فقدمته؟

قال: لا.

قال: فمن ثمّ لا تحب الموت. . .

قال تعالى: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾﴾.

❁ ❁ ❁

اللغة

﴿ٱلْعَدُوُّ﴾: ضد الصديق يستوي فيه المذكر والمؤنث والتثنية والجمع وقد يؤنث ويثنى ويجمع، وهو الذي يريد إنزال المضار بالآخر ممن يعاديه.

﴿لِّجِبْرِيلَ﴾: كقنديل بكسر الجيم وأيضاً بفتحها وثالثة جبرائيل على وزن سلسبيل وأنهاها بعضهم إلى ثلاثة عشر قراءة، وجبريل اسم الملك الذي كان يتنزّل بالوحي على نبيه محمد ﷺ.

﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾: بإرادته وأمره.

﴿وَبُشْرَىٰ﴾: البشارة والبشرى: الخبر السار.

التفسير

اليهود أعداء الله ورسله:

هناك أمر مهم اعتدى اليهود خلاله على جبرائيل ووقفوا منه موقفاً عدائياً

استدعى من الله أن يكشف لهم الحقيقة ويدافع عن هذا الملك المقرب ويبيّن أن العداء لجبريل عداء لجميع الملائكة وبالتالي يتحول إلى عداء لله، لأنه سبحانه هو الذي حمّلهم كلامه كما أنه سبحانه هو الذي كلّفهم بكل المهمات الصعبة بما فيها الانتقام من الظالمين والمخالفين فهم أمناء مطيعون لله لا يعصون الله فيما أمرهم وهم بأمره يعملون. . .

﴿قُلْ﴾ يا محمد مبيناً وموضحاً الأمر ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ﴾ فإنه عدو لله، لأن الله هو الذي كلّفه مهمة حمل كلامه إلى رسله جميعاً وبما فيهم أنت.

﴿فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ فإن جبريل هو الذي هبط بالوحي على قلبك بعلم الله وأمره، فالله هو الذي أمره أن يحمل إليك كلامه ويلقّنك لفظه ومعناه ومضمونه ومن كان واسطة في نقل كلام الله حقّ له المحل الرفيع في النفوس والمقام العالي من الاحترام.

﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي مصدّقا لما تقدمه من كتب السماء كالتوراة والإنجيل فهو مع تلك الكتب من الله مصدراً وإلى هداية الخلق هدفاً ﴿وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ فإنه الكتاب المرشد إلى الحق الهادي إلى أهداف السماء وفيه البشارة السارة المفرحة للمؤمنين. . وإن ملكاً ـ جبرائيل ـ يأتي بكتاب وهو القرآن ينزله على قلب محمد فيه خصال ثلاثة ـ التصديق لما تقدم من كتب وفيه الهدى وأيضاً فيه البشرى للمؤمنين ـ مثل هذا الملك يجب أن تقدّم له فروض الإكبار والاحترام ويكون له كل التقدير والإعزاز، فإنه زيادة على كونه ملكاً فإنه يحمل هذه الكرامة ذات الجوانب المتعددة. . .

ثم إنه سبحانه وتعالى بيّن قضية كلية وكبرى من كبريات العقيدة فقال تعالى:

﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ ﴿٩٨﴾﴾.

من نصب العداوة لله بمعصيته وارتكاب ما حرّم وترك ما أوجب، وكذلك من عادى ملائكته بأن أبغضهم وأبغض رسله وأنبيائه ولم يؤمن بهم ويتمسك بما

جاءوا به ثم عادى جبريل وميكال. وخصهما من بين ملائكته اهتماماً بهما وعلّواً لشأنهما ـ كذكر الخاص بعد العام للعناية به ـ فإن مثل ذلك فهو كافر عدو لله يتحوّل إلى خارج عن حدود الله متنكر للإيمان بالله.

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلۡكَٰفِرِينَ﴾ هدّدهم وأوعدهم، فإن من كان عدوه الله فالله غالب لا محالة ينتقم من أعدائه وهو القادر على ذلك...

فوائد

١ ـ قالوا إن سبب نزول هاتين الآيتين: إن اليهود انتدبوا رجلاً منهم يقال له عبد الله بن صوريا، كان كما يقولون أعلم أمّتهم بكتابهم وبما فيه فسأل النبي مسائل كثيرة فأجابه عنها النبي ﷺ بما لم يجد إلى إنكار شيء منها سبيلاً، نقال في الأخير: يا محمد من يأتيك بهذه الأخبار عن الله تعالى؟

قال: جبرائيل.

فقال: لو كان غيره سوى جبرائيل يأتيك بها لآمنت بك.

فقال رسول الله ﷺ: ولِمَ اتخذتم جبرائيل عدواً.

قال: لأنه ينزل بالبلاء والشدة على بني إسرائيل، ودفع «دانيال» عن قتل «بخت نصّر» حتى قوي أمره وأهلك بني إسرائيل، وكذلك كل بأس وشدة لا ينزلها إلا جبرائيل، وميكائيل يأتينا بالرحمة... والحديث طويل ومفاده أن جبرائيل يأتي بالعذاب فهم أعداؤه، ولو كان الذي يأتيه بالوحي ميكائيل لآمنوا به لأنه يأتي بالرخاء...

٢ ـ خصّ جبرائيل وميكائيل بالذكر في الآية مع أنهما من جملة الملائكة من باب الذكر الخاص بعد العام تشريفاً لهما وزيادة في الاهتمام.

٣ ـ خصّ القلب بالذكر وأن الإنزال عليه لأنه المتأثر بالقول المتقبل له لمنفعل به...

قال تعالى: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُوا۟ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ ۖ لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾﴾.

❁ ❁ ❁

اللغة

﴿ءَايَٰتٍ﴾: جمع آية، وتطلق على البناء العالي كما تطلق على كل جملة من القرآن دالة على حكم سواء كانت سورة أو فصلاً أو فصولاً، وقد يقال لكل كلام منه منفصل بفصل لفظي آية وعلى هذا اعتبار آيات السور التي تعد بها السور.

﴿بَيِّنَٰتٍ﴾: واضحات، جمع بينة، وهي الدلالة الواضحة عقلية كانت أو حسية.

﴿ٱلْفَٰسِقُونَ﴾: جمع فاسق، والفسق في كلام العرب الخروج عن الشيء، يقال: فسقت الرُطبة إذا خرجت عن قشرها، ويسمى الفاسق فاسقاً لخروجه عن طاعة الله.

﴿ٱلْعَهْدُ﴾: العقد.

﴿نَّبَذَهُۥ﴾: النبذ إلقاء الشيء وطرحه لقلة الاعتداد به.

﴿فَرِيقٌ﴾: اسم جمع لا واحد له من لفظه وجمعه أفرقة للقلة وأفرقاء للكثرة وهي الجماعة والطائفة.

﴿أُوتُوا۟﴾: من الإيتاء، وهو الإعطاء ﴿أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أعطوا الكتاب.

﴿ٱتَّبَعُوا۟﴾: من تبع وأتبعه وتبعه إذا قفا أثره..

﴿تَتْلُوا۟﴾: التلاوة: القراءة، أو من التلاوة بمعنى الاتباع نحو تلوت فلاناً إذا مشيت خلفه وتبعت أثره.

﴿ٱلشَّيَٰطِينُ﴾: جمع شيطان وهو إما من شطن أي تباعد وتكون النون أصلية أو من شاط بمعنى احترق، والشيطان مخلوق من النار، وهو اسم لكل عارم من الجن والإنس والحيوانات.

﴿ٱلسِّحْرَ﴾: عمل خفي وتمويهات لا حقيقة لها يخيّل إلى المسحور أن لها حقيقة.

﴿بِبَابِلَ﴾: بلد معروف في العراق.

﴿هَٰرُوتَ﴾: ملك.

﴿وَمَٰرُوتَ﴾: ملك.

﴿ٱلْفِتْنَةِ﴾: الاختبار والامتحان.

﴿ٱلْمَرْءِ﴾: تأنيثه المرأة.

﴿وَزَوْجِهِۦ﴾: بغير تاء لغة القرآن وجمعه أزواج وأما زوجة فهي لغة رديئة وجمعها زوجات، ويقال زوج لكل واحد من القرنين من الذكر والأنثى في الحيوانات المتزاوجة.

﴿بِضَآرِّينَ﴾: الضرر نقصان يدخل على الشيء وهو ضد النفع، والضرر والألم والأذى نظائر.

﴿ٱلْخَلَٰقُ﴾: النصيب.

﴿لَمَثُوبَةٌ﴾: الثواب والجزاء.

التفسير

اليهود فسقة ونبذة للكتاب:

بيان حقيقة ما أنزل على قلب النبي محمد ﷺ، وأنها حقائق واضحة وآيات كاشفة.. إنها معجزات واضحة سواء كانت متمثلة بالقرآن أو بغير القرآن مما جاء به النبي بإذن الله، وإذا كان الأمر بهذا الوضوح والظهور فلا يجحد بها أو ينكرها إلا الفاسقون الذين خرجوا عن الإيمان والتحقوا بركب الكافرين.

﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ﴾ أقسم سبحانه أنه أنزل على قلب محمد ﴿ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ القرآن بما فيه من كلام الله الذي يحكي صدقه في كل آية من آياته، وهي جلية واضحة تستدعي من نظر فيها أن يؤمن بها، وإنها من عند الله، وإن من أنزلت عليه رسول من قبل الله..

﴿وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ لا يجحدها أو يتنكر لها إلا من خرج من الإيمان لأنها صادقة واضحة بيّنة، فيجب الإيمان بها...

قيل إن هذه الآية نزلت في رجل يهودي يدعى «ابن صوريا» قال

رسول الله ﷺ: يا محمد ما جئتنا بشيء تعرفه وما أُنزل عليك آية بينة فنتبعك بها فأنزل الله هذه الآية. . .

ثم تعرّض سبحانه لمنكرٍ اعتاد عليه اليهود حتى أصبح طبيعة فيهم يمارسونه دون تكلف. . إنها عادتهم الدائمة في نقض العهود على امتداد تاريخهم مع كل نبيائهم، وهنا يقصّ الله على نبيه ما يعيشه اليهود تسلية له وتخفيفاً عما يواجهه منهم وهم بين ظهرانيه يرى نكثهم للعهود ونقضهم للمواثيق التي يعقدونها ثم لا يفون بها. . .

﴿أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُواْ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم﴾ فكأنما العادة عندهم قائمة وبصورة دائمة على نقض العهود، ولذا يستنكر عليهم بصيغة الاستفهام وكأن كل عهد منهم، يجري نقضه من قبل جماعة منهم ولبيان هذه الجماعة ومقدار عددها ولئلا يتوهم قلتها أشار سبحانه إلى أنها هي الغالبة في نقض العهود.

﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ لا يؤمنون بما عاهدوا الله عليه من الإيمان بما في التوراة من صفات النبي وإنه إذا خرج آمنوا به واتبعوه، ولا يؤمنون بالوفاء بالعهود التي التزموا بها وقطعوها على أنفسهم، بل أكثرهم لا يؤمنون بشيء إذا لم يخدم أغراضهم ويوفر لهم مصالحهم وتكون لأنفسهم فيه هوى ورغبة. . .

وذكر الله سبحانه مصداق ذلك ما وقع لهم مع النبي وكيف واجهوه وواجهوا دعوته ولم يؤمنوا به.

﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ﴾ وهو النبي محمد الذي جاء من عند الله يحمل الإسلام إلى الناس جميعاً ودلائل الصدق معه تتجسد في القرآن الكريم المعجزة الخالدة، وفي المعجزات الأخرى التي كانت تقع أمامهم، وهو أيضاً يصدق ما معهم من صفاته التي تذكرها التوراة، أو مصدق لما جاء في التوراة من عقائد وأحكام وما تتضمن من أصول لا يختلف فيها دين وكان من حقهم أن يسرعوا للإيمان به ويسلموا معه لله رب العالمين.

ولكن بدل ذلك.

﴿نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ هم العلماء من اليهود.

وهم الفريق المقصود في الآية من - أهل الكتاب - ﴿كِتَـٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ طرحوا تعاليم التوراة ونسفوا ما فيها من بشارات بالنبي وحرّفوا صفاته ليحرفوا سواد الناس منهم عن الإيمان به ولتبقى لهم الرئاسة والمكانة بين قومهم.

﴿كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ يعني كأنهم لا يعلمون التوراة وما ورد فيها من بشارات بالنبي وصفاته، وقد نزّلهم سبحانه منزلة الجاهلين لعدم عملهم بمقتضى علمهم...

ثم يستعرض سبحانه فعلاً قبيحاً - وكل أفعالهم قبيحة - فليس لهم شغل إلا التمرد والعصيان والكفر بما أنزل الله وإنكار الأنبياء والرسل والسعي فيما يضر ولا ينفع وبدلاً من أن يؤمنوا بالنبي ويتبعوه اتبعوا الشياطين وائتمروا بأمرهم، ثم أخذوا يعلّمون الناس السحر وينسبون ذلك إلى نبي الله سليمان ويكفرونه ظلماً وعدواناً، يقول تعالى:

﴿وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَـٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَـٰنَ﴾ واتبعوا معطوف على نبذ أي نبذوا كتاب الله واتبعوا ما تقوله الشياطين وتتلوه على أهل مملكة سليمان من الأباطيل والأضاليل، فقد روّجوا أن سليمان لم يكن ما وصل إليه من الملك والقوة وبسط النفوذ إلا بالسحر ولذا يُبطل الله مقولتهم هذه بقوله تعالى:

﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَـٰنُ﴾ ما اتخذ السحر ولا استعمله، وعبّره بالكفر لأن السحر يؤدي إلى ذلك أو لكونه حراماً، ومن أحلّ ذلك واستعمله فقد كفر، وحاشا لنبي الله سليمان المعصوم أن يكون كذلك ﴿وَلَـٰكِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ﴾ فإن الشياطين هم الذين تولوا تعليم السحر للناس وبذلك كفروا.

﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَـٰرُوتَ وَمَـٰرُوتَ﴾ وما أنزل عطف على السحر، فالشياطين يعلّمون الناس السحر ويعلمون الناس ما أنزل على الملكين وهذا العطف لتغاير الاعتبار أو لأنه أقوى منه، وهذان ملكان كانا في بابل من أرض

العراق أنزل الله عليهما السحر وعلمهما مبادئه وماهيته وأمرهما أن يعلماه للناس من أجل أن يحترزا به عمن يتعاطاه ويضلّل الناس به، ولذا حكى الله عنهما قولهما لمن يعلماه السحر.

﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ فهما بما يعلّمان من السحر يشكلان اختباراً وامتحاناً للناس، يقولان لهم إن تعلمتم السحر ولم تعملوا به اجتزتم الامتحان بنجاح، وإن تعلمتم السحر وعملتم في إضلال الناس والانحراف بهم سقطتم في الامتحان وكفرتم. . .

ولكن القضية انعكست عند اليهود فقد تعلموا السحر وأخذوا يستعملونه بأبشع صوره وأخطر أماكنه.

﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ﴾ إنهم لحرصهم على هذا السحر ولشدة اهتمامهم به فقد تعلموا منه ما يستطيعون به التفرقة بين المرء وزوجه المتحابين المتآلفين المتوافقين. . فهم قد أصبحوا أصحاب خبرة ومهارة إلى مستوى قدروا من خلالها على أن يفرقوا به بين المتلاحمين والمتقاربين. . . بين المرء وزوجه.

﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ رفعٌ لتأثير السحر وإنهم لا يقدرون أن يضروا به أحداً إلا بإرادة الله ومشيئته، لأنه مالك الأسباب وبيده الأمور كلها بقدرته يوقفها ويمنع تأثيرها أو يلغيها بالكلية. . .

ثم ينقل سبحانه فعلهم المنحرف وكيف أنهم لم يستعملوا السحر إلا فيما يضر فحسب.

﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ لم يتعلموا من السحر إلا ما يضر ويفسد الود وينشر الضلال. . . أبداً لم يتعلموا ما ينفع ويضر ويستعملوا السحر فيهما تارة لهذا وأخرى لذاك، بل حصروا تعلّم السحر واستعماله فيما يضر من إضلال الناس والإفساد فيما بينهم ونشر الانحراف والكفر، لقد عملوا عكس وصية الملكين لهم فكفروا بدلاً من ﴿فَلَا تَكْفُرْ﴾ ثم ذكر سبحانه جزاء من فعل ذلك

وقام به، بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾ لقد وقف هؤلاء اليهود على جزاء من استبدل كتاب الله بالسحر من حيث نبذوا كتاب الله واتبعوا السحر أنه لا نصيب لهم الجنة ونعيمها وما فيها من خير... ثم أذرى سبحانه عليهم.

﴿وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ ما أقبح ما باعوا به أنفسهم من حيث باعوها بهذا السحر الباطل، ولو كانوا يملكون علماً أو فهماً لما باعوا حظهم من الآخرة ونصيبهم منها بالعذاب في نار جهنم...

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (١٠٣)﴾.

ولو أن أولئك الذين يتعلمون السحر آمنوا بالله ورسله، واتقوا الله بالعمل بأوامره، واجتناب نواهيه لنالوا جزاء الله وأجره، أعده وما أعده لمثل ذلك خير مما يمارسونه من السحر، وما يترتب عليه لو كانوا يعلمون ثواب الله الدائم العظيم.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾﴾.

❁ ❁ ❁

اللغة

﴿رَاعِنَا﴾: من رعى الشيء إذا حفظه ومنه الراعي، ومراعاة الإنسان للأمر مراقبته إلى ماذا يصير وماذا منه يكون، وقد حرّفها اليهود وجعلوها كلمة مسبّة مشتقة من الرعونة وهي الحمق ولذا نهى الله المؤمنين عنها.

﴿انظُرْنَا﴾: من النظر والانتظار ومعناه انتظرنا وتأنّ بنا.

﴿يَوَدُّ﴾: يحب من المودة وهي المحبة.

﴿الْخَيْرِ﴾: كل ما ينفع ويفيد وفسّر هنا بالنبوة.

﴿يَخْتَصُّ﴾: الاختصاص بالشيء: الانفراد به.

التفسير

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا﴾ يوجّه سبحانه خطابه للذين آمنوا فينهاهم فيه عن استعمال كلمةٍ كانوا يتداولونها عندما يخاطبون النبي ﷺ وهو يعلّمهم القرآن وأحكام الإيمان...

إن المؤمنين كانوا يصغون إلى رسول الله وهو يُلقي عليهم القرآن وما نزل إليه فيطلب المؤمنين استيضاح مطلب أو استفهام مقال، ولكي يستوعبوا ذلك كانوا يقولون للنبي ﴿رَٰعِنَا﴾ أي راقبنا وانتظر بنا حتى نفهم ما تقول، ولكن اليهود كانوا يلوون ألسنتهم بهذه الكلمة ويخاطبون بها النبي قاصدين من ورائها سبّه وعيبه، فلذلك توجّه النهي إلى المؤمنين لكي يقطع الطريق على أولئك اليهود الذين يستغلون كلمة الحق ويريدون بها الباطل...

إنها كلمة طيبة تخرج بصدق وإيمان واحترام كبير من المؤمنين، ولكن اليهود يستعملونها ويريدون بها الإساءة، فكان النهي ليقطع الطريق عليهم في استغلالها والإساءة بها إلى النبي ﷺ.

إنه سبحانه ينهاهم عن استعمال كلمة ﴿رَٰعِنَا﴾ ويأمرهم أن يستعملوا بدلاً عنها كلمة أخرى تؤدي مؤدّاها وتمنع اليهود من استغلالها، إنها كلمة ﴿ٱنظُرْنَا﴾ بمعنى ﴿رَٰعِنَا﴾ ولكنها لا تحتمل معنى آخر يستطيع أن يستغلها اليهود..

﴿وَٱسْمَعُواْ﴾ اقبلوا وخذوا ونفّذوا ما قلت لكم ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ من حيث خروجهم عن الإيمان بالله وعدم الطاعة له ولرسول الله...

ثم إنه سبحانه حكى ما يعيش في نفوس اليهود والمشركين نحو المؤمنين من حيث إنها نفوس لا تحب الخير لهم ولا تتمنى أن يكون فيهم نبوة أو رسالة أو شيء من تعاليم السماء.

﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ فانتفقت نفوس أهل

الكتاب والمشركين في كره الخير للمؤمنين.. إنهم لا يحبون لهم الخير ولا يتمنونه لهم.

إنها نفوس مريضة تكره ﴿أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ إنها نفوس تكره أن ينزل الله عليكم أي شيء من الخير، وفسّروا الخير هنا بالنبوة التي اختص الله بها نبيه محمداً كرهاً منهم وحسداً للمؤمنين...

وردّ الله عليهم ﴿وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ﴾ الله هو الذي يختار للنبوة من يشاء من عباده فمن كان يعلم الله فيه القابلية لتلقي كلامه ووحيه يُنزل عليه وحيه وكلامه دون أن يكون لأهواء الناس وميولهم أثر في تحويل إرادة الله عن مجراها أو الانحراف بها عما رسمته مما فيه المصلحة والخير....

﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ فهو الله واسع الفضل والإحسان ومنه كان ابتداء الخير لعموم الناس في الدنيا وللمؤمنين خاصة في الآخرة...

فائدتان

١ ـ قالوا إن خطاب الله للمؤمنين ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ هنا هو أول خطاب في سورة البقرة، وقد خاطب الله المؤمنين ثمان وثمانين مرة في القرآن بهذه الآية، لكي يذكّرهم بهذه القصة التي تستحق منهم الطاعة والالتزام.

٢ ـ قالوا: إنه سبحانه أدّب المؤمنين أن لا يستعملوا الألفاظ التي توهم التنقيص في مقام يوجب الاحترام والتقدير، ولذا نهى الله المؤمنين عن استعمال كلمة ﴿رَاعِنَا﴾ التي تحمل معنى المراعاة وهو ما أراده المؤمنون ـ وبيّن معنى الرعونة التي هي الخشونة والجفاء ـ وهي مسبّة ـ التي كان يستعملها اليهود في خطابهم مع النبي ﷺ...

قال تعالى: ﴿۞ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾﴾.

۞ ۞ ۞

اللغة

﴿نَنسَخْ﴾: النسخ: إزالة شيء بشيء يتعقبه كنسخ الشمس الظل، وقيل إزالة الشيء وإن لم يتعقبه شيء.

﴿ءَايَةٍ﴾: تطلق على البناء العالي كما تطلق على كل جملة من القرآن دالة على حكم سواء كانت سورة أو فصلاً أو فصولاً وقد يقال لكل كلام منه منفصل بفصل لفظي آية وعلى هذا اعتبار آيات السور التي تعد بها السور.

﴿نُنسِهَا﴾: من النسيان ضد الذكر وهو ترك الإنسان ضبط ما استودع إما لضعف قلبه وإما عن غفلة وإما عن قصد حتى ينحذف عن القلب ذكره..

التفسير

لا ريب أن هذه الآية جاءت وفي روحها تحمل رداً على من زعم أنه لا نسخ أو تبديل فيما يُنزل الله من آيات وأحكام وكما وردت في بعض الروايات من أن اليهود أخذوا يشككون المسلمين في دينهم من حيث كانت الأحكام تأتي لظرف معين ثم تلغى تبعاً لتوقف فائدتها، فأخذ هؤلاء القوم في التشكيك بنبوة

النبي ﷺ وأن ما يأتي به النبي ﷺ من أحكام لم يكن من عند الله وإنما هو من عند محمد نفسه، ولذا يشرّع اليوم أمراً ثم يلغيه غداً ويستبدله بغيره ومن هنا تولّى الله الرد عليهم بقوله: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ﴾ أي ما نزيل ونرفع آية من آيات القرآن ونأتي بغيرها أو نرفع حكماً من الأحكام التشريعية ونأتي بغيره أو نرفع شريعة ماضية ونأتي بشريعة جديدة.

﴿أَوْ نُنسِهَا﴾ أي نتركها فلا ننسخها أو نتركها فلا ننزلها وعلى قراءة ننسئها - أي نؤخر نسخها - ﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾ أي نأتي بما يكون أنفع منها في العاجل أو الآجل بأن تكون أكثر ثواباً أو تكون مثلها منفعة ولكنها أقل مشقة وكلفة.

ثم ردّ الأمر إلى الله وإنه يملك القدرة المطلقة يتصرف في ملكه كيف يشاء، يشرّع ما فيه مصلحة عباده حسب مقتضى مشيئته فهو يرفع حكماً ويضع آخر غيره وقد يرفع حكماً دون بدل عنه، وهكذا له السلطان المطلق في كل شيء وعلى كل شيء. . .

فائدتان

١ - قرأ بعضهم بدل ﴿نُنسِهَا﴾ ننسئها بفتح النون والسين والهمزة من التأخير الذي هو النسيء.

٢ - الحديث في النسخ طويل وهو مدّون في كتب الأصول، ولكن يجب أن نلمح إليه بإشارة مختصرة فنقول:

النسخ: قال الراغب: النسخ: إزالة شيء بشيء يتعقّبه كنسخ الشمس الظل والظل الشمس والشيب الشباب. . انتهى.

وفي اصطلاح العلماء: رفع ما هو ثابت في الشريعة من الأحكام.

إمكان النسخ ووقوعه: لا ريب أن المشرّعين من العقلاء وواضعي القوانين يشرّعون الأحكام لأنهم يرون فيها مصلحة المجتمع والناس وهذه القوانين نفسها قد يرفعون بعضها عندما لا يجدونها تحقق المصلحة وهذا الأمر وارد في الأحكام الشرعية وتندرج ضمنه لكن دون أن يستلزم ذلك جهل المشرّع سبحانه لأنه يعلم ذلك عند وضع القانون وانه مفيد أو غير مفيد ونافع أو غيرنافع ولذا لا بدّ من

تخريج النسخ على وجه لا يوجب الاساءة إلى الله ولهذا الأمر تخريجات منها:

١ ـ أنه سبحانه أظهر القانون ـ التشريع ـ بصيغة دائمة وكأنه قانون أبدى لمصلحة في نفس هذا الجعل فعندما يأتي الناسخ نعرف أنه المراد بالأصل وهذا يكون على حد الأوامر التي يقصد بها الامتحان.

٢ ـ وقد يكون الحكم من الأصل مقيّد بزمان خاص يعلمه الله ويجهله هذا الإنسان.

٣ ـ وقد يكون إظهار القانون بصيغته العامة الدائمة مقدمة لبيان حكم الناسخ ليكون أكثر قبولاً وأشد تنفيذاً.. وهناك وجوه غير هذه موجودة في محلّها.

لماذا النسخ؟

١ ـ إن النسخ يعطي لله المشيئة المطلقة والإرادة التامة فهو سبحانه يمتلك حق التغيير والتبديل وهو العليم بالأشياء والحكيم بما يصلح هذا الإنسان.

٢ ـ إننا نرى تفاوت المجتمعات البشرية خلال مسيرة هذا الإنسان وكيف يترقّى ويتطور وينمو فكرياً وثقافياً فأين هذه الأعصر الأخيرة من الأعصر القديمة قبل آلاف السنين فبتطور العقل البشري والوعي كان التدرج في الرسالات حتى كانت الرسالة الإسلامية خاتمة تلك الرسالات وأرقاها وأصلحها وهي الوصفة الأخيرة لهذا الإنسان، فالرسالات الإلهية كانت بحسب رقيّ وتقدّم هذا الإنسان.

٣ ـ وأيضاً النسخ يشكل امتحاناً واختباراً حيث يظهر به المطيع من العاصي والمنقاد من المتمرد وتتكشّف به العبودية المطلقة لله ممّن تحكمهم الأهواء والشهوات والغرائز وحب الذات.

والبحث في النسخ طويل ومرادنا هنا أن نبيّن أنه واقع بإجماع المسلمين في الجملةُ فالشريعة تضمنت أحكاماً نُسخ بعضها وقد مثلوا لذلك بآية النجوى ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَـٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً...﴾.

وكذلك آية القبلة: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا﴾.

وهناك تفصيلات في نسخ القرآن بالقرآن والسنّة بالقرآن والقرآن بالسنّة وهناك شروط للناسخ والمنسوخ وهكذا ليس هنا محل ذكرها.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾﴾.

اللغة

﴿الْوَلِيُّ﴾: القيّم بالأمر.

﴿النَّصِيرُ﴾: المعين.

التفسير

سواء كان هذا الخطاب في هذه الآية متوجهاً للنبي أم لأمته أم لهما جميعاً فهو حقيقة واقعة صادقة تحكي قدرة الله المطلقة التي تعمّ السماوات والأرض وأنه سبحانه الخالق لهما والمالك المتصرف بهما كيف يشاء... ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ تقرير أنه سبحانه مالك السماوات والأرض ومن حق كل مالك أن يتصرف في ملكه كيف يشاء فكيف إذا كان مبدعاً للشيء ومنشئه وبيده أمر تكوينه!؟ فلا شك أنه مطلق الحرية فيه...

﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ يدلّهم على طريق الانقطاع إليه

سبحانه وإنه وحده سبحانه المتولّي لأمورهم المعين لهم على ما يريدون وليس في البين أحد غيره بيده أمور هذا الخلق. . .

تقرير واضح يسكب في قلوب المؤمنين سكينة واطمئناناً وثقة وإنه سبحانه المالك المطلق يتصرف تكويناً في ملكه كما يتصرف تشريعاً مع خلقه فهو الذي يرى المصلحة ويعرف مواقعها إن شاء نسخ حكماً، وإن شاء ترك آخر في موقعه وليس لأحد حق الاعتراض أو النقض.

قال تعالى: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۗ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٠٨﴾﴾.

اللغة

﴿أَمْ﴾: بمعنى بل وهي المعبّر عنها بـ «أم» المنقطعة.

﴿يَتَبَدَّلِ﴾: يقال بدّل وتبدل واستبدل أي جعل شيئاً موضع شيء آخر، وتبدل الكفر بالإيمان أخذه بدل الإيمان.

﴿ضَلَّ﴾: الضلال: العدول عن الطريق المستقيم ويضاده الهداية؛ ويقال الضلال لكل عدول عن المنهج عمداً كان أو سهواً يسيراً كان أو كثيراً.

﴿سَوَآءَ﴾: وسط.

﴿ٱلسَّبِيلِ﴾: الطريق.

التفسير

وبّخ الله قوماً من المسلمين تعنّتوا في أسئلتهم وطلبوا من النبي ﷺ أموراً لا تليق بهم كمؤمنين، وشبّههم بقوم موسى الذين طلبوا من نبيهم ما لا يليق بهم

حيث قالوا له: ﴿أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ [النساء:١٥٣] وغيرها من الطلبات التي تتنافى والإيمان به كرسول مبعوث إليهم يحمل معه الهداية والصلاح..

﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ﴾ بل تريدون أن تسألوا رسولكم محمداً أموراً بعيدة عن الإيمان وعن المنطق والعقل كما سأل قوم موسى فقالوا: ﴿أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ وفي هذا توبيخ لهم وتبكيت لليهود الذين يعيشون نفسية آبائهم في الضلال والانحراف...

ثم حذّرهم الكفر وخوّفهم من ترك الإيمان وأخذ الكفر بدلاً عنه .

من ترك الإيمان وأخذ بالكفر فقد انحرف عن مستقيم الطريق، ومن انحرف كذلك لم يصل إلى الجنة ولن يصل إليها مثل قاصد إلى هدف إذا انحرف عنه فلن يصل إليه...

قال تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٠٩)﴾.

اللغة

﴿وَدَّ﴾: الودّ: محبة الشيء وتمني كونه.

﴿أَهْلِ الْكِتَابِ﴾: اليهود والنصارى.

﴿يَرُدُّونَكُم﴾: من الرد وهو صرف الشيء بذاته أو بحالة من أحواله يقال رددته فارتد فالردّ كالرَّجْع.

﴿حَسَدًا﴾: الحسد: تمني زوال نعمة من مستحق لها وربما كان مع ذلك سعي في إزالتها.

﴿تَبَيَّنَ﴾: وبان وتبياناً اتضح وظهر.

﴿الْحَقُّ﴾: أصل الحق المطابقة والموافقة كمطابقة رجل الباب في حقّه لدورانه على استقامة.

﴿وَاصْفَحُوا﴾: الصفح: ترك التثريب وهو أبلغ من العفو ولذلك قال: ﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا﴾ وقد يعفو الإنسان ولا يصفح.

﴿الْعَفْوَ﴾: التجافي عن الذنب وترك العقاب عليه.

التفسير

يعيش الشيطان في نفوس اليهود، ولذا لا يريدون الخير لأحد من الناس وإذا رأوا من يعيش الهدى والحق تمنوا زوال ذلك عنه وعملوا من أجل عودته إلى الباطل والضلال مهما أمكن وبكل الوسائل المتاحة لهم...

وهذه الصورة التي ينقلها القرآن عن كثير منهم تحكي النفوس المريضة التي لا تحمل خيراً للناس بل تتمنى للناس - المسلمين - العودة إلى جاهليتهم والبُعد بهم عن الإسلام والدين وما ينفع ويفيد...

﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ تمنوا ورغبوا وعاشت في نفوس كثير منهم هذه الحالة القبيحة وهي ﴿لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا﴾ أن ترجعوا عن دينكم وتعودوا عن شريعتكم إلى الجاهلية، وزمن الانحطاط الفكري والعقيدي والسلوكي.. إنها أمنية اليهود أن تتخلوا عن الإسلام وتعودوا إلى الجاهلية، وهذا الأمر ليس لقناعتهم بسلامة العودة وصحتها وإنها طاهرة ونظيفة أو أنها تملك الحق.. كما أنها ليست لأن الإسلام ليس صحيحاً ولا سليماً وليس معه الحق أو أنه ليس هو الحق.. أبداً لم يكن حبهم من أجل ذلك بل كان ﴿حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾ فهذه الأمنية منهم وهذا التشهي - لعودتكم كفاراً - حسداً لكم وبغضاً من عمق نفوسهم ورغباتهم ومشتهياتهم دون أن يكون عن تديّن أو فكر يدفعهم إلى ذلك وخصوصاً أنه قد اتضح لهم صحة الإسلام وسلامة طريقه وأنه من عند الله... فما يشتهونه ويرغبون فيه كان بعد علمهم بصحة ما أنتم عليه من الإيمان والدين والإسلام وهذا أقبح ما يقدم عليه إنسان له مسكة من دين أو عقل... إنهم قوم سفهاء يريدون أن يبقى الناس في جاهليتهم كي تبقى لهم السلطة والقوة والسطوة.

ومن أجل سلامة المسيرة الإسلامية وللمصلحة العامة وحيث أنكم أيها المسلمون أصحاب أخلاق رفيعة وأدب إيماني كريم، لهذا ولغيره أمر سبحانه

بقوله: ﴿فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟﴾ فلا تواجهوا نواياهم الخبيثة وأعمالهم القبيحة بمثلها، بل تجاوزوا عما يصدر منهم وما يتمنون لكم من الشر، ولا تحملوا في أنفسكم عليهم أي لوم أو تأنيب واجعلوا كل ذلك إلى وقت يقدّره الله ويوقّته ﴿حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ وقت ضبط النفس والصفح والعفو بمجيء أمر الله فعندما يبيّن الله غير هذا الحكم ويريد سواه سيكون القرار بتنفيذه جاهزاً حاضراً وكأنه يحمل تهديداً ووعيداً لهم بتغيير أسلوب المعاملة معهم متى جاء أمر الله بالتغيير كأن يقابلهم المسلمون بالمثل أو يعاملونهم بالشدة والقوة... ثم تطميناً للمسلمين قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ فهو القادر المطلق على كل شيء فعندما يأتي أمره بأن تواجهوهم وتقاتلوهم فهو الذي سينصركم عليهم وينتقم بكم ولكم منهم وينصركم عليهم...

قال تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٠﴾﴾.

اللغة

﴿أَقِيمُوا۟﴾: من أقام الشيء إذا دام وثبت.

﴿ٱلصَّلَوٰةَ﴾: في الأصل الدعاء، ولكنها في لسان الشرع الأفعال المخصوصة والمعروفة عند المسلمين.

﴿ءَاتُوا۟﴾: الإيتاء: هو الإعطاء، وآتيته: أعطيته.

﴿ٱلزَّكَوٰةَ﴾: من زكا الشيء إذا نما وزاد، وفي الشرع ما يخرجه الإنسان من حق الله تعالى للفقراء، وتسميته بذلك لما يكون فيها من رجاء البركة أو لتزكية النفس أي تنميتها بالخيرات والبركات.

﴿ٱلْخَيْرِ﴾: ما يرغب فيه الكل كالعقل مثلاً والعدل والفضل والشيء النافع.

التفسير

بعد الأمر بالعفو والصفح للمسلمين بما يحملان من مضمون للصبر عطف ـ تقوية لهذه الملكة ـ عليهما الأمر بالصلاة بما تحمل من صلة بين العبد وربه،

وبما تحمل من معانٍ كبيرة وما تترك من آثار على النفس عظيمة. . . إنها الصلاة ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ داوموا عليها وواظبوا على فعلها بأجزائها وشرائطها وحدودها وبكل آثارها التي تقرّبكم من الله وتبعدكم عن الشيطان وطرقه الملتوية الضالة. .

﴿وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ أخرجوا من أموالكم ما هو مفروض عليكم من حقوق شرعية. . . لترتفع نفوسكم عن الشح والبخل وتتصل بالله وتعلم أنه هو المعطي وهو المانع، فإذا جاد عليكم وأكرمكم ببعض عطاياه فجودوا أنتم وأكرموا من دونكم ولو ببعض ما أعطاكم.

إنها دعوة إلى تكافل اجتماعي يضمن الغني في أمواله ـ الزكاة ـ قوت الفقراء فتلتقي القلوب وترتاح النفوس ويخرج الفقراء من حالة الضياع، ويشعرون أن الأيدي الرحيمة تمتد إليهم بالمعونة فلا يحسون بالألم والغربة ولا يعيشون الحقد على الأغنياء أو العداوة لهم. . .

ثم إلى جانب الأمر بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة توجّه الخطاب الإلٰهي بما يحمل من رحمة وعطف يحثُّ القلوب الطيبة ويعمم مدلول هذا الخطاب لكل خير. . . دعوة من الله إلى فعل الخير سواء كان مادياً أم معنوياً ﴿وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِۗ﴾ دعوة كريمة يعود مردودها إلى نفس هذا الإنسان. . . إلى الباذل والمعطي ومن سخت نفسه بما عنده. . . لنفس فاعل الخير يعود الأجر والثواب وجميع المنافع والفوائد. . . كل خير يفعله الإنسان. . صدقة. . إعانة لفقير. . . سدُّ عوز للمحتاج. . . تعليم لجاهل. . إنقاذ لغريق. . كف لأذى. . ردُّ الظالم عن ظلمه. . رفع الظلم عن المظلوم، كلها وغيرها يعود ثوابها وأجرها إلى نفس فاعلها. . . إنه أسلوب قرآني فريد لا يضيع معه عمل عامل. . . بل الأجر محسوب ومرصود ومذخور لفاعله. . . إنه عند الله يجازي فاعله ويثيبه ويكرمه. . . كما قال تعالى: ﴿أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٖ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰۖ﴾ [آل عمران: ١٩٥] وقوله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٖ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾ [الزلزلة: ٧ و٨].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فإذا كانت أعمالنا بعين الله يعلمها ويطلع عليها ولا تغيب عنه فيجب أن نعمل ما يريد وكما يريد... إنه سبحانه لا يُضيع عنده صغيرة ولا كبيرة... وفي هذا الخطاب ترغيب بالعمل الصالح وحضٌ عليه كما أن فيه تحذير من العمل السيء وما فيه معصية لأن كلاً منهما محفوظ مجازى عليه...

قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١١١) بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (١١٢) وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (١١٣)﴾.

❁ ❁ ❁

اللغة

﴿هُودًا﴾: من الهود وهو الرجوع برفق وصار الهود في التعارف التوبة، وقال بعضهم يهود في الأصل من قولهم اهدنا وهاد فلان إذا تحرّى طريقة اليهود في الدين وقطعاً يراد بقوله هنا «هوداً» يهوداً..

﴿النَّصَارَىٰ﴾: أتباع عيسى سمّوا بذلك أما لقول عيسى ﴿مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾ وأما انتساباً إلى قرية يقال لها «نصران» أو لقرية تسمى «ناصرة» في فلسطين...

﴿الأَمَانِيُّ﴾: جمع أمنية وفي الأصل من مني وهو ما يقدره الإنسان في نفسه ولذا يطلق على الكذب وعلى ما يتمنى ويقرأ.

﴿هَاتُوا﴾: احضروا وقدموا.

﴿بُرْهَانَكُمْ﴾: البرهان: بيان للحجة وهو أوكد الأدلة.

﴿أَسْلَمَ﴾: بمعنى أخلص له وأسلمه إلى كذا إذا صرفه إليه.

﴿أَجْرُهُۥ﴾: الأجر: الثواب على العمل دنيوياً كان أو أخروياً.

﴿ٱلْخَوْفِ﴾: هو توقع مكروه عن إمارة مظنونة أو معلومة ويضاده الأمن.

﴿يَحْزَنُونَ﴾: الحُزن والحَزَن: خشونة في الأرض، وخشونة في النفس لما يحصل فيه من الغمّ ويضاده الفرح.

﴿يَتْلُونَ﴾: يقرأون.

﴿ٱلْمَثَلُ﴾: الشبه والنظير.

التفسير

حمل اليهود فكراً خاطئاً من حيث احتكروا لأنفسهم وأتباعهم من بني جنسهم الجنة وحرموا منها جميع الناس وكل خلق الله الآخرين...

وكذلك ارتكب النصارى نفس الخطيئة وبذلك الحجم والسعة وبنفس الفكر والمفهوم ذهبوا إلى حرمان الناس من الجنة واحتكارهم لها دون غيرهم..

﴿وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ﴾ قال اليهود لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً ـ يهودياً ـ وقال النصارى: لن يدخل الجنة إلا من كان نصرانياً..

إنهم ضيّقوا واسعاً واحتكروا لأنفسهم ما لا يمكن احتكاره، ولكنها ﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾ ما يتمنونه ويرغبون فيه دون أن يعتمدوا على دليل بل مجرد دعوى يطرحونها دون رصيد أو سند أو برهان... إنها من جملة الأماني التي يحلمون بها ويحملون مضمونها من غير أن ينزل الله بها من سلطان...

ولذا يتوجه الخطاب إلى النبي ليقول لهم: ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾.

إذا كانت الدعوة منكم صادقة ـ وأن الجنة لكم وحدكم يهوداً ونصارى ـ فليأت كل واحد منكم ببرهانه... فليكن الدليل هو الحاكم والفيصل في هذا المقام... وأنّى لهم بدليل وأيديهم خالية منه!؟ لا يساعدهم عليه عقل ولا نص من كتاب يتضمن الخطاب الإلهي ولذا ردّ عليهم.

﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾﴾.

بلى يدخل الجنة من توجه إلى الله واستسلم له وأخلص له في عمله، فهذا له ثوابه عند الله ويأمن من كل خوف أو حزن يصيبه، ولا يتأتى ذلك إلا في الجنة...

فالميزان لدخول الجنة ليس اليهودية ولا النصرانية وإنما الميزان الصحيح لدخول الجنة هو إسلام النفس لله والخضوع له والعمل الصالح الطيب.

ثم إنه سبحانه ينقل مقولة كل من اليهود والنصارى في حق بعضهم وكذلك مقولة الكفار المشركين.

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ هذه مقولة اليهود في حق النصارى... إنها تقول أنّ النصارى ليست على شيء من الدين وكل ما عندهم يتساوى والعدم... أنكر اليهود عيسى وبالتالي كل ما جاء به واعتبروا المسيح دجّال كافر وما جاء به باطل ولا أساس له كما اعتبروا أتباعه مرّتدين كفاراً.. ﴿وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾، إنها المقابلة بالمثل... إنها مقولة النصارى في حق اليهود... إنهم يقولون أنّ اليهود ليسوا على شيء من الدين وكل ما عندهم سقط عن الاعتبار وتساوى والعدم من حيث أنّ شريعتهم نُسخت ووجب عليهم العمل بتعاليم المسيح... ﴿وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي والحال أن اليهود يقرؤون التوراة والنصارى يقرؤون الإنجيل ومن حق من يقرأ كتاب الله أن يصدّق بصحة كتب السماء كلها، لأن كتب الله جاءت يصدّق بعضها بعضاً وهؤلاء اليهود والنصارى يدّعون ـ كل منهما ـ أنه يقرأ كتاب الله ـ التوراة والإنجيل ـ ومع ذلك

كل واحد يتهم الآخر أنه لا يملك شيئاً من الدين الصحيح، . . . إنهم قوم كفّر بعضهم بعضاً عن علم ومعرفة.

﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾ الذين لا يعلمون هم الجهلة الذين لاحظ لهم من رسول يهديهم أو كتاب يرشدهم، فإنهم قالوا إن غيرهم من أصناف الناس ليسوا على شيء وأن معتقداتهم هي الصحيحة كما حدث ذلك أيام بعثة رسول الله من حيث واجهها الجاهليون الأغبياء بهذه المقولة الغبية. . .

وهذا ذم لليهود والنصارى وأنهم بمنزلة الجاهليين الجهلة الذين لا حظّ لهم من الدين والإيمان والعلم، وعندما يتساوى العالم بالجاهل في مقولته يشمله حكمه وما يترتب على الجهل من عمى وضلال وإتهام وحيرة. . .

ثم ختمت الآية: ﴿فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ هذا تهديد لهم بأنهم لن يتخلصوا يوم القيامة من الحساب على هذا الاختلاف بل هو محفوظ ستفتح دفاترهم ويوقفون للحساب لهذا الخلاف الناشيء عن التعصب وعدم الانقياد للحق ولما في هذا الخلاف من هدم للدين وتشويه له ولمضامينه العظيمة التي لم يأتِ المتأخر إلا ليصدّق المتقدم ولم يكن المتقدم إلا ليحمل البشارة بالمتأخر، فكل الأديان مكمّلة لبعضها تلتقي في الأصول وتختلف في الفروع لحاجة الإنسان إلى ما يناسبه وما هو ضروري له بحسب حالاته واحتياجاته وما يصلح لعلاجه بحسب الظروف والأوقات وما يمر فيه هذا الإنسان من ضعف وقوة ورشد وسفه وقابلية إلى أن وصل الأمر إلى الإسلام فكان الوصفة الأخيرة التي على أساسها أن عملتْ البشرية به ـ نجحت في استئصال الداء من جذوره ولم تحتج بعده إلى علاج أو أي وصفة أخرى وإلا بقيت تتخبط في مستنقعات الجهل والضلال إلى آخر عمرها في هذه الدنيا. . .

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَآ أُوْلَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ لَهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾.

* * *

اللغة

﴿أَظْلَمُ﴾: الظلم: وضع الشيء في غير موضعه المختص به إما بنقصان أو بزيادة أو بعدول عن وقته أو مكانه، والظلم يقال في مجاوزة الحق الذي يجري مجرى نقطة الدائرة ويقال فيما يكثر وفيما يقلّ من التجاوز.

﴿مَّنَعَ﴾: المنع: الصدّ وهو أن يحول بين الشخص وبين الشيء الذي يريده.

﴿ٱلْمَسَٰجِدِ﴾: جمع مسجد بكسر الجيم، الموضع الذي يسجد فيه وبالفتح جبهة الرجل لأنها تصيب الأرض عند السجود، والمراد هنا مواضع العبادة لله تعالى.

﴿سَعَىٰ﴾: السعي المشي السريع وهو دون العدو ويستعمل للجدّ في الأمر خيراً كان أو شراً.

﴿خَرَابِهَآ﴾: يقال خرب المكان خراباً وهو ضد العمارة، والخراب: هو الهدم والنقض. . .

﴿ٱلْخِزْيِ﴾: الهوان والذل.

التفسير

المساجد بيوت الله، فيها يُتعبّد له وفيها تتوجه القلوب المؤمنة بالدعاء والابتهال والخشوع والخضوع... من المساجد تنطلق كل دعوة خير وبر وصلاح وما ينفع الناس ويفيد الخلق... المساجد محاور تنطلق منها إشراقات الحق وأنوار الهداية... من المساجد تنطلق العقائد الحقّة وأحكام الدين والشريعة ومن هنا كان مَنْ يتحرك ضدها يتحرك ضد الحق والعدل ولا بد وأن ينال جزاءه بأقسى وأشد ما يكون...

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ﴾.

هذه الآية وإن كانت نازلة في قريش التي منعت المؤمنين بمكة من التعبد في المسجد الحرام وفيما بنوه من مساجد خاصة وألجأوا رسول الله والمؤمنين إلى الخروج منها، فإنها وإن كانت خاصة النزول ولكن عموم نصوصيتها تشمل كل المساجد وكل الأشخاص الذين يمثلون نفس الدور، ومفاد الآية ومعناها أنه لا أحد أظلم وأشد جوراً من إنسان يمنع التعبد في بيوت الله والتوجه إليه سبحانه ويعمل من أجل تخريبها إما بهدمها ونقض بنيتها المادية أو تخريبها بتعطيلها ومنع الناس من الاستفادة منها بالدعاء والذكر وإقامة الفرائض وما يُنتفع به في العادة منها...

ثم تعقبت الآيات هذا الظالم وحكمت عليه في مقابل فعله الشنيع بما سيؤول أمره إليه نتيجة هذا الظلم ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الظالمون المانعون ﴿مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ﴾ ستكون عاقبتهم أنهم لن يدخلوها إلا وهم خائفون فزعون من بطش المؤمنين وحكمهم كما جرى للمشركين حينما فتح الله على نبيه مكة وأذن النبي ﷺ لهم أن يدخلوا المسجد وهم خائفون فزعون....

ثم لن يقتصر الأمر على هذه الحالة النفسية فحسب التي تلاحق هؤلاء المانعين لإقامة ذكر الله في المساجد والساعين في خرابها بل ﴿لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ﴾ من حيث حرَّم الله عليهم الدخول إلى الحرم المكي وإلى كل مسجد لله كما ﴿وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ فمصيرهم إلى النار في الآخرة لفعلهم القبيح بالإضافة إلى كفرهم وانحرافهم...

فائدتان

١ ـ إن السعي في تخريب المساجد يتم بأحد أمرين:

أ ـ منع الناس من التردد عليها والدعاء وإقامة الفرائض والواجبات فيها، فمن سعى في إخلاء المساجد من روادها شملته الآية.

ب ـ السعي في هدم المساجد والإتيان على بنيانها المادي، وهذا أوضح من الأول وإن كان الأول أقرب عند أهل التحقيق والتدقيق وأقرب للغاية التي من أجلها بُنيت المساجد وأصبحت بيوتاً لله يتعبد الناس فيها...

٢ ـ لا يخفى أن الاستفهام في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ﴾ إنما هو للإنكار وهو يفيد النفي.

قـال تـعـالـى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾.

❁ ❁ ❁

اللغة

﴿ٱلْمَشْرِقُ﴾: اسم لموضع الشروق، وشَرَقت الشمس شروقاً، طلعت وأشرقت: أضاءت.

﴿ٱلْمَغْرِبِ﴾: اسم لموضع الغروب.

﴿تُوَلُّوا۟﴾: تولّى إذا عدي بنفسه اقتضى معنى الولاية وحصوله في أقرب المواضع منه، يقال ولّيت سمعي وولّيت عيني كذا وولّيت وجهي كذا أقبلت به عليه وأما إذا عُدّي بعن لفظاً أو تقديراً اقتضى معنى الإعراض والترك.

﴿فَثَمَّ﴾: اسم إشارة بمعنى هناك.

﴿وَجْهُ ٱللَّهِ﴾: الوجه أصله الجارحة المعروفة ولما كان الوجه أول ما يستقبلك وأشرف ما في ظاهر البدن استعمل في مستقبل كل شيء وفي أشرفه ومبدئه، فقيل: وجه النهار، وربما عُبّر عن الذات بالوجه كما في قوله تعالى: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾ وقيل أريد بالوجه هنا التوجه إلى الله تعالى بالأعمال الصالحة. . .

التفسير

حقيقة إيمانية تدخل في صلب العقيدة لا يمكن لمؤمن عرف الله ووقف على صفاته إلا ويعرف أنه سبحانه مالك هذا الكون بكل ما فيه، فله السماوات والأرض وما فيهما له الحياة والموت والوجود وكل موجود، وتحت هذه القاعدة العامة يدخل قوله: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾ كل مشرق في كل يوم وكل مغرب في كل يوم هو بتدبير الله وحكمه ولا يكون إلا بتقديره وأمره، فإذا لم يقدر المؤمن المصلي العابد المتهجد على إدراك الحقيقة والوصول إلى عين الكعبة لعجز في هذا المخلوق ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ وكيفما توجه هذا الإنسان في صلاته سوف يكون الله وسيقع عمله لوجهه وقربة لله، لأن الله مالك المشرق والمغرب وما بينهما.

﴿إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ محيط علمه بكل شيء ورحمته تشمل كل الأشياء وهو عليم بما ينفع ويفيد وهو الذي شرع لكم التوجه كيفما شئتم عندما تعجزون عن إدراك ما تؤمرون به فإنه سبحانه في كل مكان...

فوائد

١ ـ قيل إن اليهود أنكروا على المسلمين تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة فنزلت الآية...

وقيل نزلت الآية في صلاة النافلة، وإن من أراد التنفُّل وكان راكباً على دابته جاز له ذلك وإن استدبر القبلة، وهذا المعنى هو المروي عن أئمة الهدى عليهم السلام...

وقيل إن الآية نزلت في سريّة اشتبه أفرادها في تعيين القبلة فصلوا ثم انكشفت لهم الأمور. إنهم توجهوا إلى غير القبلة فسألوا النبي ﷺ فسكت حتى نزلت هذه الآية.

٢ ـ إن قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ﴾ كنى بهما عن ملكيته سبحانه لكل الأرض.

٣ ـ إذا كانت الأرض كلها مملوكة لله فإذا مُنع المسلمون من الصلاة إلى المسجد الحرام فقد جعل الله لهم الأرض كلها يتوجهون كيفما شاؤوا وإلى أي جهة شاؤوا ويكونون في ضمن خط الله وطاعته. . .

٤ ـ قوله: ﴿فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ حاشا لله أن يكون له وجه بشري أو ما يعهده البشر، بل المراد ﴿فَثَمَّ﴾ جهته التي أمر بها ورضيها لكم. . .

قال تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ ﴿١١٦﴾ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾﴾.

❁ ❁ ❁

اللغة

﴿اتَّخَذَ﴾: الاتخاذ: الافتعال، من أخذ ويعدى إلى مفعولين ويجري مجرى الجعل وأصل الأخذ حوز الشيء وتحصيله تارة بالتناول وأخرى بالقهر.

﴿سُبْحَانَ﴾: التسبيح تنزيه الله تعالى وأصله المرّ السريع في عبادة الله تعالى وتستعمل للتعجب.

﴿قَانِتُونَ﴾: القنوت: لزوم الطاعة مع الخضوع ويستعمل بمعنى الصلاة والطاعة والخضوع والسكوت...

﴿بَدِيعُ﴾: من بدع، والإبداع: إنشاء صنعة بلا احتذاء واقتداء، وإذا استعمل في الله تعالى فهو إيجاد الشيء بغير آلة ولا مادة ولا زمان ولا مكان، والبديع: مبالغة وهو المبدع كثيراً.

﴿قَضَىٰ﴾: القضاء فصل الأمر قولاً كان ذلك أو فعلاً، ويأتي بمعانٍ كثيرة منها بمعنى: أمر، وبمعنى الإخبار والإعلام، ومنها بمعنى الفراغ من الشيء وهكذا...

التفسير

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ مقولة باطلة غير صحيحة ولا مستقيمة سواء قالها اليهود حيث قالوا «عزير» ابن الله، أم قالها النصارى حيث قالوا «المسيح» ابن الله أم قالها المشركون حيث قالوا الملائكة بنات الله، مَنْ قالها فهو جاهل بالله وصفاته ولذا احتاج الأمر إلى تنزيه الله ﴿سُبْحَانَهُ﴾ تنزيهاً عن أن يكون له ولد، وحاشا لله أن يتخذ ولداً ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ۝٤﴾.

﴿بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ﴾ بل - للإضراب وإن الأمر خلاف ما زعموا وأنه سبحانه مالك السماوات والأرض وكل ما فيهما مطيع له ملتزم بأمره بحكم تكوينه وصُنعه له...

﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي خلقهن ابتداءً ومن دون شيء وعلى غير مثال تقدم أو نموذج احتذاه.

﴿وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ إذا أراد إحداث شيء وإيجاده فبمجرد الإرادة يتحقق المراد دون تأخير أو إبطاء، والتعبير بـ﴿كُن﴾ لأنها أخصر كلمة تعارف الناس على استحضار ما يريدون بها وإلا فإن الله متى أراد شيئاً يكون المراد دون واسطة ﴿كُن﴾ أو أي شيء آخر...

قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ لَوۡلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوۡ تَأۡتِينَآ ءَايَةٞۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّثۡلَ قَوۡلِهِمۡۘ تَشَٰبَهَتۡ قُلُوبُهُمۡۗ قَدۡ بَيَّنَّا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾﴾.

❁ ❁ ❁

اللغة

﴿لَوۡلَا﴾: كلمة لحضّ الفاعل على الفعل.

﴿ءَايَةٞ﴾: علامة ودلالة، حجة وبرهان.

﴿ٱلۡمَثَلُ﴾: الشبه والنظير.

﴿تَشَٰبَهَتۡ﴾: تماثلت.

﴿بَيَّنَّا﴾: بان بياناً وتبياناً اتضح وظهر، وبيّن الشيء: أوضحه.

﴿يُوقِنُونَ﴾: اليقين من صفة العلم فوق المعرفة والدراية وأخواتها، يقال علم اليقين وهو سكون الفهم من ثبات الحكم.

التفسير

بعد أن تقدم القدح بالتوحيد من قِبَل اليهود والنصارى والمشركين والرّد عليهم يأتي في هذه الآية القدح في النبوة.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ وهم مشركو العرب الجاهلين الذين لا حظ لهم من العلم والمعرفة.

﴿لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ﴾ أي هلاّ يكلمنا الله مشافهة فيخبرنا بأنك رسول من عنده أو ينزل علينا وحياً يخبرنا بذلك أو تأتينا آية نقترحها عليك تكون علامة على نبوتك تعنتاً منهم واقتراحاً للآيات على مقتضى مشتهياتهم ورفضاً للآيات التي جاء بها واستهانة واستصغاراً لها.

وتسْلية للنبي ﷺ وأنهم ليسوا متفردين في هذا الاقتراح بل لهم جذور ممتدة ورموز في عمق الدعوات قال تعالى:

﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ﴾ لقد كانت لهم هناك أسلاف عاشوا نفس المنطق والحديث والاقتراح للآيات، فمن قبلهم قال أسلافهم في الطريقة من اليهود لنبيهم موسى ﴿أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ [النساء: ١٥٣] ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا﴾ [الأعراف: ١٣٨] وقال النصارى لعيسى ﴿أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [المائدة: ١١٤].

وليست القضية محدودة بحدود اتفاقهم مع من سبقهم في المنطق واقتراح الآيات فحسب بل ﴿تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ فالمنطلق واحد وعمق التفكير واحد... إنهم ضمن جامع مشترك يحكمهم جميعاً هو وحدة قلوبهم المريضة المتعنتة المكذّبة للأنبياء والرسل الرافضة للآيات الصادقة التي تريد أن تُخضع الآيات لمشتهياتها وأهوائها وما تحب وترغب وإن لم يكن في ذلك مصلحة أو فائدة.

وفي نهاية الآية جاء التقرير منه سبحانه.

﴿قَدْ بَيَّنَّا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ قد أوضحنا المعجزات وكشفنا عن الآيات الدالة على صدق محمد ﷺ وما جاء به لمن أراد الحق والصدق واليقين، فمن يطلب المعجزات على صدق النبي ﷺ ويريد أن يصل إلى القطع واليقين، إنه نبي تكفيه هذه الآيات التي زودناه بها وأعطيناه إياها وفي ذلك كفاية وبه تمام المراد وكمال المرام.

قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۖ وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٩﴾﴾.

❁ ❁ ❁

اللغة

﴿أَرْسَلْنَٰكَ﴾: بعثناك، والإرسال يقابل الإمساك.

﴿ٱلْبَشِيرُ﴾: جمعه بشراء، مبلّغ البشرى وهو المخبر بما هو سارٍ.

﴿ٱلنَّذِيرُ﴾: هو المنذر، وجمعه النُّذُر ويقع على كل شيء فيه إنذار إنساناً كان أو غيره، والإنذار إخبار فيه تخويف...

﴿ٱلْجَحِيمُ﴾: شدة تأجج النار وقد أصبحت كالعلم على جهنم...

التفسير

أكّد الله بعثة رسوله وحدّد له مهمته ثم سلاّه على تعنتهم ورفضهم لما جاء به من الآيات.

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي بالدين الحق وهو الإسلام وما أنت عليه من الهدى ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ فالمهمة الملقاة على عاتقك حمل الرسالة تزفّ من خلالها البشرى الطيبة بالجنات والنعيم للمؤمنين المطيعين، وتُخوّف من لم يستجب لك ويتقبّل دعوتك حتى يعود إلى الحق، هذه هي مهمتك ﴿وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ

﴿الْجَحِيمِ﴾ فمن لم يستجب لك ويأبى الإيمان ويصرّ على الكفر ويريد أن يقتحم جراثيم جهنم فلا تسأل عنه أوعن مصيره، لأنه هو الذي اختار جهنم واختار هذا المقام المهين.

قال تعالى: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾﴾.

❁ ❁ ❁

اللغة

﴿تَرْضَىٰ﴾: الرضا: ضد الغضب والرضا بالشيء القبول به.

﴿تَتَّبِعَ﴾: من تبع، والاتباع: هو الاقتداء والاحتذاء.

﴿ٱلْمِلَّةِ﴾: كالدين وهو اسم لما شرّع الله تعالى لعباده على لسان الأنبياء ليتوصّلوا به إلى جوار الله / الطريقة/.

﴿أَهْوَآءَهُم﴾: مفرده الهوى ميل النفس إلى الشهوة غير المحمودة يقال فلان اتبع هواه إذا أريد ذمه...

﴿وَلِىٍّ﴾: الولي هو الذي يتولى أمور غيره ليجلب له منفعة أو يدفع عنه مضرة.

﴿نَصِيرٍ﴾: معين.

التفسير

كشف الله في هذه الآية موقف اليهود والنصارى من دعوة النبي قال تعالى: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾.

إن موقف اليهود والنصارى منك موقف واحد هو عدم الرضا عنك، فاليهود يريدونك إلى جانبهم وفي خطّهم وعلى دينهم تتبعهم وتقتفي أثرهم في عقيدتهم.

وكذلك النصارى.. موقفهم نفس موقف اليهود، ولكن لصالحهم وإلى جانبهم، ولن يرضوا عنك إلا إذا اتبعت ما هم عليه من عقيدة ودين...

فإذا كان هذا هو رأي اليهود والنصارى بما يحمل من تيئيس للنبي منهم فكيف يواجههم النبي ﷺ وكيف يقف منهم بعد أن انكشفت الحقيقة واتضح الأمر؟!.

إن الله يتولى تعليم رسوله طريق المواجهة ويعرّفه الموقف السليم.

﴿قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ﴾ قل لهم يا محمد وأسمع العالم بهذه المقولة: إن دين الله الذي هو الإسلام هو الهدى الصحيح وهو ما يجب أن يتبعه الناس كلهم وليس ما أنتم عليه ولا ما دعوتم إليه من اتباع ملتكم...

ثم كان التهديد الشديد إن حصلت مخالفة الهدى الذي بيّنه الله له أو أي موافقة واتباع لما دعوا.

﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾.

والخطاب وإن كان موجهاً للنبي ﷺ ولكن المراد به أمته ومن هم على دينه وطريقته من باب «إياك أعني واسمعي يا جارة وأيضاً توجه الخطاب إلى النبي وهو يحمل هذا التهديد العنيف - مع ما للنبي من منزلة رفيعة ومقام كريم - ليحذر غيره من عقاب شديد فإذا كان النبي وهو المعصوم يتوجه إليه هذا التهديد تكيف هو حال غيره من الناس...

وعلى كل حال ففي الخطاب تهديد شديد إن اتبع أهواء اليهود والنصارى وكم في تعبير أهواءهم من إيحاء بأن ما عندهم ليس له أصول ترجع إلى وحي إلهي أو كلام رباني أو وصايا الأنبياء والرسل.

فإذا اتبع أهواءهم بعد ما جاءه من العلم الإلهي المقرون بالبراهين الدالة على صحته فهناك تسقط معاذيره وحججه ويفقد الولي الذي يحفظه أو يدفع عنه العذاب الأليم... وبعبارة مختصرة: إذا ترك ما بيده من الحقائق الإيمانية المقرونة بالأدلة والبراهين الصادقة وأتبع أهواء اليهود والنصارى والخرافات التي اعتمدوها وتبنوه سقط في العذاب وليس من يدفع عنه أو ينصره وذلك يكون أعظم الخسران وأفدحه على الإطلاق...

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٢١﴾﴾.

❁ ❁ ❁

اللغة

﴿ءَاتَيْنَٰهُمُ﴾: أعطيناهم.

﴿يَتْلُونَهُۥ﴾: يتبعونه، وتلاوة الكتاب: قراءته.

﴿ٱلْخُسْرَانُ﴾: انتقاص رأس المال أو ذهابه.

التفسير

بعد أن بيّن سبحانه فيما تقدم حال اليهود والنصارى بشكل عام وموقفهم من النبي ﷺ وما جاء به وأنهم ركبوا رؤوسهم وأصرّوا على أهوائهم وعنادهم ورفضوا القبول بالنبي ﷺ والرضا عنه حتى يتّبع ملتهم، أراد سبحانه هنا أن لا ينفي منافع الدعوة ووجوبها، وأنها إذا رفضتها الغالبية من اليهود والنصارى ووقفوا منها موقف العداء فهناك فئة طيبة يمكن أن تنتفع بها وتستفيد منها وهي الفئة التي لم تدخل في عملية تحريف النصوص والسير وراء الأهواء والمنافع والفوائد.

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ وهم فئة قليلة آمنت من اليهود والنصارى ﴿يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ يقرؤون كتابهم ويتبعون ما فيه كما هو فيتدبّرون معناه ويعملون بمقتضاه.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ أولئك الصادقون في إيمانهم الذين صدّقوا الكتاب وآمنوا به أولئك الذين لم يمارسوا التحريف والتغيير في كتاب الله.

﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ الذين لا يقيمون للكتاب ـ كما هو ـ ولم يقرؤه ويعملوا به فهم كافرون به، ومن يكفر به فأولئك هم الخاسرون حقيقة الذين يخسرون أنفسهم من حيث يَدخلون النار بدل أن يدخلوا الجنة، وهل هناك أكبر أو أشد خسارة من ذلك؟ أجارنا الله وإياكم من هذه الخسارة وكل ما يؤدي إليها.

قال تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٢٢﴾ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴿١٢٣﴾﴾.

اللغة

﴿إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾: هو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل، وهو اسم أعجمي ومعناه كما قيل عبد الله.

﴿ٱذۡكُرُواْ﴾: الذكر ضد النسيان وهو الحفظ للشيء بذكره، والذكر أيضاً جري الشيء على لسانك كما أن معنى الذكر الشرف والكتاب والصلاة والدعاء وأصل الباب، كما قيل التنبيه على الشيء...

﴿ٱلنِّعۡمَةِ﴾: للجنس تقال للقليل والكثير وهي الحالة الحسنة، وحدُّها بعضهم بقوله: المنفعة المفعولة على جهة الإحسان إلى الغير.

﴿فَضَّلۡتُكُمۡ﴾: من الفضل وهو الزيادة، وفضل هذا على ذاك إذا حكم له بالزيادة أو أعطاه الزيادة.

﴿ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾: جمع العالم وهو اسم للفلك وما يحويه من الجواهر والأعراض، وهو في الأصل اسم لما يعلم به، كالطابع والخاتم لما يطبع به

ويختم به، وكل نوع من هذا الكون عالم فيقال عالم الإنسان وعالم الحيوان وعالم النبات وهكذا. . .

﴿اتَّقُوا﴾: من وقى، والوقاية حفظ الشيء مما يؤذيه ويضرّه والتقوى جعل النفس في وقاية مما يخاف، وفي الشرع حفظ النفس عما يؤثم وذلك بترك المحظور ويتم ذلك بترك بعض المباحات.

﴿يَوْمًا﴾: اليوم يعبّر به عن وقت طلوع الشمس إلى غروبها وقد يعبّر به عن مدة من الزمان أي مدة كان.

﴿لَّا تَجْزِي﴾: من جزى يجزى جزاء، والجزاء الكفاية ويجزي يكفي.

﴿شَيْئًا﴾: الشيء: قيل هو الذي يصح أن يُعلم ويخبر عنه.

﴿يُقْبَلُ﴾: قبول الشيء: تلقيه والأخذ به وضده الإعراض عنه.

﴿الشَّفَاعَةَ﴾: من الشفع وهما الاثنان ضد الوتر وهو الواحد والشفاعة ضم غيره إلى وسيلته ـ كما في البحر ـ لأن الشفيع ينضم إلى الطالب في تحصيل ما يطلب فيصير شفعاً بعد أن كان وتراً. . .

﴿يُؤْخَذُ﴾: من الأخذ وهو حوز الشيء وتحصيله.

﴿عَدْلٌ﴾: فدية وأصل العدل ـ بفتح العين ـ ما يساوي الشيء قيمة وقدراً وإن لم يكن من جنسه وبكسرها المساوي في الجنس والجرم. .

﴿يُنصَرُونَ﴾: من النصر وهو في الأصل العون والأنصار الأعوان وانتصر الرجل انتقم. . .

التفسير

قلنا بالنص الحرفي في تفسير الآيتين: ٤٧ ـ ٤٨. . .

الخطاب لبني إسرائيل المتواجدين في زمن النبي ولكن بأسماء آبائهم الذين سلفوا تأكيداً لهم وتذكيراً إلى أنهم أبناء أولئك القوم الذين أنعم الله عليهم، فحقّ لهؤلاء الأبناء أن يحفظوا نعمة الله من حيث أنه أنعم على آبائهم والإنعام على الآباء إنعام على الأبناء...

﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ﴾ بعد أن حكى الله مخالفات بني إسرائيل أراد أن يردهم إليه ويذكرهم بما أنعم عليهم ليؤدوا الشكر ويقوموا بالواجب.

ذكرهم بنعمه على أجدادهم لأنها أيضاً وصلت إليهم، وقد قصّ الله جملة نعم أنعم بها عليهم وأهمها إرسال الرسل إليهم وبعث الأنبياء فيهم وتظليل الغمام فوقهم يحميهم من حرارة الشمس وإنزال المن والسلوى وتفجير الماء من الحجر وهكذا...

﴿وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾.

هذه نعمة التفضيل.. تفضيلهم على عالم زمانهم بما أرسل فيهم من رسل وبعث فيهم من أنبياء...

وإنما قلنا عالمي زمانهم لأن أمة النبي محمد ﷺ هي أفضل الأمم على الإطلاق لقوله تعالى: ﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

وباعتبار أن الله يعدّد النعم ويذكّرهم بها، وهم لم يكونوا موجودين يومها نعرف أن المراد بها آباءهم وأجدادهم ومَن تقدم عليهم...

ثم بعد أن ذكّرهم بنعمه أردف ذلك بتخويفهم لعلهم يرجعون إلى الله وإلى رحابه يعودون، فقال تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ١٢٣﴾.

احفظوا أنفسكم وادفعوا عنها ذلك اليوم العظيم الذي يقوم فيه الناس لربّ العالمين، يوم تحاسب كل نفس عن نفسها ولا يؤخذ أحد بجريرة أحد فالثواب

يعود لفاعل الخير والعقاب يعود لفاعل الشر ولا يتحمل أحد وزر أحدٍ شيئاً.

إنه يوم لا تقبل فيه الوساطات كما لا يقبل فيه الفداء فكل شيء يسقط ولا يبقى إلا العمل الصالح...

كل فرد في يوم الحساب يقول: «نفسي، نفسي»، يريد النجاة بها ويذهل عمن سواها ولا يلتفت إلى غيرها.

قال تعالى: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾﴾.

اللغة

﴿ٱبْتَلَىٰٓ﴾: من بلى يقال بلي الثوب وبلاء أي خلق، وبلوته: اختبرته، كأني أخلقته من كثرة اختباري له وأبليت فلاناً إذا اختبرته والبلاء والابتلاء بمعنى واحد والابتلاء الاختبار بما تنكشف به حقائق الأشياء والناس.

﴿إِبْرَٰهِـۧمَ﴾: علم أعجمي وهو اسم للخليل إبراهيم..

﴿كَلِمَٰتٍ﴾: جمع كلمة وتطلق على اللفظ المفرد وعلى الكلام المفيد، والمراد هنا معناها من أمر ونهي.

﴿فَأَتَمَّهُنَّ﴾: من التمام وتمام الشيء انتهاؤه إلى حد لا يحتاج إلى شيء خارج عنه، والناقص عكس ذلك وتمام الشيء كماله.

﴿جَاعِلُكَ﴾: مصيّرك.

﴿إِمَامًا﴾: المؤتم به الإنسان الذي يقتدى بقوله وفعله.

﴿ذُرِّيَّتِى﴾: قال الراغب في مفرداته: الذرية أصلها الصغار من الأولاد وإن كان قد يقع على الصغار والكبار معاً في التعارف، ويستعمل للواحد والجمع وأصله الجمع انتهى. والذرية هي النسل.

﴿يَنَالُ﴾: النَّيل ما يناله الإنسان بيده.

﴿ٱلْعَهْدُ﴾: حفظ الشيء ومراعاته حالاً بعد حال، وسُمّي الموثق الذي يلزم مراعاته عهداً، والمقصود بالعهد هنا هو عهد الإمامة التي نالها إبراهيم...

التفسير

تتحدث الآية عن إبراهيم الخليل الذي تسالمت الأديان على نبوته وتقديره واحترامه، وأنه النبي المكرّم من الله الذي حباه الله بأعظم النعم بعد أن امتحنه بأعظم المحن، ولذا يذكّر كل المتدينين الذين يعيشون ذكراه ويتفيئون في ظلال عظمته أن يعيدوا إلى ذاكرتهم ما قام به وما قدّمه للمجتمع البشري، ومن خلال هذه الإعادة لدور إبراهيم وقبولهم له يجب أن يقبلوا ما جاء به محمد ﷺ ويؤمنوا به كرسول جاء للسير بهم على سيرة إبراهيم وسنته...

ابتدأت الآية بقوله: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ اذكروا كيف امتحن الله إبراهيم بابتلاءات عظيمة فنجح فيهن وأتى بهن على الوجه المطلوب...

إنه امتحان بظاهره بلاء ومحن... امتحان كما نسميه نحن جرياً في الكلام على مقتضى خطاباتنا وما تعارفنا عليه، وإن كان غير صحيح ولا سليم على مقتضى علم الله من حيث أنه سبحانه يعلم كل ما جرى فيما مضى ويعلم ما يجري الآن كما يعلم ما سيجري في المستقبل.

فالزمن عنده واحد ومعرفته بأفعال الناس وحركات الكون وما يجري فيه كلها تساوى في علمه وإنما كان الابتلاء من أجل أن تتم الحجة على المبتلى ويقطع عذار من اعتذر لولا هذا الابتلاء كما يتمّ الاستحقاق بالفعل للقيام بما ابتُلي به...

إنه امتحان محنة وفي الحقيقة منحة من أجل رفع الدرجات وعلو الرتب والمقامات...

لقد ابتلى الله إبراهيم بابتلاءات عظيمة... ابتلاه بنار نمرود... وبالهجرة عن الوطن وابتلاه بذبح ولده وابتلاه بغيرها، وقد نجح بكل ذلك وأتى بكل أوامر الله بحذافيرها بتمامها وكمالها لم ينقص منها شيئاً ـ فأتمهن ـ لقد جاء بهن تامات فاستحق بذلك رتبة عالية مميزة فوق النبوة...

فإذا كانت النبوة فيما تعني نقل كلام الله ومراده إلى الناس وتبليغهم به، فإن الإمامة تعني تنفيذ هذه المضامين والقيام بها حركة حية وتجسيداً واقعاً. فالإمام يعني المقتدى والأسوة ومن يسير على خطاه الناس ويقتدون به وينفذون أوامره إن لم يكن بطيب خاطر فبالقوة وبما يملك من سلطان وقدرة على التنفيذ..

إنها الإمامة التي استحقَّها إبراهيم عن جدارة بعد مروره بتجارب وامتحانات عظيمة فخاطبه الله.

﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ ستكون القدوة والإمام المقتدى به في كل حركاته وسكناته وكل ما يأتي به من عند الله... ستكون المنفّذ لإرادة الله والمطبّق لأحكامه ومراداته...

ويستمع إبراهيم لهذه الكرامة فيتمناها لذريته وينطلق لسانه: ﴿قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ إما على وجه الاستفهام أو الدعاء، وعلى كلا الوجهين فهذا قد كان في كبره وبعد أن بُعث نبياً ورزق بالولد، وإلا فمن كان عقيماً لا يطلب الإمامة في ذريته ولا يستفهم عن أمر لا موضوع له...

ويسمع الله قول إبراهيم فيقرّر له حقيقة على أساسها يكون بعض أبنائه أئمة وبعضهم لا ينالها وليس له حظ فيها ﴿قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ من تلبّس بالظلم وعاشه ومارسه ليس له حظ في الإمامة... الظلم ولو ساعة سواء كان كفراً أو شركاً أو خروجاً عن حدود الله أوامراً ونواهياً في صغيرة أو كبيرة... إنه الظلم بكل ما يصدق عليه يُسقط أهلية الإنسان عن استحقاق الإمامة ويفقده شرط بلوغها والوصول إليها... شرط استحقاق الإمامة أن يكون الإنسان مبرّأ من كل ظلم... سواء كان في ماضي عمره أو حاضره أو مستقبله لصدق إطلاق الظالم

على من مارس ذلك وقام به ولو للحظة من عمره... إنها الإمامة المنحة الإلهية يجعلها الله لذرية إبراهيم ممن لم يمارس ظلماً أبداً، أما من مارس ذلك ولو لحظة من عمره فلا حظٌ له فيها ولا يناله منها شيئاً...

فوائد

١ ـ الابتلاء هو الاختبار، ولما كان الاختبار عند البشر يحمل الجهل بالمختبر ـ باسم المفعول ـ عادة وحقيقة، ولما كان هذا المعنى ينزه الله عنه فلا بد من حمله على المعنى المجازي فإن الله يعلم كل شيء ولا يخفى عليه شيء... فالله يبتلي البشر من أجل رفع درجاتهم.. أو لينالوا ما ينالونه عن استحقاق أو ليقطع حجة المتعللين بأنك لم تختبرني لترى عزمي وقدرتي...

٢ ـ اختلف في المراد بالكلمات على أقوال:

أ ـ روي أنها الابتلاءات التي ابتلاه الله بها في نومه وهو ذبح ولده، فلما أتمّ ذلك وأراد ذبحه وعلم الله صدق عزمه أعطاه الإمامة.

ب ـ إن المراد بالكلمات عشر خصال كما عن ابن عباس، وهي: المضمضة والاستنشاق وفرق الرأس وقص الشارب والسواك في الرأس والختان وحلق العانة ونتف الإبط وتقليم الأظفار والاستنجاء في البدن...

أقول: وهذه وإن كانت من تكاليف الله وسننه التي سنّها الله، ولكنها جزئيات صغيرة تتساوى مع أقوال أخرى تحصر الكلمات ببعض التكاليف المعينة.

ج ـ في عيون الأخبار بإسناده إلى الرضا عليه السلام في حديث طويل يقول فيه «إن الإمامة خصّ الله (عز وجل) بها إبراهيم الخليل (صلوات الله عليه وآله) بعد النبوة والخلة».. مرتبة ثالثة وفضيلة شرّفه بها وأشاد بها ذكره فقال عز وجل: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ فقال الخليل عليه السلام سروراً بها ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ قال الله عز وجل: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ فأبطلت هذه الآية إمامة كل ظالم إلى يوم القيامة وصارت في الصفوة...

وعلى كل حال فإن حمل الكلمات على كل التكاليف التي كلّف الله بها نبيه إبراهيم وقيام إبراهيم بها كاملة غير منقوصة أولى وتشمل كل الجزئيات التي ذكرتها الأحاديث والروايات. . .

٣ ـ إن الإمام له معنيان:

أ ـ المقتدى به والمبلغ رسالة ربه.

ب ـ إضافة إلى المعنى الأول أنه القائم بتنفيذ هذه الأوامر والقائم بسياسة العباد وتدبير شؤونهم، وإبراهيم نال الإمامة بالمعنى الثاني لأنها جاءت بعد النبوة، وذلك لأمرين:

الأول: طلبه في ذريته ولو لم يكن له ذرية لانتفى الموضوع،

والثاني: أن اسم الفاعل ﴿جَاعِلُكَ﴾ عامل في إماماً واسم الفاعل لا يعمل إلا إذا أريد به المستقبل فتعين أن تكون مرتبة الإمامة بعد النبوة وبعد الابتلاءات. . .

قال تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَـٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ (١٢٥)﴾.

❁ ❁ ❁

اللغة

﴿جَعَلْنَا﴾: صيّرنا.

﴿ٱلْبَيْتَ﴾: هو المنزل الذي يأوي إليه الإنسان ليلاً ثم يقال للمسكن بيت من غير اعتبار الليل ويقع ذلك على المتخذ من حجر ومدر وصوف ووبر، وأصبح ﴿ٱلْبَيْتَ﴾ علماً للكعبة.

﴿مَثَابَةً﴾: مرجعاً، من ثاب إذا رجع وثاب إلى رشده إذا رجع والتاء فيه للمبالغة.

﴿ٱلْأَمْنِ﴾: أصل الأمن طمأنينة النفس وزوال الخوف وهنا يراد به مكاناً آمناً فيه السلامة...

﴿ٱتَّخِذُوا۟﴾: الاتخاذ افتعال ويتعدّى إلى مفعولين ويجري مجرى الجعل.

﴿مَّقَامِ﴾: يكون مصدراً واسم مكان القيام وزمانه وهنا اسم مكان ـ ومقام إبراهيم ـ هو الحجر الذي كان يقوم عليه إبراهيم حين بناء الكعبة.

﴿مُصَلًّى﴾: موضع الصلاة.

﴿عَهِدْنَآ﴾: من العهد وهو حفظ الشيء ومراعاته، وعهد فلان لفلان ألقى إليه العهد وأوصاه بحفظه وهو هنا أمرنا أمراً ملزماً.

﴿إِسْمَٰعِيلَ﴾: اسم أعجمي، وهو إسماعيل بن إبراهيم الخليل.

﴿طَهِّرَا﴾: من الطهارة وهي النظافة والتثنية لإبراهيم وإسماعيل.

﴿لِلطَّآئِفِينَ﴾: جمع طائف، اسم فاعل، من طاف به إذا دار حوله.

﴿وَٱلْعَٰكِفِينَ﴾: جمع عاكف من العكوف وهي الإقامة على الشيء والملازمة له.

﴿وَٱلرُّكَّعِ﴾: جمع راكع والركوع الانحناء وهو تارة يستعمل في الهيئة المخصوصة في الصلاة وأخرى في التواضع والتذلل.

﴿ٱلسُّجُودِ﴾: جمع ساجد والسجود أصله الخضوع والتذلل وجُعل ذلك عبارة عن التذلل لله وعبادته.

التفسير

تذكير لهذا الإنسان بعظيم فضل الله عليه حيث جعل بيته الحرام مركزاً يعود إليه الناس في كل عام ومحلاً آمناً لا خوف فيه.

﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾ واذكروا إذا جعلنا البيت ـ وهي الكعبة ـ مركزاً يعود إليه الناس من أطراف الأرض، فترى في كل عام أفواج الحجيج تتجه بيت الله حجاً وعمرة وزيارة بحيث لم تتعطل تلك الديار المباركة من قادمين عليها يؤدون مناسكهم ويقفون في تلك المواقف الكريمة يستعيدون تاريخ نبيهم والصفوة الطيبة من أصحابه... إنها القلوب المؤمنة يدفعها الشوق ويشدّها الحنين إلى تلك الربوع حتى أن من زارها مرة تمنى أن يعود إليها أخرى وهكذا... فالعود إليها أمنية غالية لمن قصدها ونشيد حلو عذب يطلبه من لم يبلغ إليها...

ومضافاً إلى ذلك فقد جعلها الله بقعة آمنة يأمن فيها الناس والدواب الطير. . . حتى بلغ أمانها الجناة خارج الحرم إذا التجأوا إليه، فإنهم لا يؤخذون لا يقتص منهم فيه بل يُضيّق عليهم في المأكل والمشرب حتى يخرجوا. . .

إنها جزيرة أمان في هذا العالم المضطرب الدامي. . إنها نقطة السلام التي حلمت بها الإنسانية تتجسد في بيت الله الحرام. . .

وبعد هذا الجعل المبارك لمكة وما لها من حرمة صدر الأمر إلى الناس ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ تعظيماً لشيخ الأنبياء إبراهيم وتقديراً لجهوده فقد حوّل الله «مقامه» وهو إلى جانب الكعبة المباركة إلى مصلى يؤدي وراءه الحاج كعتي الطواف، وهذا هو مستند من أوجب هاتين الركعتين، يعضد ذلك لأحاديث الواردة عن النبي ﷺ وأهل بيته الحاكية وجوب هاتين الركعتين عند قام إبراهيم إنه أمر يتحقق مصداقه في كل حاج يطوف بيت الله فيعود بعد انتهائه ى ركعتي الطواف خلف مقام إبراهيم عليه السلام.

ثم بيّن الله إكرامه لإبراهيم وإسماعيل من حيث تكليفهما بتطهير هذا البيت مبارك. . .

﴿وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾.

عهد الله إلى إبراهيم وإسماعيل، وأوصاهما وأمرهما أن يُطهِّرا بيته، وتطهير بيت الحرام يعني إزالة كل ما يتنافى وحرمة هذا البيت سواء كانت معنوية أم ادية، نجاسة خبثيّة أو حدثيّة، وتطهيره من أن يدخله مشرك أو ملحد وتطهيره ن النجاسات والقاذورات وتطهير الداخل إليه من الجنابة والحيض وغيرهما. . .

وقد علل هذا التطهير من أجل الطائفين فيه الذين يعبدون الله بطوافهم حول بته ودورانهم حول هذه البُنية التي تمثل الفضيلة والمؤمن يدور حولها، وكذلك لعاكفين وهم الملازمون للعبادة فيه، وكذلك الركّع السجود وهم المصلون متوجهون إلى الله، فإنه سبحانه يريد للعبادة الواقعة من الطائفين والعاكفين الركّع السجود أن تقع في أماكن طاهرة معنوياً ومادياً حتى يستشعر المتنسك

بروحانية الطهارة في كل الأجواء التي يتحرك فيها ويؤدي شعائره في أماكنها.

فوائد

١ - ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا﴾: معطوف على قوله: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ﴾.

٢ - قوله تعالى: ﴿مَثَابَةً لِّلنَّاسِ﴾ لها تفسيران، الأول: ما ورد في الشرح وهو من ثاب بمعنى رجع وأن الكعبة يعود إليها الناس في كل وقت فضلاً عن كل عام.

والثاني: من الثواب وهو الأجر باعتبار أن من يقصدها ويتعبد بها يؤجر ويكتب له الثواب.

٣ - إن قوله: ﴿وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ﴾ قرأ بعضهم اتخذوا بصيغة فعل الماضي بدل فعل الأمر.

٤ - إن ﴿مِن﴾ في قوله: ﴿مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ﴾ فيها ثلاثة أقوال:

أ - ﴿مِن﴾: إنها للتبعيض.

ب - ﴿مِن﴾: إنها بمعنى في.

ج - ﴿مِن﴾: إنها بمنزلة ﴿مِن﴾ في قولنا اتخذت من فلان صديقاً، فهي لبيان المتخذ، وهذا الأخير هو الأرجح.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾﴾.

❁ ❁ ❁

اللغة

﴿ٱلْبَلَدَ﴾: هو المكان المخطّط المحدود المتأنس باجتماع قطّانه وإقامتهم فيه، وجمعه بلاد وبلدان، والمقصود هنا في الآية مكة.

﴿ءَامِنًا﴾: من الأمن، وهو طمأنينة النفس وزوال الخوف وبلداً آمناً أي ذي أمن.

﴿وَٱرْزُقْ﴾: من الرزق يقال: تارة للعطاء الجاري دنيوياً كان أم أخروياً وللنصيب تارة ولما يصل إلى الجوف ويتغذى به تارة وهنا الغذاء والطعام..

﴿أَهْلَهُۥ﴾: سكانه ومن يعيشون فيه وعلى أرضه.

﴿ٱلثَّمَرَٰتِ﴾: جمع ثمرة وهو اسم لكل ما يؤكل من أعمال الشجر.

﴿ءَامَنَ﴾: صدّق.

﴿ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ﴾: يوم القيامة.

﴿فَأُمَتِّعُهُۥ﴾: من التمتع وهو اعطاء الانسان ما ينتفع به ويلتذ.

﴿أَضْطَرُّهُۥٓ﴾: الاضطرار: ضد الاختيار، وهو كون الفعل صادراً من الشخص من غير اختيار يعني بالإكراه.

﴿بِئْسَ﴾: كلمة تستعمل في جميع المذام.

﴿ٱلْمَصِيرُ﴾: المنتهى والمآل.

التفسير

الأبوة العطوفة التي ترى أبناءها يحيون في أجواء عقيدتها الصالحة الطيبة لن تبخل عليهم بدعوة كريمة تتجلى في أمنهم وخصبهم، وهكذا كان المعلم الأول شيخ الأنبياء إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ فقد انطلقت من عمق القلب الطيّب الرحيم عبارات الدعاء وراحت تنساب في واقع الحياة تعكس الأمن والرخاء...

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ﴾ اذكروا ما قاله إبراهيم، إنها مقولة تنعش القلوب وتطيبها وتصيبها بالخير والبركة، قال: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾.

توجّه إبراهيم إلى ربه، وما أجمل هذه الوقفة بين يدي الله ومناجاته بكلمة ﴿رَبِّ﴾ التي تعني الانقطاع إليه. اجعل هذا ـ وادي مكة ـ الأجرد غير ذي الزرع بلداً تلتقي فيه الناس ويجتمع الخلق في رحابه.

ثم دعا بأمرين للمؤمنين: الأمن، والخصب، وهما عمدة هذه الحياة وركيزة استقرارها وكرامتها...

﴿ءَامِنًا﴾ أن يشعر الإنسان بحماية حياته من الاعتداءات والتجاوزات.. من القهر والغلبة من الاستعمار والاستبداد...

وفي الدعاء «اللهم آمنا في أوطاننا»، وفي الحديث: الأمن أحد النعمتين المجهولتين. وقد مرّت علينا ظروف صعبة تهدد أمننا، ولا يزال مهدداً من قبل الصهاينة في فلسطين، حيث تتحرك طائراتهم في كل وقت وحين فتضرب الناس

وتقتلهم، وفي شهر نيسان من سنة ١٩٩٦ وأنا أحرّر هذه الكلمات أسمع قصف المدافع الصهيونية ومعها الطائرات كما أرى أهلنا بمئات الآلاف قد هجروا من جبل عامل، ثم كانت الفاجعة الكبرى حيث وقعت مجزرة (قانا) التي ذهب ضحيتها أكثر من مئة نفس طاهرة بريئة في هذا الشهر، وكان هؤلاء قد لجأوا إلى مقرّ الأمم المتحدة ظنّاً منهم أنهم في حمايته...

الأمن يجعل عند الإنسان ثقة بنفسه وبحركته فيطمئن إلى كل عمل يقوم به... إن من يأمن على نفسه وعلى ماله يتحرك بقوة واندفاع ويشد عزيمته من أجل حياة أفضل وأكرم، وأما من كان مهدداً في وجوده ويخاف في كل لحظة أن يُقضى عليه أو على ما جنى وجمع من مال ومتاع فهذا لا تساعده قواه لإنتاج اكبر وأكثر...

وأما الخصب ورغد العيش فهو بعد الأمان، ولذا ترتب في الدعاء الإبراهيمي. ﴿وَٱرۡزُقۡ أَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ دعاء لهم أن يرزقهم الله ويغدق عليهم من خيرات الأشجار والمزروعات وكل ما تجود به الدنيا ويتكرّم به الله لكي يتفرغوا لعبادته وينقطعوا إلى جنابه.

وإنما خصّ المؤمنين بالدعاء تأدباً مع الله من حيث تقدم قوله تعالى: ﴿لَا يَنَالُ عَهۡدِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وهذا مشعر ببعدهم عن الله، فلذا فلم يَدْعُ إبراهيم لهم لبعدهم عن الله تعالى.

ويستجيب الله دعاء إبراهيم وتعمّ خيرات الله المؤمن والكافر في الدنيا ويفترقان في الآخرة...

﴿وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلٗا ثُمَّ أَضۡطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾.

فرزقه سبحانه في الدنيا يعمّ المؤمن والكافر، ولكن الفرق بينهما أن المؤمن يمتّع في الدنيا بطيباتها مما رزقه الله ثم تكون الجنة منقلبه ومثواه. وأما الكافر فيمتّع في الدنيا ويأكل من رزق الله خلال حياته فيها وهي قليلة حقيرة ثم يدفعه الله قهراً عنه إلى عذاب النار، ويا قبح ذلك المصير وقبح ذلك المنقلب...

قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾.

اللغة

﴿يَرْفَعُ﴾: الرفع يقال، تارة في الأجسام الموضوعة إذا أعليتها عن مقرّها، وتارة في البناء إذ طوّلته، وتارة في الذكر إذ فوّهته، وتارة في المنزلة إذا شرفتها؛ وضد الرفع الوضع.

﴿ٱلْقَوَاعِدَ﴾: جمع قاعدة وأصلها كما قيل في اللغة: الثبوت والاستقرار، وقواعد البناء أساسه الذي بني عليه.

﴿تَقَبَّلْ﴾: الله العمل: قبله ورضيه وأثاب عليه.

﴿وَٱجْعَلْنَا﴾: صيّرنا.

﴿ٱلْإِسْلَٰمُ﴾: هو الانقياد لأمر الله تعالى بالخضوع اعتقاداً وعملاً واجعلنا مسلّمين أيّ اجعلنا منقادين لك.

﴿ذُرِّيَّتِنَآ﴾: قال الراغب في مفرداته: الذرية أصلها الصغار من الأولاد وإن

كان قد يقع على الصغار والكبار معاً في التعارف ويستعمل للواحد والجمع وأصله الجمع. انتهى. أقول: هو النسل.

﴿أُمَّةً﴾: كل جماعة يجمعهم أمر ما إمّا دين واحد أو زمان واحد أو مكان واحد سواء كان ذلك الأمر الجامع تسخيراً أو اختياراً وجمعها أمم.

﴿أَرِنَا﴾: من الرؤية التي هي الإدراك بالبصر.

﴿مَنَاسِكَنَا﴾: جمع منسك وهي العبادة من نسك، والنُسك: العبادة، والناسك: العابد، والمناسك: مواقف النسك وأعمالها. . .

﴿وَتُبْ﴾: فعل أمر من تاب عليه إذا قبل توبته منه، والتوّاب إذا نسب إلى العبد الكثير التوبة وذلك بتركه كل وقت بعض الذنوب حتى يصير تاركاً لجميعها وإذا نسب إلى الله فلكثرة قبوله توبة العباد حالاً بعد حال.

﴿وَابْعَثْ﴾: أصل البعث إثارة الشيء وتوجيهه يقال بعثته فانبعث ويختلف البعث باختلاف ما علق به. وبعث الرسول أرسله وكلفه بتبليغ الرسالة. .

﴿يَتْلُوا﴾: يقرأ.

﴿ءَايَٰتِكَ﴾: جمع آية وهي العلامة الظاهرة وتطلق الآية على البناء العالي ولكل جملة من القرآن دالة على حكم آية سورة كانت أو فصولاً أو فصلاً من سورة. .

﴿يُعَلِّمُهُمُ﴾: يفهمهم ويفقههم.

﴿الْكِتَٰبَ﴾: القرآن.

﴿الْحِكْمَةَ﴾: إصابة الحق بالعلم والعقل، فالحكمة من الله تعالى معرفة الأشياء وإيجادها في غاية الإحكام ومن الإنسان معرفة الموجودات وفعل الخيرات.

﴿يُزَكِّيهِمْ﴾: من التزكية وهي في الأصل التنمية وزكى المال إذا نمى وتستعمل في معنى الطهارة.

﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ : من العزة وهي حالة مانعة للإنسان من أن يُغلب من قولهم أرض عزاز أي صُلبة، والعزيز هو الذي يُقهر ولا يقهر. . .

﴿ٱلْحَكِيمُ﴾: فاعل الحكمة واضع الأمور في مواضعها.

التفسير

هذه قصة إبراهيم مع بيت الله الحرام يحكيها الله وينقل بعض تفاصيل هذا البناء الكريم وكيف كان إبراهيم وإسماعيل حال البناء من إخلاص وصفاء وما تضمن ذلك من دعاء. .

إنها قضية بناء بيت الله الحرام على يد شيخ الأنبياء إبراهيم وولده إسماعيل يقصّها الله على الناس ويذكّرهم بها ليكونوا مع هذا النبي في خطه، يقتدون به في عمل الخير ويبتهلون إلى الله في تقبّل أعمالهم، كما أن في ذكرها حثّ للمسلمين لتعظيم الكعبة واحترامها والاهتمام بشأنها.

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ﴾ اذكروا إذ يبني إبراهيم الكعبة مع إسماعيل ويرفع ذلك البناء ليكون معبداً للمؤمنين وقبلة للطائفين والعاكفين والركع السجود. . . إنها البُنية الشريفة التي شمّر إبراهيم ساعداه مع ولده إسماعيل وأقاما صرحها منارة هدى وتقى. . . إنه بناء مميز خالد مبارك بنته أيد طاهرة صادقة طيبة لم تتلوث بلوثات الجاهلية وقبائحها. . . بأيدي الأنبياء المباركة شُيّدت أركان هذا البيت وبأمر من الله كان بناؤه. . .

لله أي بناء هذا ـ البيت ـ لله أي بناة هم بناته؟!. . .

الأب إبراهيم والابن إسماعيل التقت أيديهما لبناء بيت الله، ومع البناء تجري الكلمات الندية الطيبة لتعبّر عن القلوب الخالصة لله.

﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ ربنا تقبّل منا عملنا ـ أجرنا عليه ـ واجعله لوجهك الكريم. . وما قيمة العمل إن لم يكن لوجه الله ويكون عليه الأجر والثواب؟! تعليم لنا كيف يكون التوجه عند كل عمل. .

ثم إقراراً بواقع الإخلاص إنك أنت يا رب السميع لدعائنا المتقبل منا العليم بصدق إخلاصنا وما تنطوي عليه قلوبنا وإن هذا العمل لوجهك الكريم. . .

﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ﴾. .

ربنا واجعلنا مستسلمين لك منقادين لحكمك إذا كان الفعل من أسلم إذا استسلم وانقاد أو مخلصين لك ﴿مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ﴾.

وعلى كل حال فإنهما يدعوان الله أن يبقيهما قائمين بجميع شرائع الإسلام وحدوده.

ثم إن هذا الجعل كيف يطلبانه من الله وهما مسلمين؟ وهل هذا إلا تحصيل حاصل؟!. .

قالوا في الجواب عدة وجوه وأحسنها وأقربها إلى الصواب واحد من اثنين:

الأول: أي اجعلنا مستمرين على الإسلام لك فيما يبقى من عمرنا، ومن الواضح أن وجوده الآن لا ينافي طلب بقائه في المستقبل.

الثاني: أن يكون طلباً للزيادة في الإسلام، بأن يزداد إيمانهما ويقينهما على عادة أهل الهمم العالية من الأنبياء كلما ارتفعوا درجة من القرب من الله طلبوا ما فوقهما. . .

ثم لا يغيب عنّا أن قوله: ﴿وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ﴾ يفيد الحصر أي مسلمين لك دون غيرك. . .

﴿وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾ وهكذا الصالحون كما ينظرون لأنفسهم ينظرون لمن يأتي بعدهم من أولادهم وأحفادهم ومن يعودون إليهم، ومن هنا يدعو إبراهيم ربّه أن يجعل من ذريته جماعة مستسلمة لله خاضعة له مخلصة في توجهها إليه حتى تبقى شعلة التوحيد مستمرة وعقيدة الإيمان دائمة. . .

و﴿من﴾ في المقام للتبعيض وتخصيص البعض لعلمهما أن في ذريتهما ظالم حيث تقدم قوله: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِى قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

وقال بعضهم أراد من ذريتنا «العرب» لقوله تعالى فيما بعد ﴿بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾.

وفي أحاديثنا أن المراد بالذرية (بني هاشم) يعني الأئمة...

﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾ عرفنا شرائع ديننا وأماكن عبادتنا حتى نتوجه إليك بالعبادة...

﴿وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾.

إنها توبة خواص الخواص... توبة الأنبياء الذين لم يعصوا الله أبداً ولكن لمعرفتهم بالله يجدون أنفسهم مهما جدوا أنهم مقصّرون فيعودون إلى الله بالاستغفار والتوبة...

ثم لزيادة الاستعطاف كان قولهم: ﴿إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ قابل التوبات باستمرار وعلى كل حال، والرحيم لجميع الخلق تقبّل توبتهم لتدخلهم الجنة وتنقذهم من النار.

﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾.

بعد أن دعا إبراهيم وإسماعيل أن يكون من ذريتهما أمة مسلمة، دعوا الله أن يبعث في تلك الأمة رسولاً منهم يعرفونه ويعرفون آباءه ويعرفون تاريخه وسلوكه حتى يتقبلوه بقبول حسن ويستمعوا إليه ويقبّلوا ما يأتيهم به...

إنها دعوة إلى عزّ هذه الأمة بالدعوة إلى بعثه رسول منها... وقد كان النبي محمد ﷺ هو مصداق هذه الدعوة والمحقق لوقوعها والمصدّق لها فبعثه الله سبحانه استجابة لدعوة إبراهيم.

ثم إن إبراهيم حدّد مهمة هذا النبي ودوره... إنه ينظر إليه منارة يهدي الضالين ويرد التائهين ويثبت عقيدة التوحيد بالله ويحمل الأمة على العمل بما أراد الله...

إنه رسول ﴿يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَٰبَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

هدف كبير ينظر إليه إبراهيم ويلقيه على عاتق هذا النبي. .

﴿يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِكَ﴾ يقرأ عليهم آيات القرآن ليعتبروا بها ويصدّقوا بما يأتي به ويستدلوا بها على نبوته أو يتلو عليهم آياته التي فيها أدلة الربوبية والتوحيد وما هو مركوز في الفطرة فتكون هذه إثارة للفكر وإيقاظ للجِبلّة التي جبل الله الخلق عليها ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ يفهّمهم القرآن ويفقههم فيه.

وأما الحكمة فقد اختلفوا فيها على أقوال:

أ ـ قالوا إنها سنة النبي بقرينة الكتاب ولأنها غيره.

ب ـ قالوا: إنها معرفة الدين والتفقه فيه والاتباع له.

ج ـ قالوا: إنها الفصل بين الحق والباطل.

والأقرب تعليمهم الحق والصواب وما فيه منافعهم وما يقربهم من الله ليعم كل ما تقدم. . .

﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ هذه المهمة الثالثة التي طلبها إبراهيم وأرادها أن تكون غرض هذا الرسول وهدفه «أن يزكيهم» ينمّيهم بالخيرات ويبعّدهم عن الشرك والآفات. . . فهو صلوات الله عليه يزرع في قلوبهم التقى والإيمان وينمي ذلك فيهم حتى تصبح نفوسهم في مرتبة عالية من الطهارة والنقاء والصفاء بحيث تنعكس على سلوكهم وحركاتهم فيبتعدوا عن كل قبيح ومسيء. . .

﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ التجأنا إليك يا رب لأنك وحدك العزيز الذي لا يضام ولا يلحقه عجز، القادر على ما طلبنا منك كما أنك الحكيم الذي تضع الأمور مواضعها وتقدرها بقدرها. . .

قال تعالى: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَـٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَـٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾.

❁ ❁ ❁

اللغة

﴿يَرْغَبُ﴾: من رغب وأصل الرغبة السعة في الشيء ورغب فيه وإليه يقتضي الحرص عليه، وأما رغب عنه اقتضى صرف الرغبة عنه والزهد فيه.

﴿الْمِلَّةِ﴾: كالدين وهو اسم لما شرّع الله تعالى لعباده على لسان الأنبياء ليتوصلوا به إلى جوار الله، والفرق بينها وبين الدين أن الملة لا تضاف إلا إلى النبي.

﴿سَفِهَ نَفْسَهُ﴾: امتهنها واستخف بها وأصل السفه الخفة ومنه زمام سفيه أي خفيف...

﴿اصْطَفَيْنَاهُ﴾: أصل الصفا خلوص الشيء من الشوب ومنه الصفا للحجارة الصافية والاصطفاء تناول صفو الشيء، واصطفاء الله بعض عباده قد يكون بإيجاده إياه تعالى صافياً عن الشوب الموجود في غيره وقد يكون باختياره وبحكمه.

﴿وَوَصَّىٰ﴾: الوصية التقدّم إلى الغير بما يعمل به مقترناً بوعظ من قولهم: أرض واصية أي متصلة النبات.

﴿بَنِيهِ﴾: مفرده ابن وسمي بذلك لكونه بناء للأب فإن الأب هو الذي بناه وجعله الله بناء في إيجاده.

﴿يَعْقُوبَ﴾: هو إسرائيل بن إسحاق بن إبراهيم.

﴿اصْطَفَىٰ﴾: اختار، وصفوة كل شيء خياره وأفضله.

التفسير

كان اليهود والنصارى والمشركون كل واحد يدّعي أنه موصول العرى بإبراهيم وعلى سيرته وطريقته في الدين والعقيدة، ولكن هذه الدعوى كانت تتنافى والحقيقة التي يعيشونها من حيث تنكّرهم لما جاء به النبي محمد ﷺ وهو الصادق بما حمل من معجزات وقدّم من أدلة وبراهين على صدق رسالته التي تضمنت أصول العقيدة التوحيدية الإبراهيمية كما جاءت على لسان إبراهيم بزيادة احتياجات الأمة الطارئة كأمة خاتمة... فالنبي محمد ﷺ وريث إبراهيم وحامل رسالته الصحيحة السليمة من التحريف، وعلى كل العالم أن يندفع للإيمان به وبما جاء به ومن يرغب عن ذلك فقد ظلم نفسه وأذرى بها وعليها وخالف إبراهيم وملته وما دعى إليه، فلذا قال تعالى: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ﴾.

استفهام يراد به الإنكار والاستبعاد، وإنه ليس هناك من يعرض عن دين إبراهيم وطريقته إلا الإنسان المستخفّ بنفسه المهلك لها والمعرّض لها لأشد العذاب.

إن شريعة إبراهيم واضحة وطريقته لا غبار عليها تحمل معها أدلة صحتها وبراهين سلامتها، فمتى التفت إليها العاقل كان عليه أن يؤمن بها ويمشي خلف

مؤسسها، فإذا خالف إنسان تلك الملة فقد أوبق نفسه وأهلكها لأن مخالفة الحق مهلكة ومذلة ووراءها النار. . .

﴿وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا﴾ اخترناه من بين الخلق جميعاً لحمل الرسالة. . فهو خلاصة الناس الأطياب. . المصفى من كل عيب ومن كل شائبة أو قبيح. . .

﴿وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ تأكيداً على سعادة الآخرة أيضاً فإن الصالحين لهم جنات النعيم والفضل العميم ومن استجمع الاصطفاء في الدنيا وكان مع الصالحين في الآخرة حق للناس أن تتبعه وتسير خلفه ولا تتنكر له أو ترغب عن ملته. . .

﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾﴾ كأن هذا بيان لسبب الاصطفاء. . . وما أروع هذا الأمر وأشد بركته وما أحسن هذه الاستجابة الفورية التي لم تتأخر ولو لحظة واحدة. . واختلفوا في قوله ﴿أَسْلِمْ﴾ ما المراد بها: هل هو أصل الإسلام وأن إبراهيم بعد أن نظر في الأدلة والبراهين واطمأن إلى صحتها قال له ربه ﴿أَسْلِمْ﴾ فقال: أسلمت. .

وإما أن بـ﴿أَسْلِمْ﴾ أثبت على التوحيد واستقم على الإسلام، أي فلتكن عقيدتك قوية وعملك مطابقاً لها.

وكم كان جواب إبراهيم في غاية الأدب حيث دسّ نفسه في جملة العبيد لله وجعل الله رباً للعالمين. . .

﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِۦمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ﴾ إنها وصية غالية من أب ينظر بعطف ورحمة إلى أبنائه. . . وصية ينظر من خلالها إلى مصلحتهم وما فيه سعادتهم وفوزهم في الدنيا والآخرة ولذا لا يبخل بها عليهم.

إنها الملة وإنه الدين يوصيهم إبراهيم أن يكونوا ملتزمين به معتقدين بكل أصوله وفروعه محافظين عليه داعين الناس إليه. . .

إنه ينظر إلى أبنائه ليكونوا فى خطه بعد أن أكمل هو صلاح نفسه. . .

أو يكون الضمير في ﴿بِهَآ﴾ إلى قول إبراهيم عندما قال له ربه ﴿أَسْلِمْ﴾ ﴿قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

ثم إن الظاهر من العطف في قوله: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ﴾ إن يعقوب معطوف على إبراهيم فتكون الوصية من إبراهيم لأبنائه، ونفس الوصية أيضاً من ﴿يَعْقُوبَ﴾ لأبنائه، ومنهم من قرأ ﴿يَعْقُوبَ﴾ بالنصب فيكون معطوفاً على ﴿بَنِيهِ﴾ المتقدم عليه فتكون الوصية واحدة من ﴿إِبْرَٰهِـۧمَ﴾ بنيه ونافلته ﴿يَعْقُوبَ﴾...

﴿يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ﴾ أعطاكم الدين واختاره لكم الذي هو صفوة الأديان وكلفكم الأخذ به والعمل بمقتضاه لأنه يحقق لكم السعادة في الدنيا والآخرة.

﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ احذروا أن تتركوا هذا الإسلام بل استمروا عليه وأثبتوا علي ما جاء به إيماناً وعملاً حتى إذا متم مسلمين، ولا تتركوه فربما أتاكم الموت وأنتم كذلك فتخسرون أنفسكم وتدخلون النار...

وبعبارة أخرى: هذه دعوة من إبراهيم لأبنائه أن يبقوا على الإسلام لئلا يخسروا الآخرة ونعيمها إن تركوه وماتوا كفار...

قال تعالى: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾﴾.

❁ ❁ ❁

اللغة

﴿شُهَدَآءَ﴾: مفرده شهيد أو شاهد وهو الحاضر.

﴿حَضَرَ﴾: الحضر خلاف البدو والحَضَارة والحِضَارة السكون بالحضر كالبِداوة والبَداوة ثم جعل ذلك اسماً لشهادة مكان أو إنسان أو غيره.

﴿تَعْبُدُونَ﴾: من عبد، والعبودية: إظهار التذلل، والعبادة أبلغ منها لأنها غاية التذلل ولا يستحقها إلا من له غاية الإفضال وهو الله...

التفسير

لما ادّعى اليهود والمشركون أنهم على سيرة الأنبياء إبراهيم وإسماعيل ويعقوب وإسحاق، وأنهم بوصيتهم يعملون ردّ عليهم بالإنكار أن يكونوا كذلك.

﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ﴾ وهذا استفهام يراد به الإنكار وأنكم لم تكونوا حضوراً عندما احتضر يعقوب ودنى منه الموت. إنه لم يوص بما

تدّعون من أنه أمركم بالتمسك باليهودية أو غيرها بل عندما حضره الموت تذكروا ﴿إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي﴾ أي شيء تعبدونه بعد وفاتي وعبّر ﴿بِمَآ﴾ التي هي لغير العاقل لأن الناس كانت تعبد الأصنام والشمس والقمر وغيرها أو لأنه أراد أن يختبرهم كما قال بعضهم، وعلى كل حال سألهم عن معبودهم الذي يتوجهون إليه بعد انتقاله من الدنيا ـ بالموت ـ إلى الآخرة وهذا السؤال منه ليطمئن عليهم ويرتاح إليهم وإلى عقيدتهم بعد رحيله عن دار الدنيا. . .

وأجابوه بما يُطمئن قلبه ويحفظ خطه الإيماني ﴿قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾.

إننا نعبد إلهك الذي أنت تعبده وتتوجه إليه، وهو نفسه إله آبائك لن نتخلف عن عبادته أو نختلف فيه، إنه إله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إنه نفسه بدون تغير أو تبديل، ولكي يؤكدوا هذا الأمر ويريحوا نفسه من كل شك حددوا صفات هذا الإلٰه، إلٰهاً واحداً في ذاته وفي صفاته لا شريك له ونحن له مسلمون خاضعون مستسلمون، والغرض أننا سنبقى على عقيدة التوحيد التي أنت عليها كما كان آباؤك عليها. . .

قوله تعالى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾﴾.

اللغة

﴿أُمَّةٌ﴾: الأمة: كل جماعة يجمعهم أمر ما إما دين واحد أو زمان واحد أو مكان واحد سواء كان ذلك الأمر الجامع تسخيراً أو اختياراً وجمعها أمم.

﴿خَلَتْ﴾: مضت وانقرضت وأصله الانفراد تقول خلا الرجل بنفسه إذا انفرد.

﴿كَسَبَتْ﴾: الكسب: ما يتحراه الإنسان مما فيه اجتلاب نفع وتحصيل حظ ككسب المال، وقد ورد في القرآن في فعل الصالحات والسيئات، وهناك من فرّق بين كسب واكتسب فالأول بالصالح والثاني بالسيء وقيل الأول كسب للآخرة والثاني كسب للدنيا وقيل غير ذلك.

التفسير

بعد أن قصّ أخبار إبراهيم والصالحين من نبيه، نبّه الحاضرين إلى عدم الاعتماد على صلاح الماضين بل عليهم سيئات ما يعملون كما أن لهم حسنات ما يعملون..

﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ﴾ أي إبراهيم والأنبياء من بعده جماعة قد مضت وانتهى دورها ولم يبق إلا ما تركته من تراث ودين وعمل صالح... لها ما عملت من عمل صالح وإليها يعود أجره وثوابه ولن تنالوا منه شيئاً، لأن قواعد العدل تقتضي أن كل عامل يعود إليه نتيجة عمله.

إن ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾ ما عملت من عمل صالح أو غير صالح.

﴿وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ﴾ فأجر عملكم وثوابه لكم ووزره وإثمه عليكم لا تتحملون عنهم شيئاً كما لا يتحملون عنكم شيئاً.

﴿وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

لا يسألكم الله عن أعمال غيركم بل يسألكم عن أعمالكم... فمن مضى وقضى يُسأل هو عن عمله يوم القيامة ويوقفه الله للحساب وحده، أما أنتم فلا يسألكم الله عن شيء من أعمالهم ولا ما اكتسبت أيديهم. وهذا إلفات نظر لهم وتنبيه أن يعتمدوا على أنفسهم ويقوموا بما فيه خيرهم وصلاحهم ولا يتكلوا على من تقدم من الصالحين فيهملوا العمل اعتماداً على ذلك.

قال تعالى: ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾﴾.

❁ ❁ ❁

اللغة

﴿هُودًا﴾: من الهود وهو الرجوع برفق، وصار الهود في التعارف التوبة، وهاد فلان إذا تحرى طريقة اليهود في الدين، وهوداً هنا يراد به يهوداً.

﴿النَّصَارَىٰ﴾: أتباع عيسى سموا بذلك أما لقول عيسى ﴿مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾ وأما انتساباً إلى قرية يقال لها «نصران» أو لقرية تسمى «ناصرة» في فلسطين.

﴿الْمِلَّةِ﴾: كالدين وهو اسم لما شرّع الله تعالى لعباده على لسان الأنبياء ليتوصلوا به إلى جوار الله، والفرق بينها وبين الدين أن الملة لا تضاف إلا إلى النبي.

﴿حَنِيفًا﴾: الحنيف: هو المائل إلى الاستقامة، وجمعه: حنفاء، وتحنّف فلان أي تحرّى طريق الاستقامة، وسمّت العرب كل من حج أو اختتن حنيفاً تنبهاً إنه على دين إبراهيم والأحنف من في رجل ميل، قيل سمي بذلك تفاؤلاً.

التفسير

اختلف اليهود والنصارى وكل يدّعي أنه على الحق وعلى الناس أن يتبعوهم إذا أرادوا الهداية والوصول إلى الجنة وبلوغ رضا الله.

والله سبحانه ينقل كلامهم هنا ودعواتهم ثم يرد عليهم ببيان الدين الصحيح والطريق السليم ﴿وَقَالُوا﴾ اليهود ﴿كُونُوا هُودًا﴾ تحولوا إلى اليهودية كما قال النصارى.

﴿أَوْ نَصَارَىٰ﴾ أي كونوا نصارى على دين المسيح ﴿تَهْتَدُوا﴾ فأولئك يّدعون أن الهدى في اتباع اليهودية وهؤلاء يدعون أن الهدى في اتباع المسيحية ولذا كل فريق يدعو الناس إلى اتباع ما هو عليه، ولكن الله يعرف بطلان هذه الدعوى وزيفها ولذا يلقّن نبيه الرد.

﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ أي إن الدين الصحيح والطريقة السليمة ما عليه إبراهيم من الاستقامة دون الانحرافات التي يعيشها اليهود والنصارى وهذا بيان واضح أن ما عليه النبي هو ما كان عليه إبراهيم وأنه الوريث الشرعي لكل ما جاء به هذا النبي العظيم، وأما ما عند اليهود والنصارى طرأ عليه التحريف والتزييف وأدخلوا فيه الأباطيل والسخافات...

ثم بيّن سبحانه أن إبراهيم سيد الموحدين بقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ أي كان موحداً لله لم يشرك به أحداً، وهذا تعريض باليهود والنصارى وأنهم على الشرك والضلال ولا يتصلون بإبراهيم وبما جاء به أو ما كان عليه...

قـال تـعـالـى: ﴿قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾﴾.

❁ ❁ ❁

اللغة

﴿وَٱلْأَسْبَاطِ﴾: جمع سبط وأصله انبساط في سهولة، يقال: شعر سبط، والسبط: ولد الولد ومنه قيل للحسن والحسين سبطا رسول الله والأسباط أولاد يعقوب بمنزلة القبائل في ولد إسماعيل. .

﴿أُوتِىَ﴾: من الإيتاء وهو الإعطاء.

﴿نُفَرِّقُ﴾: يقارب الفلق ولكن الفلق اعتباراً بالانشقاق والفرق يقال اعتباراً بالانفصال، وفرقت بين الشيئين: فصلت بينهما سواء كان ذلك بفصل يدركه البصر أو بفصل تدركه البصيرة، والتفريق أصله للتكثير، يقال: ذلك في تشتيت الشمل والكلمة.

﴿تَوَلَّوْا۟﴾: أعرضوا.

﴿شِقَاقٍ﴾: الشقاق: المخالفة والعداوة وأصله من الشق وهو الجانب أي صار هذا في شق وذاك في شق آخر.

﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ﴾: من الكفاية بمعنى الوقاية.

التفسير

هذا هو الإسلام ـ الدين ـ الذي يجب أن يسود قلوب الناس وأفكارهم ويحكم سلوكهم وثقافتهم... إنه الدين الذي يأمر أتباعه أن يؤمنوا بوحدة الرسل وبوحدة ما جاءوا به وهدفوا إليه...

﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ فهذا الأساس لكل شيء ومنه المبدأ وهو المنطلق لكل حركة... الإيمان بالله يجب أن يذهب إليه كل الناس ومنه ينطلق الإيمان بكل الرسل والأنبياء.

﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾ من القرآن وهو وحي السماء ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ﴾ أي بعض من كان فيهم من الأنبياء.

﴿وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ﴾ خصهما بالذكر لأن الخطاب احتجاج على اليهود والنصارى الذي يكتفي كل فريق بما عنده ويكفر بما عند الآخرين ﴿وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ﴾ وبشكل عام وكقاعدة عامة فالمسلم يؤمن بكل ما جاء به النبيون من عند ربهم، عرف هؤلاء الأنبياء بأشخاصهم وأعيانهم أم كانوا غائبين عنه ولم يتشرف برؤيتهم فيكفي الخبر عن العيان ويكفي الإيمان بهم بشكل عام عن تتبع الأفراد والأشخاص...

﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ إيماننا بالجميع واحد وليس كما هي طريقة اليهود والنصارى الذين يؤمنون ببعض الأنبياء ويكفرون ببعض آخر.

ونحن لله منقادون ولأمره مطيعون لن نخرج عن إرادته وحكمه...

ثم بعد أن قعّد هذه القاعدة المتينة للإيمان وجعلها الميزان للهدى قال سبحانه ﴿فَإِنْ ءَامَنُواْ﴾ اليهود والنصارى ﴿بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَواْ﴾ فإن آمنوا بنفس ما آمنتم به فقد اهتدوا إلى الاستقامة وبلوغ الجنة، وقيل: إن حصّلوا ديناً مثل

دينكم وآمنوا به فقد اهتدوا وهذا من باب التبكيت لأن الحق واحد ينحصر فيما أنتم عليه ولن يجدوا ديناً آخر أبداً يوصلهم إلى الهدى. . .

﴿وَّإِن تَوَلَّوْا﴾ وإن أعرضوا عما أنتم عليه من الهدى ولم يؤمنوا به أو يلتفتوا إليه.

﴿فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ﴾ إذا أعرضوا عن الحق ورفضوا قبوله فهم أعداء مناوئون ينصبون لكم العداوة ويتحينون الفرص منكم للانقضاض عليكم ولذا طمأن الله رسوله وتكفل له بحمايته وأنه الكافي له من شرهم، فقال تعالى:

﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ وهذا إخبار من الله أنه سبحانه هو الذي سيتولى حماية الرسول ﷺ والدفاع عنه بحيث لن يصل منهم إليه أذى، وقد تحقق ذلك ووقع مضمونه فلم يقدر اليهود ولا النصارى من النيل من النبي ﷺ بل كانت الدائرة تدور عليهم حتى بلغ الأمر أن أدوا الجزية عن يد وهم صاغرون، وقوله سبحانه: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ أي السميع لأقوالهم وما يخططون ويرسمون والعليم بكل حركاتهم وما يصدر منهم وإذا تم ذلك لله مع كمال قدرته حصلت كفايته لعبده محمد وكان له السلطان الكامل عليهم والأخذ لهم متى شاء وكيف شاء وأنى شاء. . .

قال تعالى: ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾﴾.

❁ ❁ ❁

اللغة

﴿الصبغة﴾: ما يلوّن به الثياب وأصله المزج للتلوين، والمقصود بالصبغة هنا دين الله وفطرته التي فطر الناس عليها.

التفسير

بعد أن تقدم أن اليهود والنصارى كل منهما يدعي أنه على الحق وأن الحق إلى جانبه فيقول اليهودي: اليهودية هي الدين المنزل، ويقول النصراني: النصرانية هي الدين المنزل، فإن الله هنا يكذبهم ويرفض مقولتهم، ويقول:

﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ﴾ دين الله هو الدين الصحيح لأنه من صنع الله ويظهر أثره في تفكير الإنسان وسلوكه وحركته.

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً﴾ أي ليس هناك حُسن في غير دين الله وتشريعه، وعليه لا بد من اتباع هذا الدين لبطلان ما عداه ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ﴾ أي نحن نعبده وحده ولا نعبد سواه، لأنه المستحق للعبادة لكونه المشرّع لهذا الدين وواضعه على أحسن ما يكون..

قال تعالى: ﴿قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِي ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ﴿١٣٩﴾ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾﴾.

❁ ❁ ❁

اللغة

﴿أَتُحَآجُّونَنَا﴾: أتجادلوننا من المحاجة وهي المجادلة.

﴿أَعْمَٰلُنَا﴾: من العمل وهو كل فعل يكون بقصد فهو أخص من الفعل لأن الفعل قد ينسب إلى الحيوان بغير قصد وقد ينسب إلى الجمادات.

﴿مُخْلِصُونَ﴾: من الإخلاص، والخالص كالصافي إلا أن الخالص هو ما زال عنه شوبه بعد أن كان فيه؛ وحقيقة الإخلاص هو التبري عن كل ما دون الله تعالى قاصداً وجه الله وحده..

﴿وَٱلْأَسْبَاطَ﴾: جمع سبط، وأصله انبساط في سهولة يقال شعر سبط، والسبط ولد الولد ومنه قيل للحسن والحسين سبطا رسول الله والأسباط: أولاد يعقوب بمنزلة القبائل في ولد إسماعيل.

﴿هُودًا﴾: من الهود وهو الرجوع برفق وصار الهود في التعارف التوبة وهاد فلان إذا تحرى طريقة اليهود في الدين وهوداً هنا يراد به يهوداً.

﴿ٱلنَّصَٰرَىٰ﴾: أتباع المسيح عيسى بن مريم، سموا بذلك أما لقول عيسى ﴿مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ﴾ وأما انتساباً إلى قرية يقال لها «نصران» أو لقرية تسمى «ناصرة» في فلسطين.

﴿كَتَمَ﴾: الكتمان ستر الحديث.

﴿ٱلشَّهَٰدَةُۚ﴾: قول صادر عن علم حصل بمشاهدة بصيرة أو بصر وشهد بمعنى حضر..

﴿بِغَٰفِلٍ﴾: الغفلة سهو يعتري الإنسان من قلة التحفظ والتيقظ.

﴿أُمَّةٌ﴾: الأمة: كل جماعة يجمعهم أمر ما إما دين واحد أو زمان واحد أو مكان واحد سواء كان ذلك الأمر الجامع تسخيراً أو اختياراً وجمعها أمم.

﴿خَلَتْۖ﴾: مضت وانقرضت وأصله الانفراد.

﴿كَسَبَتْ﴾: الكسب ما يتحراه الإنسان مما فيه اجتلاب نفع وتحصيل حظ ككسب المال، وقد ورد في القرآن في فعل الصالحات والسيئات وهناك من فرّق بين كسب واكتسب فالأول بالصالح والثاني بالسيء وقيل الأول كسب الآخرة والثاني كسب الدنيا وقيل غير ذلك.

﴿وَلَا تُسْـَٔلُونَ﴾: لا تطالبون، والسؤال الطلب.

التفسير

ذهب اليهود والنصارى إلى احتكار الله واحتكار أنبيائه وكأنه لم يخلق غيرهم أو ليس له علاقة بسواهم، وبذلك المنظور الظالم اعتدوا على الله وعلى أنبيائه وعلى خلقه.

أما اعتداءهم على الله فيتمثل بما ذهبوا إليه من أن الله لهم بالخصوص وأنهم أحباؤه بل أبناؤه وأما غيرهم من الناس فلا تربطهم علاقة بالله وليس لهم به صلة.

أما اعتداؤهم على أنبيائه فيتمثل في رفضهم لكل نبي لم يكن منهم، وبذلك رفض اليهود «عيسى» ورفض النصارى «محمداً»...

وأما اعتداؤهم على خلق الله فيتمثل بنظرتهم إلى حرمانهم من الصلة بالله وبالتالي ضلالهم وحرمانهم من الجنة وما فيها من ثواب وأجر ونعيم...

وقد تقدم أن اليهود زعموا أن الهداية في يهوديتهم ودينهم، وذهب النصارى إلى أن النصرانية هي دين الله وبذلك دعوا المسلمين إلى اتباع دينهم ليهتدوا، وردَّ الله عليهم وبيّن كذب هذه الدعوة وهنا في هذه الآيات يتعرض الله إلى فرية ادعاها هؤلاء القوم حينما أخذوا يخاصمون المسلمين ويدّعون أنهم أحق بالأنبياء ولو أن الله أراد أن يرسل رسولاً لوجب أن يكون منهم لأنهم المؤهلون لذلك من حيث قربهم من الله ومن حيث أن الأنبياء كانوا منهم فيجب أن تطرد هذه القاعدة ولكنّ الله علّم نبيه كيف يواجههم بقوله:

﴿قل﴾ يا محمد لهؤلاء اليهود والنصارى وغيرهم ﴿أَتُحَآجُّونَنَا فِي ٱللَّهِ﴾ في دين الله وإنه محتكر لكم ولا يجوز أن يبعث الله من غيركم نبياً ﴿وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾ فنحن وأنتم أمام الله سواء كلنا عبيده وهو رب الجميع فلماذا يميّزكم عنا ويختصكم دون بقية خلقه، ففي قواعد المنطق والعدل والعقل والإنصاف إذا تساوى الخلق أمام الله في أصل التكوين وفي كل تكليف فهو سبحانه الذي يختار من بين خلقه رسلاً وأنبياء تكون فيهم القابلية لتلقي الوحي وأخبار السماء دون اختصاص لأحد بما يراه من نفسه أو بما ينتمي إليه من ملة أو أمة أو قبيلة أو فئة أو جهة...

فالله له الحق أن يختار أنبياءه منكم كما يحق له أن يختارهم من غيركم، لأن الناس كلهم أمامه سواء لا يتفاوتون إلا بنفوسهم وقابليتهم وطاعتهم له وله الخيرة في أمره والله أعلم حيث يجعل رسالته...

﴿وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ﴾ سفّه اليهود والنصارى أعمال المسلمين بينما صحّحوا أعمال أنفسهم فردّ الله عليهم بتعليم المسلمين بأن أعمالكم لكم وثوابها وعقابهم يعود عليكم كما أن أعمالنا لنا وثوابها وعقابها علينا فإذا كان الأمر كذلك فالواقع المتصل بالله هو الذي يحكم هذه الأعمال ويرتّب الأثر عليها إيجاباً وسلباً، ثواباً وعقاباً، ولكن نحن لله مخلصون وهذا اعتراف بإخلاص المسلمين لله وأنهم المتوجهون إليه لا إلى غيره كما أن فيه طعن في إخلاص اليهود وتشكيك في صحة أعمالهم... ثم إنه سبحانه لقن نبيه أيضاً حجة أخرى في إبطال ما ادعوه ونسبوه إلى أنبيائهم من أنهم كانوا يهوداً أو نصارى، فقال:

﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾ هذا استفهام يراد به التوبيخ لهم والإنكار عليهم فكأنه سبحانه قال لهم: بأي الحجتين احتججتم علينا فكلاهما باطل فتكون ﴿أَمْ﴾ هنا معادلة للهمزة في ﴿أَتُحَآجُّونَنَا﴾ المتقدمة.

وعلى كل حال إن قولكم أن هؤلاء الأنبياء كانوا هوداً أو نصارى قول باطل وساقط عن الاعتبار لأن الله شهد لهم بالإسلام بعيداً عما ادعيتم فقد، قال سبحانه: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا﴾ وسيرة غيره تبعاً لسيرته وكلهم يدّعون أن أنبياءهم يعودون إليه ويرجعون إلى ما كان عليه، ولذا قال تعالى: ﴿قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ﴾ فأنتم تدعون ما تدّعون والله يقول غيره ـ وقوله الحق لا شك فيه ـ فكيف تكونون صادقين مع مخالفتكم لله، فالله يقول إن إبراهيم والأنبياء بعده كانوا مسلمين فتسقط دعواكم إنهم كانوا هوداً أو نصارى.

ثم عقّب ذلك بقوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

هذا تهديد لهم من حيث أن الله ائتمنهم على كتب السماء التي بيّن فيها دين إبراهيم والأنبياء بعده وأنهم حنفاء مسلمون وليسوا يهوداً أو نصارى فكتمها

هؤلاء، فلم يكن هناك أحد أظلم منهم من الناس بل بلغوا منتهى الظلم حينما كتموا صفات النبي محمد ﷺ التي وردت في كتبهم وبشر بها الأنبياء والرسل. . .

ثم زيادة في التهديد، قال تعالى: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ فكل حركاتكم وأفعالكم يعلمها الله ويحصيها، لا تغيب عنه ولا يغفل عنها وسيجازيكم عليها فيعذبكم عما أنكرتم من حقائق وطمستم من وقائع. . .

ثم بعد هذا أراد أن يقطع صلتهم بآبائهم من الأنبياء، وأن الآباء إذا كانوا على أي صفة من الخير فلا يلحقهم منها أثر أو خبر طالما أنهم يعيشون الفساد والانحراف والبعد عن الله. . . ﴿تِلۡكَ أُمَّةٞ قَدۡ خَلَتۡۖ﴾ أي أن الآباء قد انتهت أيامهم ومضى زمانهم.

﴿لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَلَكُم مَّا كَسَبۡتُمۡۖ﴾ فنتيجة أعمالهم لهم ونتيجة أعمالكم لكم وكل واحد يؤخذ بعمله ويحاسب عليه ولا يؤخذ أحد بجريرة أحد كما لا يعطى أحد ثواب أحد.

﴿وَلَا تُسۡـَٔلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ لا تحاسبون عنهم ولا تؤاخذون بأفعالهم بل إن عملوا خيراً عاد إليهم وإن عملوا شراً عاد إليهم، وكما قال تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۚ﴾ [الأنعام: ١٦٤].

قال تعالى: ﴿۞ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾﴾.

۞ ۞ ۞

اللغة

﴿ٱلسُّفَهَآءُ﴾: جمع سفيه، وأصل السفه في كلام العرب الخفة والرقة يقال ثوب سفيه إذا كان رديء النسج خفيفه، أو كان بالياً رقيقاً ويستعمل في الجاهل الضعيف الرأي القليل المعرفة بمواضع المصالح والمضار.

﴿مَا وَلَّىٰهُمْ﴾: ولاه عنه إذا صرفه عنه وولى إليه إذا اتجه إليه وأقبل عليه، وبعبارة أخرى إذا عدي الفعل «تولى» بنفسه اقتضى معنى الولاية وحصوله في أقرب المواضع منه، يقال وليت سمعي ووليت عيني كذا ووليت وجهي كذا أقبلت به عليه وأما إذا عُديّ بعن لفظاً أو تقديراً اقتضى معنى الإعراض والترك.

﴿ٱلْقِبْلَةَ﴾: مثل الجلسة للحال التي يقابل الشيء غيره عليها وأصبحت علماً على الجهة التي تستقبل في الصلاة وهي بيت الله الحرام...

﴿ٱلْمَشْرِقُ﴾: اسم لموضع الشروق، وشرقت الشمس شروقاً: طلعت وأشرقت وأضاءت.

﴿ٱلْمَغْرِبُ﴾: اسم لموضع الغروب وغربت الشمس إذا غابت..

﴿ٱلصِّرَٰطَ﴾: والسراط الطريق المستسهل أصله من سرطت الطعام، وزردته: ابتلعته، فقيل: سراط تصوراً أنه يبتلعه سالكه أو يبتلع سالكه.

﴿ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾: الاستقامة يقال في الطريق الذي يكون على خطٍ مستوٍ وبه شبّه طريق المحقّ، واستقامة الإنسان لزومه المنهج المستقيم.

التفسير

هذه الآية تستعرض موقف اليهود والنصارى ومشركي العرب من تغيير القبلة وكيف واجهوا هذا الحدث وماذا قالوا فيه عندما وصلهم النبأ واستمعوا إليه؟.. ثم كيف كان الرد الإلهي وكيف علّم نبيه أن يواجههم وماذا يقول لهم؟..

﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ سيقول أصحاب العقول الخفيفة الذين لم يدرسوا القضايا على حقيقتها ويقفوا أمامها ليعرفوها من جميع جوانبها... إنهم الذين لم يبلغوا الرشد في تفكيرهم ولم يصلوا إلى منطق العقلاء في اتخاذ القرارات الصائبة في تحديد المصالح والمضار... إنهم اليهود والنصارى والمشركين من العرب سينطلقون بصوت واحد ويفرغون عن لسان واحد ﴿مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُوا۟ عَلَيْهَا﴾ استفهام يتضمن التعجب والاستهزاء عن الأسباب الداعية للنبي والمسلمين أن يتركوا التوجه إلى بيت المقدس وينصرفوا عنه إلى الكعبة المشرفة.

إنهم يسألون عن أسرار هذا التغيير في التوجه من بيت المقدس إلى الكعبة ويردّ الله معلّماً نبيّه الجواب: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ﴾ قل لهم يا محمد! الأماكن كلها لله هو خلقها وهي مملوكة له لا تخرج عن إرادته ولا تأخذ قدسيتها إلا منه.. المشرق لله والمغرب لله وما بينهما لله هو الذي يوجّه الناس إلى هذه الجهة فتتقدس بهذا التوجّه وهو الذي يوجههم إلى تلك الجهة فتتقدس تلك الجهة وهكذا دواليك؛ بمجرد أن ينسبها الله إليه أو يأمر بها تأخذ القدسية وتصبح مباركة... وهو سبحانه الذي أمر أولاً بالتوجه إلى بيت المقدس وهو الذي رفع هذا الأمر ونسخه بالتوجه إلى مكة ثانياً والله سبحانه ليس له مكان يستقر فيه حتى

تبقى الأماكن مقدسة بوجوده تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً فهو الله الذي لا يحده زمان ولا مكان، كان ولم يكن ثمة زمان أو مكان. . . إنه يعلم ما تقتضيه الحكمة وتحكمه المصلحة. ثم عقب ذلك بقوله: ﴿يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ إنه بمقتضى حكمته وبحسب المصالح للعباد يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم فقد اختار لكم التوجه إلى الكعبة الموصل إلى رضا الله الموصل إلى الجنة. . .

فوائد

١ ـ توجّه النبي ﷺ والمسلمون وهم بمكة إلى بيت المقدس واستمروا على ذلك إلى ما بعد الهجرة على خلاف في هذه المدة والأرجح أنها بعد الهجرة بسبعة عشر شهراً، ثم حوّله الله إلى الكعبة.

٢ ـ كانت المعركة ـ عندما كان النبي ﷺ في مكة ـ بينه وبين الوثنيين من قريش وغيرها، وكان التوجه في الصلاة إلى بيت المقدس فرض واجب لتتميز هذه الأمة عن غيرها ممن يحيط بها، وبعد الهجرة كان اليهود يعيبون المسلمين ويقولون إنهم لنا تبع في القبلة وسيتبعوننا في الدين وكان هذا يؤذي النبي ﷺ ويؤلمه فيتوجه إلى الله أن يجعل له وللمسلمين فرجاً مما هم فيه فاستجاب الله نبيه لمّا علم منه حُبَّ الاستقلال عن اليهود فوجّهه الله نحو الكعبة. . .

٣ ـ إن هذه الآية أول دليل على جواز النسخ، فإن القبلة كانت إلى بيت المقدس فنسخت بالتوجه إلى الكعبة.

قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾﴾.

❁ ❁ ❁

اللغة

﴿أُمَّةً﴾: الأمة كل جماعة يجمعهم أمر ما إما دين واحد أو زمان واحد أو مكان واحد سواء كان ذلك الأمر الجامع تسخيراً أو اختياراً وجمعها أمم..

﴿وَسَطًا﴾: عدلاً، وقيل الخيار إما مأخوذ من المكان الذي تعدل المسافة منه إلى أطرافه أو من التوسط بين المقصر والمغالي...

﴿شُهَدَآءَ﴾: جمع شهيد أو شاهد وهو الحاضر.

﴿ٱلْقِبْلَةَ﴾: مثل الجلسة للحال التي يقابل الشيء غيره عليها، وأصبحت علماً على الجهة التي تستقبل في الصلاة وهي بيت الله الحرام.

﴿يَتَّبِعُ﴾: يقال: تَبعه وأتبعه، قفا أثره، ويقال: اتبعه إذا لحقه...

﴿يَنقَلِبُ﴾: من قَلَبَ وقلْبُ الشيء: تصريفه وصرفه عن وجه إلى وجه كقلب الثوب، والانقلاب: الانصراف.

﴿عَقِبَيْهِ﴾: تثنية عقب وهو مؤخر القدم ورجع على عقبه رجع إلى الشر بعد الخير.

﴿كَبِيرَةً﴾: شاقة وثقيلة.

﴿لِيُضِيعَ﴾: من ضاع إذا فقد وهلك وصار مهملاً.

﴿رَءُوفٌ﴾: الرأفة: شدة الرحمة.

التفسير

كرّم الله هذه الأمة بأن هداها للإيمان وأطلق عليها اسم ﴿«الأمة الوسط»﴾.

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ فكما هديناكم إلى الحق جعلناكم أمة وسطاً بعيدين عن الإفراط وعن التفريط فأنتم أمة تعيشون الروح والجسد وتعطون لكل واحد منهما حقوقه.. ففي حين تعملون للجسد تعملون للروح وفي حين تعملون للدنيا تعملون للآخرة... إنكم تجمعون بينهما ولا تهتمون بواحدة دون الأخرى لم يكن العمل لواحدة على حساب الأخرى...

ومن هنا أنتم تعيشون الرقابة على الآخرين... تعيشون كشهداء على كل انحراف يجري سواء كان في ناحية الإفراط أم في ناحية التفريط...

﴿لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ أنتم تشرفون على كل الأمم التي تعيش معكم وتتحرك في واقع الحياة... أنتم الأمناء الذين تراقبون سائر الناس من جميع الملل فتصحّحون مسيرتهم وتشهدون عليهم إن أبوا الهداية ورفضوا الرجوع إلى الحق... أنتم تقومون بتبليغ الرسالة وتبيّنون مواقع الانحراف عند الآخرين ثم تشهدون عليهم أمام الله يوم يقوم الناس لتأدية حساباتهم وتحصيل ثمرة أعمالهم...

ثم إذا أنتم كنتم شهداء على الناس فهناك رقابة فوقكم سوف تشهد عليكم إذا قصّرتم في التبليغ أو تهاونتم في أداء الواجب عليكم، إنه الرسول ﴿وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ

﴿عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ فالنبي صلوات الله عليه يشرف عليكم ويرى أعمالكم... إنه سيشهد على كل سقوط منكم أو انحراف.. سيشهد عليكم وهو الصادق في شهادته.. بهذه الشهادة يثبت الواقع ويحكم بها عليكم أو لكم... إنها دعوة إلى الحذر من شهادة الرسول والعمل من أجل أن تكون شهادته لصالحنا وليست علينا...

ومن هذا التسلسل تحفظ هذه الأمة ﴿الوسطا﴾ مواقعها كافة شاهدة على الأمم، كذلك تحفظ مواقعها كافة حيث يكون الرسول عليها شهيداً فتحفظه في شهادته لها...

ثم إنه سبحانه بيّن سبب وعلة تحويل المسلمين عن القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة، فقال:

﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيْهَآ﴾ ما شرّعنا ولا أوجبنا القبلة إلى بيت المقدس والعدول عنها إلى الكعبة ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ فهذا التحويل من بيت المقدس إلى الكعبة ما هو إلا امتحان واختبار من أجل أن تنكشف نوايا الصادقين من الكاذبين، فيُعرف في هذا الامتحان من يقتدي بالنبي ﷺ ويطيعه ويقتفي أثره ويثبت على الإيمان ومن ذاك الذي يتمرد على أمره ويعصيه ويرتد إلى الكفر بعد الإيمان...

إنه امتحان تظهر فيه حقائق الإيمان فمن كان صادقاً في إيمانه يطيع الرسول ويلتزم أمره ويعمل بما يريد، ومن كان كاذباً في إيمانه يعصي ويتمرد ويرفض الأمر... امتحان صعب يتعرض له أصحاب النبي ﷺ، ولكنه امتحان يصقل هذه النفوس ويصفّيها ويطهّرها من الأنانية ويجليها من كل الشكوك والأوهام ويميّز الصادقين في إيمانهم من الكاذبين فيه...

امتحان لا بد منه من أجل بناء الرجال ووضعهم في مواقعهم الصحيحة.. امتحان يصفي الأصيل من الدخيل ويهيء أصحاب الإيمان لحمل رسالة الإسلام والتضحية من أجلها وفداء النفوس من أجل بقائها...

ثم يصف الله هذا الامتحان ـ التحويل من بيت المقدس إلى الكعبة ـ ويقدّر صعوبته على النفوس فيقول سبحانه: ﴿وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ﴾ فهذا التحويل شاق وصعب لأنه خلاف هوى النفوس وما تحب وترغب، ولكنّ المؤمنين الذين يهمهم طاعة الله وتنفيذ أمره يطوون هذه المشقة بسهولة ويسر ويرون من منطلق إيمانهم صحة كل أمر إلْهي يأتي به النبي...

امتحان صعب إلا على النفوس الصادقة في إيمانها الملتزمة بأمر الله الذي يكون كل همها طاعته وما جاء به أنبياؤه...

ثم يعطي الله قاعدة عامة وكبرى كلية صادقة في كل مراحلها وعلى كل مصاديقها.

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ﴾.

فمن أطاع الله والتزم أمره فالله يعطيه ثواب هذه الطاعة وهذا الالتزام سواء كان التوجه نحو الكعبة أو نحو بيت المقدس فطالما أن الله أمر فعليه يقع الأجر والثواب، وهو المتكفل أن ﴿لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾ [آل عمران: ١٩٥]...

فمن مات أثناء التوجه إلى بيت المقدس أو من صلّى إليها فالله يحفظ له أجره وثوابه ولا تذهب أعماله باطلة...

﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

كأنه تعليل للحكم فالله من عظيم رحمته أنه لا يضيع أعمالكم الصالحة التي كانت وفق الأمر الإلهي في أي فترة وقعت أو إلى أي جهة كانت...

فوائد

١ ـ اختلفوا في المراد من قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ في مطلع الآية وأنه على أي شيء معطوف.

منها: أنه معطوف على معنى يهدي فيكون المعنى كما أنعمنا عليكم بالهداية أنعمنا عليكم أن جعلناكم ﴿أُمَّةً وَسَطًا﴾.

ومنها: أنه معطوف على ما تقدم في حق إبراهيم عليه السلام ﴿وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِي ٱلدُّنْيَا﴾ أي فكما اصطفيناه في الدنيا كذلك جعلناكم ﴿أُمَّةً وَسَطًا﴾.

٢ - واختلفوا أيضاً في المراد من قوله تعالى: ﴿أُمَّةً وَسَطًا﴾.

قالوا: إن الوسط هو العدل وعليه حكموا بعدالة الأمة، ويبطله أن الأمة مكونة من أفراد وقطعاً لا يحمل هذا على العموم للقطع بعدم عدالة الكثير منها، وإذا حمل على البعض فالمتعين به أهل البيت عليهم السلام كما جاء بذلك الخبر...

وقالوا: إن الوسط هنا يراد به الخيار من كل شيء فالنبي أوسط بني هاشم أي خيرهم وأفضلهم...

وقالوا: إن الوسط مأخوذ من المكان الذي تتساوى بالنسبة إليه بقية النقاط والجهات.

٣ - لا شك أنه إذا أريد بالوسط العدل فلا يمكن أن تشمل جميع أفراد الأمة للعلم البديهي بعدم صدق ذلك وفسق الكثيرين، ومن هنا تحمل على بعضهم وفي هذا المقام تتناسب مع ما ورد من الأحاديث أن المراد بهم أئمة أهل البيت وهذا قدر متيقن لا يماري فيه إلا جاحد لحق أو مدلٍ بباطل...

قال تعالى: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ (١٤٤)﴾.

اللغة

﴿نَرَىٰ﴾: الرؤية: هي إدراك الشيء بالبصر وتأتي بمعنى العلم.

﴿تَقَلُّبَ﴾: التقلّب: التصرف والتحول وقلّب وجهه في السماء إذا أداره وحركه في جهاتها.

﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً﴾: فلنوجهنك جهتها.

﴿تَرْضَاهَا﴾: تحبها.

﴿شَطْرَ﴾: شطر الشيء نصفه، والشطر: الناحية والجهة، وهذا المعنى هو المقصود هنا.

﴿الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾: هو المكان المحيط بالكعبة الشريفة.

﴿أُوتُوا﴾: أعطوا.

﴿بِغَافِلٍ﴾: الغفلة: سهو يعتري الإنسان من قلة التحفظ والتيقظ.

التفسير

يضيق النبي ذرعاً بأقوال اليهود الذين راحوا يقولون أنه تابع لهم ويصلي إلى قبلتهم ومن هذه المقولة يدخلون إلى التشكيك في نبوة النبي ﷺ وتنطلي الحيلة على بعض البسطاء فيشعر النبي ﷺ بالغبن الفادح ويتمنى لو أن الله أبدله قبلة أحبُّ إليه من قبلتهم وبدون أن ينطق النبي بهذه الأمنية أو مع دعائه لله أن يوجهه إلى قبلة يحبها، يروح يقلب وجهه في السماء ينتظر منها أن تأتيه بهذه الأمنية...

كان النبي ﷺ يحرّك وجهه نحو السماء لأنها مكان البركة والشرف ومنها تهبط الملائكة وينزل الوحي ومنها ينزل حامل الكلام الإلهي جبرائيل... إنه يحرك وجهه وينقلّه في جهات السماء وأنحائها، ينتظر تحقيق هذه الأمنية بتعيين القبلة الجديدة التي تُفرِده عن اليهود وتميزه عنهم وتجعله مستقلاً فيقطع اتهاماتهم ويبطل شكوكهم وادعاءاتهم.

إنها حالة يعيشها النبي ﷺ ولكنها بمرأى من الله الذي يرعاه ويحفظ عليه حركاته... إنها صورة الحبيب الذي لم يغب عن ساحة الحضرة الإلٰهية لحظة، فلذا يحكي الله واقع ما يعانيه النبي ويحكي حركته إشعاراً له بمدى رعايته له واهتمامه به...

﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ إن حركاتك بأعيننا لم تغب عنا... نرى تقلب وجهك وحركاتك نحو السماء منتظراً الأمر الإلٰهي... إننا نراك جيداً نحصي عليك حركاتك وما يعيش في داخلك وإذا دعوتنا لأمر أم لم تدعُنا إليه فنحن نلبي ما ترغب إليه وتحبه وترضاه، لأنك رسول أمين لا تتحرك إلا لله ومن أجله وفي سبيل منافع العباد ومصالحهم وعلى هذا.

﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا﴾ سنوجهك إلى قبلة تحبها وترغب فيها.. إنها بشرى بتحقيق ما يرغب به النبي من قبلة... ما ترضاه قبلة لك سنوجهك

إليه ونصرفك نحوه سنوجهك إلى قبلة تقع موقع رضاك.. ثم يعيِّنها سبحانه بقوله تعالى..

﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِۚ﴾ توجّه نحو جهة المسجد الحرام في مكة.. إنه قبلتك وإن كنت في المدينة... فالمسجد الحرام حيث الكعبة الشريفة في وسطه هي قبلة النبي.

لقد تعيّنت القبلة للنبي... وانحسمت القضية لتكون حسب رغبة النبي وما يحب ولذا كان الخطاب إليه متوجهاً اهتماماً به وتلبية لرغبته...

ثم يتوجه الأمر إلى المسلمين قاطبة أن يتخذوا قبلة النبي ﷺ قبلة لهم.

﴿وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾ في أي مكان كنتم في شرق الأرض أو غربها في شمالها أو جنوبها توجهوا نحو المسجد الحرام الذي يضمّ الكعبة، وإليها يجب أن يكون التوجه وهذا نصٌّ في أن الجهة إلى المسجد الحرام تكفي لمن كان بعيداً لا يمكن إدراك عين الكعبة الشريفة...

ثم تثبيتاً لهذه الحقيقة الجديدة ـ تحويل القبلة شطر المسجد الحرام ـ قال تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْۗ﴾ فإن الذين أوتوا الكتاب يشمل اليهود والنصارى يعلمون من خلال ما ورد في كتبهم من البشارات بالنبي وأنه رسول إلى الناس كافة وبما رأوا من معجزات على يديه، يعلمون يقيناً صدقه في دعواه النبوة وبالتالي صدق ما جاء به من تحويل للقبلة، لأنها من جملة ما جاء به من أحكام تشريعية...

ثم سبحانه هدّدهم وخوفهم ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ فهو لا يخفى عليه سبحانه شيء من أعمالكم لا يهمل صغيرة أو كبيرة كلها في علمه وسيحاسبكم عليها وسيجزيكم بها...

قال تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَّا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٥﴾﴾.

اللغة

﴿أُوتُوا﴾: أعطوا.

﴿آيَةٍ﴾: الآية، الحجة والعلامة.

﴿تَبِعُوا﴾: من تبعه وأتبعه: قفا أثره، ويقال: اتبعه إذا لحقه.

﴿أَهْوَاءَهُم﴾: جمع هوى مقصور وهوى النفس ما تحبه وتميل إليه من الشهوة.

التفسير

﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَّا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ﴾ يحكي الله واقع أهل الكتاب من اليهود والنصارى، بل يقسم على هذا الموقف الموحد الذي جمعهم جميعاً في مواجهة النبي ﷺ ودعوته وأنه صلوات الله عليه لو جاءهم بكل المعجزات والدلالات والحجج والبينات على أن يحملهم على الإيمان به لم

يؤمنوا به لأن قرارهم كان ضده وضد دعوته عناداً واستكباراً ورفضاً للحق، ولم يكن موقفهم منه لنقصان في الدلائل الدالة على صدقه وصدق ما جاء به لأن الطالب للحق يمكن أن يهتدي إذا شك في أمر أو تردد فيه إذا توضحت أمامه الرؤية وانقشعت الحجب، ولكن من يقرّر موقفه مسبقاً ويصرّ على العناد فلن يؤمن مهما كانت البينات والأدلة والحجج وهكذا كان أهل الكتاب وهذا هو موقفهم من النبي ودعوته وقبلته التي هي عنوان هذه الدعوة وشعارها. . .

ثم يقرّر الله حقيقة أخرى وبصيغة الخبر تأكيداً لمضمونها وكأنها واقعة صادقة لا يجوز العدول عنها.

﴿وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ﴾ ليس من شأنك أن تتبع قبلتهم بعد اليوم لوضوح الأمر ودوامه واستمرار البقاء على هذه القبلة المختارة. . إنه لا نسخ لهذه القبلة ولا تغيير فيها بعد الآن. . . إنك على يقين من دعوتك وصحة رسالتك فلا تتبع قبلتهم، أو يكون المعنى ليس لك بعدما جاءتك البينات الصادقة على صحة ما أنت عليه ليس لك أن تتبع ملتهم. . . وهذه الآية تقطع أطماعهم التي كانوا يذهبون بها إلى قولهم: إنه لو ثبت على قبلتنا لأمكن أن يكون صاحبنا الذي ترجوه. . . ثم إنه سبحانه يقرر حقيقة واقعة فيما بين الفريقين. . إنها العداوة فيما بينهم التي يستتبعها الانفصال في استقلال كل قوم بقبلة خاصة بهم بحيث لا يتبع اليهود النصارى في القبلة ولا يتبع النصارى واليهود في القبلة ﴿وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ﴾ أبداً لن يتبع بعضهم قبلة البعض الآخر وسيبقى الانفصال وستبقى العداوة. . .

ثم خاطب الله نبيه وأراد به أمته من باب «إياك أعني واسمعي يا جارة».

﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ﴾.

إذا اتبعتهم في أهوائهم المخالفة للحق وهي متابعتهم في التوجه إلى قبلتهم وإلى ما هم عليه بعدما جاءك من العلم المتمثل بالوحي الصادق بأن قبلتك هي

الكعبة، إذا اتبعت أهواءهم والحالة كذلك فأنت من جملة الظالمين بل أنت في صميم الظالمين وفيهم ومعهم وهذا لا يكون أبداً لمن أعطاه الله الحجج الصادقة وأنزل عليه البينات الصادعة وحفظه بالعصمة وأيّده من عنده بما يحفظ عليه الاستقامة والاستمرار في طريق الحق والعدل..

فوائد

١ - ذهب بعضهم إلى أن المراد من قوله: ﴿أُوتُوا ٱلْكِتَٰبَ﴾ مختص باليهود، لكن الحقيقة أنه يشملهم والنصارى وسياق الآية والخطاب في هذا السياق...

٢ - إن قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ﴾ نزلت تسلية للنبي ﷺ، لأن رفضهم لم يكن لقناعة عندهم وإنما كان عناداً واستكباراً رفضاً للحق.

٣ - ﴿وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ﴾ إشارة إلى عدم نسخ القبلة بعد هذه الآية وإنها لقبلة الأبدية لهذه الأمة...

٤ - قالوا إن قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ﴾ حيث أفرد القبلة ولم يثنها حيث لكل منهما قبلة - إنما كان إفرادها لاشتراكهما في البطلان.

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ الْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾﴾.

❁ ❁ ❁

اللغة

﴿ءَاتَيْنَٰهُمُ﴾: أعطيناهم.

﴿أَبْنَآءَهُمْ﴾: مفرده الابن وهو الولد الذكر ومؤنثه الابنة.

﴿فَرِيقًا﴾: جمعه أفرقة للقلة وأفرقاء للكثرة وهي الجماعة والطائفة.

﴿لَيَكْتُمُونَ﴾: كتم الشيء، ستره.

﴿الْحَقَّ﴾: أصل الحق المطابقة والموافقة كمطابقة رجل الباب في حقه لدورانه على استقامة.

﴿الْمُمْتَرِينَ﴾: الشاكين.

التفسير

﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ الْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾.

هذا بيان لوضوح صفات النبي ﷺ عند أهل الكتاب، وإنهم يعرفونه بصفاته

وخصائصه والمعجزات الدالة على صدقه وصدق ما جاء به ﴿يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾، فكما أنهم يعرفون أبناءهم من بين أبناء غيرهم بمجرد أن تقع أعينهم عليهم ويميزونهم عنهم بما يملكون عنهم من خصوصيات وصفات، كذلك يعرفون محمداً أنه رسول من الله بما وردت به كتبهم من البشارات من حيث ذكر مبعثه ومهاجره وصفاته وما يأتي به من معجزات تحكي صدقه وتثبت صحة ما ادعاه ودعى إليه. . .

ثم إنه سبحانه نعى على فريق منهم وهم الذين كتموا هذا العلم وتلك المعرفة ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾.

وهذه أعظم جريمة يرتكبها إنسان يعرف الحقيقة ثم يكتمها فلا يبوح بها أو يكشفها. . . إنها جريمة رهيبة يقتل خلالها أعظم شخصية ويمحو أعظم رسالة ويطفىء نور الله. . . جريمة عن سابق معرفة تتضمن قتل نبوة والقضاء على رسالة واحتلال أمة من الناس تثق به وتقتدي بسيرته. . .

إن فريقاً من أهل الكتاب، وهم العلماء، مع معرفتهم الكاملة بالنبي محمد وأنه مبعوث من قبل الله يكتمون صفاته التي عرفوها من خلال كتبهم ويتنكرون لكل ما ورد فيه وفي صفاته وخصائصه. . .

﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾﴾ ما أنت عليه وما جئت به هو الحق من ربك، فلا تكونن من الشاكين فيه لمجرد كتمان أهل الكتاب له وعدم بيانه. . .

فوائد

١ ـ قالوا إن قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ مختص بعلماء أهل الكتاب وإن كان اللفظ عام. .

٢ ـ قالوا إن الضمير في قوله ﴿يَعْرِفُونَهُۥ﴾ يرجع إلى رسول الله وهو المختار

كما في شرحنا المتقدم، وجاز ذلك لشهرة رسول الله وعدم الالتباس لو ذُكر بالضمير وفيه تفخيم بحيث لو ذكر بالضمير لعُلم شهرته.

وهناك قول ضعيف أن الضمير راجع إلى القبلة، فيكون المعنى أن العلماء من أهل الكتاب يعرفون أمر القبلة كما يعرفون أبناءهم وهذا بعيد.

٣ ـ إن قوله: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ وإن كان متوجهاً إلى النبي ﷺ ظاهراً ولكن المراد به أمته واقعاً، وإذا بقي على الظاهر فهو تهديد للأضعف بطريق أولى وأشد، لأن من كان في القرب من الله بهذه المثابة ثم يهدّد بهذا التهديد فمن كان أقل منزلة حقه الاحتراز أكثر وأكثر...

قوله تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٨﴾﴾.

❁ ❁ ❁

اللغة

﴿وِجْهَةٌ﴾: وزنها فعلة من المواجهة، والوجهة والجهة والوجه بمعنى واحد.

﴿مُوَلِّيهَا﴾: متوجه نحوه يقال ولّيتُ وجهي كذا إذا أقبلت به عليه.

﴿فَاسْتَبِقُوا﴾: أصل السبق التقدم في السير، والاستباق: التسابق.

﴿الْخَيْرَاتِ﴾: جمع خيرة الأعمال الصالحة.

التفسير

﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ لكل قوم ـ مسلمين ونصارى ويهود ـ جهة أي قبلة هو يتوجّه إليها ويؤمن بها سواء كان هذا التوجّه عن اعتقاد وأدلة وبرهان أو كان عن هوى وميول ورغبات، ولذا عقّبه بدعوة المسلمين إلى التمسك بقبلتهم التي هي عنوان الخيرات بل بدايتها ومنها المنطلق. ولا يلتفتوا إلى ما يقوله غيرهم أو يعطوا اهتمامهم لهم فإن الله سيجمعهم جميعاً.

﴿أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا﴾ في أي بقاع الأرض كنتم سيأتي الله بكم جميعاً مسلمين ونصارى ويهود وسيحاسبكم فيثيب المطيعين ويعاقب العاصين، وهو وحده العالم بالسرائر والنوايا وما تنطوي عليه قلوبكم وتخفيه نفوسكم.

﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فلا يعجزه إحضاركم جميعاً. إن الذي خلقكم من العدم وأوجدكم بعد أن لم تكونوا شيئاً، قادر على إعادتكم وجمعكم وحسابكم وما أنتم إلا جزء صغير حقير من هذا العالم وقدرته عامة شاملة لا يحدها كبير أو صغير ومهما كان عظيماً أو جليلاً.. إنه على كل شيء قدير بما تحويه كلمة شيء مما عدا الله وما تحمله قدرته المطلقة النافذة في الأشياء كلها.

فوائد

١ ـ إن قوله تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ﴾ ما هو المضاف إليه المحذوف في قوله ﴿لِكُلٍّ﴾.

قالوا: إنه يشمل المسلمين واليهود والنصارى، وهذا ما اخترناه في التفسير لمناسبة المقام حيث الحديث كله يدور على هذه الطوائف الثلاث وبينهم كان الخلاف وخصوصاً اليهود. وقالوا: ما تقدم بإضافة المشركين.

وقالوا: إن المضاف إليه خاص بالمسلمين المتوجهين إلى الكعبة، وأن لكل طائفة من المسلمين جهة من الكعبة يتوجهون إليها بحسب مواقع بلادهم منها...

٢ ـ اختلفوا في الضمير الغائب ﴿هُوَ مُوَلِّيهَا﴾ فعلى ما اخترناه يرجع إلى كل أحد، فيصير المعنى لكل أحد وجهة هو مولي وجهه نحوها وهو الأنسب بالسياق وعود الضمير إلى مذكور ولا يؤدي إلى عود على مقدر...

وقالوا إن قوله ﴿هو﴾ يرجع إلى الله، وعليه يصبح المعنى: إن لكلٍ قبلة الله تعالى يوليه هذه القبلة ويوجهه نحوها...

٣ ـ ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ لفظ عام يشمل جميع الخيرات، والأمر متوجه

للمسابقة إلى فعلها، ومن جملتها التوجه إلى القبلة التي يمكن أن تكون تعبيراً عن الصلاة وأهم الخيرات وأعظمها ولاية أمير المؤمنين علي بن أبي طالب والأئمة من أهل البيت عليهم السلام والتزام أوامرهم ووصاياهم وما صدر عنهم...

٤ ـ ﴿أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا﴾ وردت الأخبار الكثيرة أن الأئمة استشهدوا بهذه الآية على أن الله يجمع أصحاب الإمام صاحب الزمان (عج) عندما يأذن الله له بالفرج والخروج، وهذه قضية من مصاديق الكبرى الكلية...

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾﴾.

اللغة

﴿فَوَلِّ﴾: يقال وليت وجهي كذا أقبلت به عليه...

﴿حُجَّةٌ﴾: الحُجّة الدّلالة المبيِّنة للمحجة أي المقعد المستقيم.

﴿تَخْشَوْهُمْ﴾: الخشية: خوف يشوبه تعظيم، وأكثر ما يكون ذلك عن علم بما يخشى منه.

﴿وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي﴾: تمام الشيء: انتهاؤه إلى حد لا يحتاج إلى شيء خارج عنه، والتمام: الكمال.

﴿النِّعْمَةِ﴾: الحالة الحسنة.

التفسير

﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ تعيين واضح وأمر ظاهر في توجيه النبي ﷺ نحو المسجد الحرام حيث الكعبة المشرفة. . . إنه أمر للرسول كي يلزم هذه الجهة في صلاته في كل أسفاره فضلاً عن حضره.

﴿وَإِنَّهُۥ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ إن التوجّه إلى المسجد الحرام هو الحق الصادر من الله المأمور به وليس للأهواء علاقة به أو دخل.

﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ تهديد ووعيد لكل من يعمل سوءاً فإن الله يحصي عليه أعماله ليحاسبه بها، فأما يجزيه بالنار أو يثيبه بالجنة. ومناسبة المقام فيه تهديد لأولئك الذين يشككون المؤمنين في مواقفهم ويقولون في القبلة وتحويلها ما يدخلون به الشك والتردد على أصحاب الإيمان والتوجه السليم.

﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾.

أعاد الأمر إلى النبي أن يتوجه نحو المسجد الحرام وأفرده اهتماماً به وتعظيماً لشأنه ثم أردفه بالأمر إلى المسلمين فقال. . .

﴿وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾ فتوجهوا أيها المسلمون أينما كنتم من بلاد الله في شرقها أو غربها أو أي البقاع فتوجهوا نحو المسجد الحرام، واتجهوا في صلاتكم نحوه، وطبعاً يدخل النبي ﷺ في ضمن هذا الخطاب العام.

ثم علّل ذلك الأمر بالتوجه نحو المسجد الحرام، بقوله:

﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾ عندما تتوجهوا نحو المسجد الحرام ـ الكعبة ـ تقطعون حجج المناوئين الذين كانوا يحتجون عليكم تارة كما كان يقول اليهود: إن محمداً يخالفنا في ديننا ويتبع قبلتنا.

ومرة ثانية يقولون: إن محمداً لا يدري إلى أين يتوجه.

وتارة ثالثة كما يقول العرب: إن محمداً يدعي أنه على سيرة إبراهيم وفي

الوقت نفسه لا يتوجه إلى قبلته وهكذا تتوالى التهم وتكثر الادعاءات فقطعاً لهذه الحجج ومنعاً من تسربها إلى أفكار المسلمين حيث تشككهم في دينهم.

كان هذا التوجه إلى البيت الحرام فتثبت القبلة وتستقر وتتخذ مكانها الثابت من توجه المسلمين وأفكارهم...

ثم استثنى فئة ظالمة لا تنفعها الحجج ولا البينات ولا كل البراهين والأدلة..

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى﴾.

فهؤلاء لن تنفعهم الحجج مهما كانت قوية، سيبقون على عنادهم وكفرهم يتمسكون بالأباطيل التي تمليها عليهم أهواءهم دون التفات إلى عقل أو ضمير، وهؤلاء يجب أن لا تخافوا منهم لأنهم بشر لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً، ولا يملكون ـ بطريق أولى ـ نفعكم أو ضركم وأنا وحدي الذي أملك النفع والضر فالخوف يجب أن يكون مني والطمع يجب أن يكون بما عندي...

﴿وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِى عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ معطوف بحسب اللفظ على قوله ﴿لِئَلَّا﴾ ويصبح المعنى ﴿فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾ ﴿ولأتم عليكم نعمتي﴾ فيصبح لتحويل القبلة علتان...

وتمام النعمة من هذه الجهة لإفرادهم بقبلة مستقلة رضيها لهم الله وخصّهم بها دون غيرهم، ولعلهم يهتدون إلى وجوه المصالح الموجبة لقربهم من الله والذين يعرفون من خلالها ما يوصلهم إلى رضاه وطاعته والعمل بما أراد.

فائدتان

١ ـ إن قيل ما فائدة تكرار قوله تعالى: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾؟.

قيل: إن فائدة هذا التكرار أن القبلة كانت أول ما نسخ من الأحكام الشرعية فدعت الحاجة إلى التكرار لأجل التقرير والتأكيد وإزالة الشبهة..

وقيل: إنما كرّر الحكم لتكرر علله من كون القبلة كان يطلبها النبي ويرضاها، ومن كونها القبلة الحق من ربكم، ومن كونها قطعت حجة المخالفين من اليهود والعرب. . .

وقيل: إن الأمر منزل على أحوال:

فالأمر الأول: لمن هو شاهد الكعبة.

والثاني: لمن كان في مكة ولكن غائباً عن الكعبة.

والثالث: لمن كان بعيداً عنها في النواحي والآفاق.

٢ ـ ما المراد من الناس في قوله تعالى: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ﴾ قالوا إن المراد بالناس هم أهل الكتاب من اليهود وقيل الأعم منهم ومن العرب المشركين.

قال تعالى: ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾﴾.

اللغة

﴿أَرْسَلْنَا﴾: من الرْسل وأصله الانبعاث على التُّؤدة وهنا يراد بعثنا.

﴿يَتْلُوا۟﴾: يقرأ.

﴿وَيُزَكِّيكُمْ﴾: من التزكية وهي التنمية وزكى المال إذا نمى، وتستعمل في معنى الطهارة.

﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾: القرآن.

﴿ٱلْحِكْمَةَ﴾: إصابة الحق بالعلم والعقل، فالحكمة من الله تعالى معرفة الأشياء وإيجادها في غاية الإحكام ومن الإنسان معرفة الموجودات وفعل الخيرات، وبعضهم فسّر الحكمة هنا بالسنة النبوية.

التفسير

طائفة كبيرة من الآيات المتقدمة استعرضت أحوال بني إسرائيل وأعمالهم وممارساتهم البشعة، وقد كان كل ذلك العرض الواسع لأحوالهم من أجل أن

يعتبر بها المؤمنون ويدرسوها جيداً ويعرفوا طبيعة هؤلاء القوم وكيف مارسوا أبشع الظلم بموقفهم المعادي للإسلام ونبيه، كما كانت مخالفاتهم لأنبيائهم تمثل التحدي الصارخ لله ولأوامره وما جاء به هؤلاء الأنبياء...

وهنا يأتي الحديث عن المؤمنين يذكّرهم الله بمننه وعطاياه وما فيه سعادتهم في الدنيا والآخرة، ولذا يقول تعالى:

﴿كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ﴾ هذا له تعلق بما تقدم ﴿وَلِأُتِمَّ نِعۡمَتِي﴾ والتشبيه واقع على النعمة والمعنى: كما أتممت عليكم نعمتي كذلك أرسلت فيكم رسولاً منكم، وكونه منهم أي أنه عربي، لكي يكونوا أقرب لقبول قوله واستماعهم منه وأخذهم عنه لما عُرف به العرب من تعصب في المواقف ورفض لما جاء به غيرهم...

وكونه منهم فيه شرف كبير لهم عز ورفعة، وبه يكبرون وبه يفخرون...

إن كونه منهم من دواعي المبادرة إلى قبول قوله والاستجابة له والوقوف معه، ويحملون الفكرة الرسالية ويدافعون عنها ويقاتلون من أجلها...

ثم عدّد مهمات هذا النبي ودوره بالنسبة إلى من أرسل إليهم وهم الناس جميعاً وإن كان الخطاب للحاضرين يومها، ولكن خصوص المورد لا يقيّد الوارد ـ كما يقال ـ فيعم جميع البشر لأن ما أتى به حي دائم ولازم لكل إنسان ويحتاجه كل فرد، والمهمات هي:

١ ـ ﴿يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا﴾ يقرأ عليكم آيات القرآن وما فيها من أحكام وتشريع وأخلاق وآداب، وهو الرجل الأميّ وفي هذا كفاية على صدق نبوته وصحة ما جاء به.

٢ ـ ﴿وَيُزَكِّيكُمۡ﴾ يطهركم من العقائد الفاسدة والأعمال القبيحة والأفعال الشنيعة وقد طهّر (صلوات الله عليه) أولئك الأخيار من الصحابة واستطاع أن يصقل نفوسهم بالتقوى وطاعة الله وحب الخير.

٣ ـ ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ يفقّهكم كتاب الله ويفهّمكم أحكامه وما جاء فيه من أجل العمل به والاقتفاء لأثره ومتابعة طريقه. . .

٤ ـ ﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾ هي الأمور التي تفصل بين الحق والباطل وتعرفهم طرق الحق وما فيه منافعهم وما يقرّبهم من الله تعالى، وهذا المعنى أعمّ وأجمع من قول من قال إنها سنة النبي ﷺ أو أنها معرفة الدين والفقه فيه والاتباع له.

٥ ـ ﴿وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ﴾ يعلمكم ما لا يمكنكم الوصول إليه إلا عن هذا الطريق وهو طريق الوحي الذي ينزل على النبي وهو ينقله إليكم ويهديكم إليه. . .

فائدتان:

١ ـ إن قوله تعالى: ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا﴾ قيل إنه متعلق بمتأخر وهو قوله فاذكروني ويكون المعنى أن النعمة بالذكر جارية مجرى النعمة بالرسالة. . .

٢ ـ قوله تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ إن المراد بالحكمة هي سنة النبي لمقارنة الحكمة بالكتاب، وقيل: أراد بالحكمة الكتاب أيضاً من باب تعدد الوصف.

قوله تعالى: ﴿فَٱذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾﴾.

اللغة

﴿ٱلذِّكْرِ﴾: هيئة للنفس بها يمكن للإنسان أن يحفظ ما يقتنيه من المعرفة وهو كالحفظ وسمي الذكر باللسان ذكراً لأنه علامة على وجوده في النفس...

﴿وَٱشْكُرُوا۟﴾: الشكر: تصور النعمة وإظهارها، وشكر الله طاعته وعدم مخالفته.

التفسير

﴿فَٱذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ﴾ تعددت الأقوال في المراد منها حتى بلغت عشرة أقوال إن لم تكن أكثر، ولعل ما يفهمه عامة الناس وعوامهم هو المراد وعليه مدار الأقوال لأنها جزئيات تندرج تحت ذلك المفهوم العام الذي هو ﴿فَٱذْكُرُونِيٓ﴾ بالتزام أوامري والبعد عن معصيتي ﴿أَذْكُرْكُمْ﴾ بالأجر والثواب ودفع البلاء ورفع الذكر لكم والإعلاء من شأنكم.

﴿وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ اشكروا نعمي المتمثلة في أصل وجودكم وفي كل موجود عندكم ولا تكفرون، وكفران النعمة أي سترها وعدم القيام بحقوقها ومتطلباتها وهي عدم وضعها موضعها المعد لها واللائق بها...

فوائد

١ ـ ذكر الله باللسان، يكون بالتحميد والتهليل والتسبيح وقراءة القرآن وغير ذلك، وذكر الله في القلب أن يفكر في عظمته وقدرته وقوّته وعلوّ شأنه، وذكره بالجوارح: القيام بالواجبات والبعد عن المحرمات.

وإن أهم الذكر أن يبتعد الإنسان عن معصية الله ويفكّر في كل عمل يريد القيام به، هل لله فيه رضى فيقوم به، أم ليس لله فيه رضى فيتوقف عنه ويمتنع عن القيام به، وبهذا يحقق معنى الذكر حقيقة وبهذا جاءت الأحاديث.

ـ في الحديث عن أبي عبد الله عليه السلام قال: أشد الأعمال ثلاثة:

الأول: إنصاف الناس من نفسك حتى لا ترضى لها منهم بشيء إلا رضيت لهم منها بمثله.

الثاني: ومواساتك الأخ في المال وذكر الله على كل حال. ليس سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر فقط.

الثالث: ولكن إذا ورد عليك شيء أمر الله به أخذت به وإذا ورد عليك شيء نهى عنه تركته..

وفي الحديث عن النبي صلى الله عليه وآله قال: من أطاع الله فقد ذكر الله وإن قلّت صلاته وصيامه وتلاوته للقرآن ومن عصى الله فقد نسي الله وإن كثرت صلاته وصيامه وتلاوته للقرآن...

٢ ـ الكفر على أقسام في أحاديثنا...

أ ـ منها: ما يقابل الإسلام.

ب ـ منها: ما يقابل الإيمان.

ج ـ منها: ما يقابل الطاعة، فيكون الكفر في مقابل العصيان وهذا هو المراد في الآية الكريمة التي نحن بصددها...

الفهرس